الفقه المالكي في بلاد توات

إجتهادا وتدريسا

بحوث الملتقى الوطني بأدرار

منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

الشيخ عبد الرحمان الجيلالي

الشيخ محمد شارف

الشيخ محمد بلكبير

الشيخ محمد باي بلعالم

إلى الذين صبغوا حياتهم بالقرآن والسنة، وجعلوها كلها لله.

إلى الذين ارتقوا في معراج العلم والأخلاق والإلتزام . . .

إلى الذين سخروا أنفسهم وأنفاسهم في خدمة وطنهم وأمتهم، معلمين ومرشدين ودعاة إلى الفضائل. . .

إلى أصحاب النفوس الطاهرة المطمئنة. . .

إلى أرواح العلماء الأجلاء بقية السلف الصالح. . .

الشيخ عبد الرحمان الجيلالي

الشيخ محمد شارف

الشيخ محمد بلكبير

والشيخ محمد باي بلعالم

أنزل الله عليهم شآبيب الرحمة والغفران، وجزاهم عن أمتهم خير ما يجازي الصالحين المصلحين. . .

إلى هؤلاء الصفوة، هدي هذا العمل الذي نعتبره من صدقاتهم الجاريات ومن ثمارهم اليانعات

الفهرس

الباب الأول : الفقه المالكي في المغرب الإسلامي ومنصفاته.

- المدارس الفقهية المالكية، قراءة النشأة والخصائص
الدكتور محند أو إدير مشنان 13

- موطأ الإمام مالك : المصادر والخصائص
الأستاذ الدكتور، أحسن زقور 31

- المختصرات الفقهية المالكية وسبل الإستفادة منها
الأستاذ الدكتور، خير الدين سيب 51

- رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومنهجها في التأصيل و التوصيل
الدكتور: المبروك زيد الخير 67

- خليل بن إسحاق الجندي وأثره في الفقه المالكي
الدكتور : موسى اسماعيل 89

- المرشد المعين ـ قراءة في المنهج والمضمون ـ
الدكتور، التواتي بن تواتي 125

الباب الثاني : دور علماء توات في تطوير الفقه المالكي.

- دور علماء توات في إرساء العلاقات العلمية في الحواضر الإسلامية ـ الشيخ المغيلي أنموذجا ـ
الدكتور: حميدة بن زيطة 147

- دور علماء توات في نشر المذهب المالكي وترسيخه بالجزائر
الشيخ مولاي عبد الله الطاهيري 163

- التأليف الفقهي عند علماء توات أعلامه ومضامينه. "دراسة في مخطوط غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل أنموذجا".
الدكتور أحمد جعفري 171

- مختصرات الفقه المالكي وجهود علماء توات في خدمتها
الأستاذ : زهير بن عبد الرحمان قزان 191

- المرشد المعين لابن عاشر وأثره في التكوين الفقهي بمدرسة توات المالكية
الدكتور: محمد دباغ 209

- النوازل التواتية : منهجها وخصائصها
الأستاذ: محمد جـرادي 219

الباب الثالث : الشيخ بلكبير : الفتوى والتدريس.

- مناقب الشيخ بلكبير وجهوده في نشر المذهب المالكي
الشيخ الحاج السالم بن إبراهيم 237

- الفتوى عند الشيخ الحاج سيدي محمد بلكبير
الشيخ / عبد الحق بكراوي 249

مقدمة

دأبت الوزارة على تنظيم ملتقيات فكرية ثقافية تتناول عناصر الهوية الوطنية والمرجعيات الحضارية التاريخية فمنها ما يقام في ولاية عين الدفلى عن "المالكية" سنويا وولاية تيسمسيلت عن "الونشريسي" وفي منطقة توات التي احتضنت الملتقى الوطني الأول "الشيخ سيدي محمد بن الكبير"، تحت عنوان: "المذهب المالكي وجهود علماء المنطقة في ترسيخه ونشره "المنعقد يومي 23 - 24 جوان 2010 بأدرار، الذي ننشر أعماله هنا في كتاب نهديه إلى أرواح مشايخنا الذين خدموا المالكية والوطنية ومنهم بالخصوص الذين فارقونا في السنوات الأخيرة، الشيوخ سيدي محمد بن الكبير وعبد الرحمن الجيلالي ومحمد باي بلعالم.

إن البحوث المجموعة هنا وغيرها التي صدرت سابقا عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف تشكل مادّة معرفية خصبة للباحثين وللقارئ الجزائري والعربي ليتعرف على تعدد المدارس الفقيه في الجزائر وخصوصياتها، هذه المدارس التي حافظت على وحدة المجتمع واستمرار المالكية الأشعرية إلى اليوم، بجانب الإباضية التي شكلت تراثاً فقهياً واجتماعياً حافظ أيضا على تناغم المجتمع، وظل نبراساً قوياً ملهماً لأجيال من علماء الجزائر وأدبائها، ومن بين هؤلاء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش والشيخ بن داود والشيخ إبراهيم بيوض.

إن مدارس الفقه في الجزائر تميزت بالاعتدال والوسطية في الاستنباط والأحكام والفتيا، وزانها تصوف سلوكي جنيدي شاذلي يدّرس للمبتدئين والطلاب كمقدمات قبل العبادات والمعاملات، وإن الحواضر العلمية الجزائرية استمرت في العطاء لقرون متتالية (تيهرت، بسكرة، غرداية، بجاية، قسنطينة، تلمسان وبنو راشد، ووادي سوف ومازونة وتوات).

إنه تنوع جغرافي وثقافي واجتماعي، أبرزته النوازل وشروحات المختصرات الفقهية، فما كتب من شرح وتعليق ونظم حول مختصر خليل فاق أربعة وثلاثين تأليفا.

ومن الأوائل الذين أخذوا عن سحنون والمدرسة القيروانية الإفريقية إسحاق بن عبد المالك الملشوني (ملشون قرية من قرى بسكرة) في القرن الثالث الهجري وأبو بكر بن حماد بن سهل الزناتي التهرتي (ت 296 هـ)، وكان التأثير في البدء واضحا للمشارقة في طريقة التأليف والاستنباط والنظر ثم تدريجيا تكونت الخصوصية الحضارية الثقافية التي علينا إبرازها وتقديمها وتبيان مميزاتها وكيف استطاعت الحفاظ على وحدة المجتمع وكيف يمكن استثمارها اليوم من أجل فتح اجتهادي جديد يتفاعل مع الآخر ويستفيد من المنجزات العلمية في مجال العلوم الإنسانية والثقافية المعلوماتية المعاصرة. هكذا نستطيع أن نقدم إخلاصا علمياً لتراثنا وحمايته بالاجتهاد، وتحصين هويتنا الثقافية والحضارية والتي لا تعني بالضرورة الانغلاق والجمود بل "الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحقّ بها".

سيلي هذا الكتاب أخرى تضمّ صفحاتها أعمال وبحوث لملتقيات، وكذا تأليف لمشايخ وباحثين لم تطبع سابقا، والله من وراء القصد.

د. بومدين بوزيد

مدير الثقافة الإسلامية بالوزارة

الفقه المالكي في المغرب الإسلامي ومصنفاته.

المدارس الفقهية المالكية
قراءة النشأة والخصائص

من إعداد: الدكتور محند أو إدير مشنان

نائب مدير التعليم القرآني، أستاذ كلية العلوم الإسلامية – جامعة الجزائر

الحمد لله رب العالمين، والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين،

وبعد،

فإن المذهب المالكي من المذاهب الفقهية التي كتب الله عز وجل لها البقاء والانتشار، ويرجع ذلك إلى أسباب تاريخية وموضوعية متعددة تناولها الدارسون لتاريخ التشريع الإسلامي ورجالاته ومذاهبه، نذكر منها على الخصوص ما يلي:

1 - كثرة المصادر التشريعية[1]، ممّا أكسب المذهب المالكي خصوبة ومرونة وملائمة للحوادث والنّوازل المتجدّدة عبر الزمان والمكان، وخصوصا قاعدة المصالح المرسلة التي توسع فيها الإمام مالك وأكثر من الأخذ بها.

2 - تنوع المصادر النقلية والعقلية، وهو ما يصنف المذهب المالكي ضمن المدارس التي جمعت في منهج الاستدلال بين النقل والرأي والنظر، وإن اشتهر بين الناس بتتبع الأثر والوقوف عند الأخبار[2].

---

1 - وفي هذا الصدد يقول الشيخ أبو زهرة «... إنه أكثر المذاهب أصولا، حتى إن علماء الأصول في المذهب المالكي يحاولون الدفاع عن هذه الكثرة، ويدّعون على المذاهب الأخرى أنها تأخذ بمثل ما يأخذ به من الأصول عددا، ولكنا لا نسميها بأسمائها ولا نريد أن نخوض في ذلك، بل إنا نقول: إن الأمر لا يحتاج إلى دفاع لأن تلك الكثرة حسنة من حسنات المذهب المالكي يجب أن يفاخر بها المالكيون، لا أن يحمّلوا أنفسهم مؤنة الدفاع، ولذلك نحن نرى أنه أكثر المذاهب أصولا غير محاولين أن نحمل غيره ما لم يقل أهله».
أنظر: مالك للشيخ محمد أبي زهرة ص 375/6.

2 - ذكر أبو الفضل راشد بن أبي راشد الوليدي في كتابه الحلال والحرام: «أن الأصول التي بنى عليها مالك مذهبه ستة عشر: نص الكتاب، وظاهر الكتاب وهو العموم، ودليل الكتاب وهو مفهوم المخالفة، ومفهوم الكتاب وهو مفهوم الموافقة، وتنبيه الكتاب وهو التنبيه على العلة... فهذه خمسة ومثلها في السنة النبوية والمجموع عشرة ثم الاجتماع، والقياس، والاستحسان، وسد الذرائع، وعمل أهل المدينة، وقول الصحابي، فهذه ستة عشر، واختلف في مراعاة الخلاف: هل يعد من أصوله أم لا؟ فمرة يراعيه ومرة لا يراعيه».
أنظر الفكر السامي للحجوي (1/ 316).

3 - قوة عارضة الإمام مالك وتلاميذه ومن تبعهم من أئمة المذهب على اختلاف درجاتهم العلمية والاجتماعية، وقد قيل : «اللّيث أفقه من مالك لولا أن تلاميذه ضيعوه»[1]، فقد خدم هؤلاء المذهب تأصيلا وتفريعا وتدريسا وتأليفا ومناقشة ومناظرة.

4 - اتساع الرقعة الجغرافية للمذهب وخصوصا في القرون الأولى، وتفاعلهم مع المذاهب والمدارس الفقهية المنتشرة في تلك الربوع، مما ساعد على ظهور مدارس فقهية في المذهب المالكي تبعا للرقعة الجغرافية التي وجد فيها أئمة تلك المدارس، وعليه فيمكن القول بأن تعدد المدارس الفقهية المالكية من عناصر تنمية المذهب المالكي ورسوخه واستقراره[2].

مفهوم المدرسة واللغة والاصطلاح :

وقبل عرض هذه الورقة المختصرة التي سأحاول إلقاء الضوء على أهم تلك المدارس، من حيث نشأتها، وأهم أعلامها وأئمتها، وبعض خصائصها، لابد من توطئة منهجية لتحديد مفهوم المدرسة لغة واصطلاحا.

فالمدرسة في اللغة تطلق على موضع الدرس[3].

أما في الاصطلاح فلا نكاد نعثر على تعريف اصطلاح في كتب المتقدمين، لأنه استعمال اصطلاح حديث. ولعل من أقرب المفاهيم لما نحن بصدده في تراثنا الفقهي هو "الطريقة" و"الطرق".

فالطريقة كما عرفها الشيخ خليل في الوضيع هي «عبارة عن نقل شيخ أو شيوخ يرون أن المذهب كله على ما نقلوه».

أما الطرق فهي «عبارة عن اختلاف الشيوخ في كيفية نقل المذهب»[4]

---

1 - الفكر السامي للحجوي ص 306.

2 - نشأ المذهب المالكي في المدينة، وتوسع في العراق ومصر وفي إفريقيا شمالها وجنوبها وفي الأندلس وصقلية، وبلاد خراسان وقزوين وأبهر، وظهر بنيسابور وبلاد فارس، وانتشر في اليمن وكثير من بلاد الشام.
أنظر: مقدمة ابن خلدون (2/ 805)، ترتيب المدارك للقاضي عياض (1/23، 27، 65)، الديباج لابن فرحون (1/ 55، 56).

3 - أنظر: لسان العرب لابن منظور (1/1258)، المصباح المنير للفيومي ص 102.

4 - أنظر: التوضيح لخليل بن إسحاق ص 86، مواهب الجليل للحطاب (1/38).

أما معنى المدرسة في الاصطلاح. كما في بعض المعاجم الحديثة. فهو : «جماعة من الفلاسفة أو المفكرين أو الباحثين، تعتنق مذهبا، أو تقول برأي مشترك. ويقال: هو من مدرسة فلان، على رأيه ومذهبه»[1].

ومجاراة لهذا التعريف يمكن أن يقال في تعريف المدرسة المالكية بأنها: اتجاه فقهي أسس له الإمام مالك، وسار عليه تلاميذه وأئمة المذهب من بعدهم وقدموا فيه إضافاتهم وإسهاماتهم، فهم بذلك ينتمون إلى مدرسة واحدة أو مذهب مشترك.

غير أن المدرسة المالكية الأم نشأت عنها مدارس فقهية فرعية حسب توزعها الجغرافي واتجاهاتها الفقهية والاجتهادية، ويمكن تعريف هذه المدارس الفرعية بأنها: اتجاهات فقهية تفرعت عن المدرسة الأم، وفقا لاجتهادات أصحابها، واستقرت في مناطق جغرافية معينة[2].

المدارس الفقهية المالكية وتنوع مناهجها وتوزيعها الجغرافي :

انتشر المذهب المالكي في أصقاع كثيرة من المعمورة، مع تفاوت بينها من حيث القوة والضعف، وقد أدى هذا الانتشار إلى ظهور مدارس داخل الفقه المالكي، كان لها أثرها الكبير في تطّور العمل الاجتهادي في المذهب ويمكن إرجاع هذه المدارس إلى ما يلي :

1 - المدرسة المدنية :

المدينة المنورة هي منبع الفقه المالكي، الذي يسمى أيضا الفقه المدني ففيها أخذ الإمام مالك العلم، وفيها انتصب للتدريس والإفتاء والتحديث، وكان له فيها تلاميذ تبلورت على أيديهم المدرسة المالكية المدنية كقسم للمدارس الأخرى، ومن أبرزهم: محمد بن دينار (ت 182هـ)، وأبو حازم سلمة بن دينار الأعرج (ت 185هـ)، وعثمان بن كنانة (ت 185هـ) الذي خلف الإمام مالكا في مجلس العلم بعد وفاته، وعبد الله بن نافع الصايغ (ت186هـ)، والمغيرة بن عبد الرحمن (ت 186هـ) الذي دارت عليه الفتوى

1 - أنظر: المعجم الوسيط (1/ 280).

2 - وراجع أيضا : المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص25.

بالمدينة بعد شيخه مالك، ومحمد بن مسلمة (ت 206 هـ)، وعبد الملك بن الماجشون (ت 214 هـ)، ومطرف بن عبد الله (ت 220 هـ)[1].

ثم تلتهم الطبقة الصغرى أمثال علي بن المديني (ت 234 هـ)، وأبي مصعب بن أبي بكر (ت 242 هـ)، الذي كان يقول : «يا أهل المدينة لا تزالون ظاهرين على أهل العراق ما دمت حيا»، وأبي عبد الله محمد بن يزيد المدني[2].

ورغم أن هذه المدرسة لم يكتب لها البقاء والاستمرار، إذ بدأت تتراجع هناك بعد وفاة الطبقة الصغرى من أصحاب مالك[3]، إلا أنها كانت مصدر إشعاع لكل البلاد التي انتشر فيها المذهب المالكي، فقد كانت إليها الرحلة من العراق، ومصر، والمغرب، والأندلس، وبذلك انتقلت آراء أئمتها ورواياتها وطرائقهم إلى هذه البلاد.

ومن أبرز سمات المدرسة المدنية :

- اعتمادها على الحديث بعد القرآن الكريم، دون النظر إلى كون العمل موافقا له أو غير موافق، وقد ظهر ذلك جليا في آراء ابن الماجشون ومطرف

---

1 - أنظر: الديباج لإبن فرحون (1/ 359، 361)، شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف (2/ 55، 57)، المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 49، 50، اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 62، 64.

2 - أنظر: الديباج لابن فرحون (1/119)، شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف (1/ 57).

3 - ومن المؤشرات التي تدل على ذلك أن كتب التراجم والطبقات وتاريخ التشريع لا تسعفنا بمظاهر تدل على استمرار عطاء المدرسة المالكية المدنية، فعلى سبيل المثال نجد محمد مخلوف في شجرة النور الزكية (1/ 55، 57، 64) يذكر عدة أعلام من المدرسة المالكية المدنية في أطوارها الأولى إلى منتصف القرن الثالث، ولا يذكر أعلام المدرسة الحجازية بعد ذلك.

ولا يخفى تأثير النزاعات السياسية التي عرفتها المنطقة بين العباسيين والعلويين، وما تبع ذلك من نفوذ الشيعة العبيديين، وذكر ابن فرحون في الديباج (1/ 55) ضعف ببغداد بعد أربعمائة سنة، ونقل في تبصرة الحكام (2/ 24، 25) عن ابن العربي «أن المدينة كانت شاغرة من أحكام أهل السنة سنة 489 هـ».

بينما يرى الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى لابن تيمية (20/ 166) أن أهل المدينة استمروا على مذهب الإمام مالك إلى حدود المائة السادسة.

وأنظر : المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 52، 53.

واتفقت آراؤهما في ذلك حتى لقبا بالأخوين. وتأثر بهذا النهج ابن وهب المصري (ت 197 هـ)، وعبد الملك بن حبيب[1].

ولعل قرب هؤلاء الأئمة من عهد إمام المدرسة الذي هو إمام أهل الأثر واستقرارهم في المدينة المنورة التي كانت محط أنظار طلبة الحديث والرواية، وقلة احتكاكهم بالمدارس الأخرى، وقصر المدة الزمنية لهذه المدرسة قد اجتمعت لتضفي على المدرسة المدنية هذه الخاصية.

- أنها أصل المدارس الأخرى، فإن رواد المدارس المصرية والعراقية والمغربية قد تأثروا بأعلام المدرسة المدنية، إذ انتشر فقه ابن الماجشون ومطرف في بلاد الأندلس وإفريقيا ومصر بواسطة ابن حبيب صاحب كتاب "الواضحة" الذي تعد من أمهات المذهب[2]. وانتشر فقه ابن نافع في إفريقية عن طريق تلميذه سحنون الذي عزا الكثير من الروايات والآراء في مدونته وكان للمغيرة بن عبد الرحمن وابن كنانة ومحمد بن دينار كتب انتشرت عنهم في إفريقية بواسطة محمد بن بسطام.

وانشرت آراء محمد بن مسلمة وابن الماجشون وغيرهما من العراق بواسطة إبن المعذل، وإسماعيل بن إسحاق وغيرهما[3].

2 - المدرسة المصرية :

وتعد أول المدارس نشوءا بعد مدرسة المدينة المنورة المشرفة، وكان أول روادها عثمان بن الحكم الجذامي (ت 163هـ)، وعبد الرحمن بن خالد الجمحي (ت 163 هـ) وقد رحلا إلى المدينة، وأخذا عن الإمام مالك، وهما أول من قدم مصر بمسائل مالك، ومن بعدهما طالب بن كامل اللخمي (ت173هـ)، وسعيد بن عبد الله المعافري (ت 173 هـ) وغيرهم.

---

1 - لمذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 54، ص 55، 57.

2 - أنظر: اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 113.

3 - لمزيد من المعلومات حول هذه النقطة يراجع كتاب المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 54، اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 64.

ثم جاءت بعدهم طبقة من الأئمة الأعلام المجتهدين الذين كان لهم فضل التأسيس الحقيقي للمدرسة المصرية وتقيدها وتأصيلها، كعبد الله بن وهب (ت 199 هـ)، وعبد الرحمن بن القاسم (ت 203 هـ)، وأشهب بن عبد العزيز (ت 204 هـ)، وعبد الله بن الحكم (ت 214 هـ)، فقد أخذ بعضهم عن الطبقة الأولى قبل أن يرحلوا إلى المدينة لسماع الإمام مالك والأخذ عنه، وبذلك تحكموا في المذهب المالكي أصولا وفروعا[1].

وانتقل لواء المدرسة المصريين بعدهم إلى فقهاء من الطراز العالي منهم: أصبغ بن الفرحة (ت 225هـ)، وأبو زيد عبد الرحمن بن أبي الغمر (ت 234هـ)، والحارث بن مسكين (ت 250هـ)، وأبو عثمان عبد الحكيم بن عبد الله عبد الحكم (ت 237هـ)، وأخوة محمد بن عبد الله بن الحكم (ت268هـ)، وأبو بكر محمد بن أبي يحيى زكريا الوقار (ت 269هـ)، ومحمد بن المواز (ت 269 هـ أو 271 هـ)، ثم توالى علماء هذه المدرسة جيلا بعد جيل[2].

ومن السمات الأساسية التي امتازت بها هذه المدرسة :

- توظيف الأصول النقلية والعقلية للمذهب.

- الإعتماد على عمل أهل المدينة، وبهذا أثر الإمام ابن القاسم في رسم هذا الملمح الذي سلكته المدرسة المصرية[3].

3 - المدرسة العراقية :

عرف مذهب الإمام مالك ازدهار كبيرا خلال القرنين الثالث والرابع في العراق، وخاصة في البصرة وبغداد، أسس له أئمة أعلام من تلاميذ الإمام مالك وأصحابه من أمثال أبي أيوب سليمان بلال قاضي بغداد (ت176هـ)، وعبد الله بن المبارك (ت 181هـ)، وعبد الرحمن بن مهدي (ت 198 هـ)، وعبد الله بن مسلمة القعنبي (ب 220 هـ).

---

1 - الديباج لابن فرحون (1/ 385، 361)، شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف (1/ 58، 59)، المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 67، 71، اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 70، 71.

2 - الديباج لابن فرحون (1/ 385، 161)، شجرة النور الزكية لمحمد المخلوف (1/ 66، 68)، المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 67، 71.

3 - المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 72، اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 72.

ثم جاءت بعدها طبقة من الأئمة الفقهاء كالقاضي أبي يوسف يعقوب بن إسماعيل بن حماد (ت 246هـ) وهو شيخ القاضي إسماعيل، وابن المعذل[1] ويعقوب بن أبي شيبة (ت 262 هـ)، وأبي إسماعيل حماد بن إسحاق البغدادي (ت 269 هـ)، وشقيقه القاضي أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق (ت 282 هـ أو 284هـ).

ووصلت المدرسة إلى ذروة قوتها وتطورت بالطبقة التي أعقبت من سلف، ومن أشهرهم القاضي إسماعيل بن إسحاق (ت 282 هـ)، وأبو العباس أحمد يوسف بن يعقوب البغدادي من آل حماد (301هـ)، والقاضي أبي بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن كبير (ت 305 هـ)، وأبو عمر يوسف بن يعقوب (ت 320 هـ)، والقاضي أبي بكر بن الوراق المروزي (ت 329 هـ)، والقاضي أبو الفرج البغدادي (ت 330 هـ) وغيرهم.

واستمر عطاء المدرسة ونهضتها في الطبقة الموالية التي شكل عقدها النفيس، أمثال الإمام أبي بكر الأبهري (ت 375 هـ)، وأبي القاسم بن الجلاب (ت 378 هـ)، وابن خويز منداد (ت 390 هـ)، وابن القصار (398 هـ)، وأبي بكر الباقلاني (ت 403 هـ)، والقاضي عبد الوهاب (ت 422 هـ)، والذين بموتهم ضعف المذهب المالكي في العراق[2].

ولكن آثار المدرسة العراقية بقيت تسري في المذهب المالكي من خلال آثار أئمتها وإسهاماتهم الكبيرة التي تزخر بها كتب المذهب ومصنفاته، فلا تكاد تجد مصنفا فقهيا في المذهب إلا وفي طياته من آراء المدرسة العراقية ما لا يعد كثرة، ويمكن الاطلاع على ذلك بسهولة من خلال البحث السريع الذي تتيحه الموسوعات الإلكترونية المختلفة.

وقد ساعد على ازدهار هذه المدرسة أول الأمر جملة من العوامل منها:

---

1 - لم أقف على تاريخ وفاته.

2 - المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 79، 80، اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 65، 67.

- تبني الدولة العباسية للمذهب المالكي توليه أئمته القضاء.
- اعتمادهم على المناظرة ومناقشة المسائل.
- اشتغالهم بالتدريس واعتناؤهم به[1].

- انفتاحهم على المذاهب الأخرى وعدم التعصب، وهذا ما فتح قلوب الناس إليهم، وقد عرف عن الأبهري أن الحنفية والشافعية إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم رجعوا إليه وسألوه[2].

- اجتهادهم في التأليف الفقهي، واعتمادهم على التأصيل والتقعيد وربط الفروع بالأصول[3].

ومن سمات هذه المدرسة ما يلي :

الاستدلال للمسائل الفقهية وتأصيلها: وهو منهج قائم على تأصيل المسائل الفقهية وإيراد الأدلة الأصلية أو التبعية، يقول المقّري عن مالكية العراق: «ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل...»[4]، ومن اطّلع على مؤلفات العراقيين كالإمام ابن القصار، والقاضي عبد الوهاب البغدادي وغيرهم، وجد هذه السمة بارزة واضحة[5].

- التقعيد الفقهي، ويظهر ذلك هذا الملمح في إرجاع المسائل الفرعية إلى القواعد الكلية أو الأغلبية أو الضوابط، وهو منهج سلكه الكثير من

---

1 - وقد وقفت على كلام نفيس يؤكد هذه السمة نقله عنه ابن فرحون في الديباج لابن فرحون (2/ 191، 192) عن القاضي أبي بكر الأبهري الذي قال: «كتبت بخطي المبسوط والأحكام لإسماعيل، وأسمعة ابن القاسم وأشهب وابن وهب، وموطأ مالك، وموطأ ابن وهب، ومن كتب الفقه والحديث نحو ثلاثة آلاف جزء بخطي، ولم يكن لي قط شغل إلا العلم، ولي في جامع المنصور ببغداد ستون سنة أدرس الناس وأفتيهم، وأعلمهم سنة نبيهم... قرأت مختصر ابن عبد الحكم ستمائة مرة، والأسدية خمسا وسبعين، والموطأ كذلك، والمبسوط ثلاثين مرة، ومختصر ابن البرقي سبعين مرة».
وأنظر: المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 81، 82.
2 - أنظر: الديباج لابن فرحون (2/ 191).
3 - اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور إبراهيم ص 67.
4 - أزهار الرياض للمقري (3/ 22).
5 - مقال بعنوان "المدرسة المالكية العراقية في مرحلة ازدهارها" للدكتور يحيى سعيدي ص 47، مقال بعنوان " المدرسة المالكية العراقية: النشأة والخصائص" للدكتور حميد لحمر (1/ 466).

رواد المدرسة العراقية كالقاضي إسماعيل، وابن خويز منداد، وابن القصار والقاضي عبد الوهاب[1].

- التخريج وجمع النظائر: وهو ما عبر عنه المقري حيث بقوله: «... فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم المدونة الأساس، وبنوا عليه فصول المذهب بالأدلة والقياس...»[2].

- العناية بالفقه الافتراضي أو التقديري: ولعل من أسباب ذلك تأثرهم بالبيئة العراقية ومجاورتهم للمذهب الحنفي الذي عرف واشتهر بالفقه الافتراضي[3].

- توظيف أساليب الحجاج والجدال: خصوصا في كتب الخلاف العالي بتأبيد أدلة المذهب ومسالكه والذب عنها، ومناقشة المخالفين والإجابة عن مستنداتهم وأدلتهم، وعن هذه الخاصية يقول المقري: «ودأبهم... تحرير الدلائل، على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين...»[4].

4 - المدرسة المغربية :

انتشر المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، الذي يشمل شمال إفريقيا وأرض الأندلس، وكان ذلك بواسطة تلامذة الإمام مالك الوافدين إليه.

---

1 - المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 83، وراجع مقالا بعنوان "الاستدلال بالقواعد الفقيه في اجتهادات المدرسة المالكية بالعراق " الدكتور حمزة أبو فارس، بحث مقدم للندوة الدولية حول الاجتهاد في المذهب المالكي ومقتضيات التنمية جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، المملكة المغربية. هذا وقد كتب الدكتور الريسوني موضوعا حول القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب الإشراف على مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب المالكي.

2 - أزهار الرياض للمقري (3/22)، وأنظر: المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 83.

3 - المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 83، اصطلاح المذهب عن المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 67.

4 - أنظر: أزهار الرياض للمقري (3/ 22)، مقال بعنوان "المدرسة المالكية العراقية في مرحلة إزدهار" للدكتور يحيى سعيدي ص 46، مقال بعنوان " المدرسة المالكية العراقية" للدكتور عبد المنعم التمسماني (1/ 459)، اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 67.

وكان عددهم يربو عن الثلاثين، من أبرزهم ابن زياد (ت 183هـ) والبهلول بن راشد (ت 183 هـ)، وعبد الرحيم بن أشرس[1]، وعبد الله بن غانم (ت 190 هـ)، ومن الأسماء غير المتداولة من هذه الطبقة نذكر أبا سليمان محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي، ومحمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي وهما ممن سمع من الإمام مالك ورويا عنه[2].

هذا، وتتلمذ على ابن زياد علمان من أعلام المذهب:

أحدهما: أسد بن الفرات (ت 213 هـ) الذي كان له أثر كبير في بناء صرح هذه المدرسة من خلال كتابه المعروف بالأسدية.

الثاني: هو الإمام سحنون (ت 240 هـ) الذي روى المدونة، وقد عرفت المدرسة المغربية ازدهارا كبيرا في عهد سحنون، حتى قيل فيه : «كأنه مبتدأ قد محا ما قبله، فقد كان أصحاب سرج أهل القيروان... فهو عالمها وإبن عبدون (ت 260 هـ) فقيهها، وابن عمر (ت 289 هـ) حافظها[3]... كل هذه الصفات مقصورة على عهدهم»[4].

ومن أهل هذه الطبقة محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي (ت 249 هـ)، وإسحاق بن عبد الملك الملشوني[5] (ت 226)، وأبو عبد الرحمن بكر بن حماد سهل الزناتي التاهرتي (ت 296 هـ).

وخلفهم أئمة أعلام من أمثال أبي بكر اللباد (ت 333 هـ)، ودراس بن إسماعيل (ت 357 هـ)، وعلي بن محمد بن زكريا بن الخصيب الطرابلسي المعروف بابن زكرون (370 هـ)[6].

---

1 - لم أقف على تاريخ وفاته.

2 - أنظر: الديباج لابن فرحون (1/359) المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 95، اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 72.

3 - ابن عبدوس وابن عمر من تلامذة سحنون.

4 - أنظر: مقدمة ابن خلدون (2/806، 807)، المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 96.

5 - نسبة إلى بلدة ملشونة في الجنوب الجزائري.

6 - أنظر: المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 97، 98، بحث بعنوان "المدرسة المالكية الفقهية في ليبيا خلال القرون الستة الأولى للهجرة "للدكتور حمزة أبو فارس ضمن الشبكة العنكبوتية، بحث بعنوان "نبوغ المدرسة الجزائرية" للدكتور موسى إسماعيل ص 50.

ثم توالى انتشار المذهب في أقطار المغرب كله، رغم المضايقات التي كان يلقاها[1].

أما الأندلس فقد حمل المذهب المالكي إليها يحيى بن يحيى الليثي، ثم أفضى الأمر بعده إلى تلميذه ابن لبابة (ت 314 هـ)، والفضل بن سلمة (ت 319 هـ)، وأبي بكر بن زرب (381 هـ)، ومن بعدهم أبو عمر بن المكوي (ت 401 هـ).

وتعرض المذهب المالكي في أرض الأندلس إلى محن وفتن كادت أن تعصف به، لولا أن تصدر أبو محمد الأصيلي (ت 391 هـ)، والإمام أبو الوليد الباجي (ت 474 هـ) فنافحا عنه وأعادوا المياه إلى مجاريها، ثم ظهر بعدهم أئمة أعلام كأبي بكر الطرطوشي (ت 520هـ)، وابن رشد الجد (ت520هـ)، وأبي بكر بن العربي (ت 543هـ)، والقاضي عياض (ت544هـ)، وابن رشد الحفيد (ت 595 هـ)، وغيرهم، واستمر الأمر كذلك إلى أن ظهر الإمام الشاطبي (ت 790هـ) ومن بعده[2].

ومن سمات المدرسة المغربية :

- أنها تعتبر نتاجا لمدارس المالكية الثلاث، فقد عمل أئمتها على جمع تلك المميزات، فقد تبنى علي بن زياد الفقه التنظيري الفرض، وتأثر به أسد بن الفرات، وطور ذلك بدراسته لمذهب أهل الرأي (الحنفية)، أما سحنون فقد ربط فقه الأسدية بالأثر على طريقة أهل المدينة، دون أن يهمل ما كان عليه العمل، أخذا من طريقة المصريين...[3].

- اهتمامها في التأليف والتدريس بما يمكن أن يسمى "الدراسة النصية" وهو ما عبر عنه القاضي عياض. كما نقل أبو العباس المقري. بالاصطلاح

---

1 - كما وقع في عصر العبيديين والموحدين مثلا.
أنظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض (1/ 26)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي ص 202، 204، اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 76، المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، للدكتور نذير حمادو ص 11- 59.

2 - مقدمة ابن خلدون (2/806)، المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 100، 103.

3- المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته لمحمد المامي ص 114، اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 73، 74.

القروي وهو «البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها»[1].

- العناية بكتب النوازل والأحكام والوثائق والعقود، ومن نماذج ذلك في النوازل والأحكام مؤلفات ابن سهل (ت 486 هـ)، وأبي المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي (ت 497 هـ)، وابن رشد الجد (ت 520هـ)، وابن الحاج (ت 526 هـ)، والقاضي عياض (ت 544 هـ)، والمازوني (ت883هـ)، والونشريسي (ت 914هـ)، أما في الوثائق والعقود فنذكر مصنفات ابن العطار (ت 399هـ)، وابن الهندي (ت 399 هـ)، وابن أبي زمنين (ت 399هـ)، وأبي أيوب البطليوسي (ت 402 هـ)، وأبي الوليد الباجي (ت 433 هـ)، والمتيطي (ت 570 هـ) غيرهم[2].

- ظهور فقه الماجريات أو ما جرى به العمل، وهو العدول عن القول المشهور أو الراجح إلى غيره رعيا للمصلحة[3]، وكان ذلك من نتائج تفاعل الفقه مع التطبيقات القضائية، وظهرت مصطلحات جديدة كالعمل المطلق والعمل المحلي كالعمل القرطبي والفاسي والقيرواني، وألفت كتب في هذا الشأن كنظم العمل الفاسي وشرحه لعبد الرحمن الفاسي (ت 1096)، ونظم العمل المطلق، وشرح العمل الفاسي للسجلماسي (ت 1214 هـ)[4].

1 - أزهار الرياض للمقري (3/ 22)، وأنظر: اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 74.

2 - اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 263، 268، 276، 309، 313، 320، 326، 336، 337، 361، 362، 470، 479، 490.

3 - نشر البنود للعلوي الشنقيطي (2/333).

4 - اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم ص 396، 398، 524، 540.

الخاتمة

إن المذهب المالكي بما فيه من أصول وفروع ومدارس وخصائص ومميزات، قد أثار إعجاب قلوب العلماء فانطلقت ألسنتهم بالثناء عليه وذكر محاسنه، ولعلّ من خير من تحدّث في هذا الباب هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، الذي وصف المذهب المالكي قائلا: «... مذهبهم - أي أهل المدينة – في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم، أصحُّ مذاهب أهل المدائن شرقا وغربا، في الأصول والفروع»[1]، وأضاف قائلا: «جملة مذهب أهل المدينة راجحة على مذاهب أهل المشرق والمغرب»[2].

ونظر إلى أصول الإمام مالك فعلق عليها بقوله: «ومن تدبَّر أصول الإسلام، وقواعد الشريعة، وجد أصول مالك وأهل المدينة أصحَّ الأصول والقواعد...»[3].

وأبى إلاَّ أن ينصف الإمام مالكًا ويعترف له بما هو أهل له فقال: «لا ريب عن أحد أن مالكا، رضي الله عنه، أقومُ الناس بمذهب أهل المدينة رواية ورأيا، فإنه لم يكن في عصره أقوم بذلك منه...»[4].

وقد أطال الحديث في هذا المقام، ولكنه لما رأى أن استقصاء الأمر قد يطول، استدرك ولخص الأمر فقال: «وهذا باب يطول تتبعه، ولو استقصينا فضل علماء أهل المدينة وصحة أصولهم، لطال الكلام»[5].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

1 - مجموع الفتاوى لابن تيمية (163/20).
2 - مجموع الفتاوى لابن تيمية (183/20).
3 - مجموع الفتاوى لابن تيمية (180/20).
4 - مجموع الفتاوى لابن تيمية (176/20).
5 - مجموع الفتاوى لابن تيمية (176/20).

المصادر والمراجع

* أزهار الرياض في أخبار عياض، للإمام شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041 هـ)، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ، 1398 هـ، 1978م.

* اصطلاح المذهب عند المالكية، للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1: 1421 هـ. 2002م.

* تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، للإمام برهان الدين إبراهيم بن علي بن أبي القاسم بن محمد بن فرحون المالكي المدني (ت 799 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

* ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للإمام القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت 544هـ)، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط2، 1403 هـ، 1983م.

* التوضيح شرح جامع الأمهات لابن الحاجب، للشيخ خليل بن إسحاق (ت767هـ)، دراسة وتحقيق لأول الكتاب إلى نهاية الفوائت، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفقه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، للباحث عبد العزيز بن سعود الهويمل، إشراف الدكتور محمد الهادي أبو الأجفان، 1422هـ، 1423هـ.

* الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، للقاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي (ت 799 هـ)، تحقيق الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، ط 1: 1423هـ، 2003م.

* شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي بيروت، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، 1349هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها.

* الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، للشيخ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي (ت 1376هـ)، اعتنى به هيثم خليفة طعيمي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط1، 1427هـ، 2006م.

* لسان العرب، للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت 711هـ)، مراجعة وتدقيق الدكتور يوسف البقاعي، إبراهيم شمس الدين، نضال علي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ، 2005م.

* مالك: حياته وعصره، آراؤه وفقهه، للشيخ محمد أبي زهرة، دار الفكر العربي، بيروت.

* مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (ت 728هـ)، اعتنى بها وخرج أحاديثها عامر الجزار، وأحمد الباز، دار الوفاء.

* المذهب المالكي: مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته، إعداد محمد المختار محمد المامي، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1422هـ، 2002م.

* المصباح المنير في شرح غريب الرافعي الكبير، تأليف العلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت 770هـ)، اعتنى بها يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2010م، 1431هـ.

* المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لأبي محمد عبد الواحدي بن علي المراكشي (ت 647هـ)، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1: 1426هـ، 2006م.

* المعجم الوسيط، لمجموعة من الباحثين، مجمع اللغة العربية بمصر، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر.

* مقدمة ابن خلدون (مطبوعة مع التاريخ)، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتاب العربي، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان.

* مواهب الجليل شرح مختصر خليل، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي المعروف بالحطاب (ت 954هـ)، وبهامشه التاج والإكليل لمختصر خليل للإمام المواق (ت 898هـ)، دار الفكر بيروت، ط2: 1398هـ، 1979م.

* نشر البنود على مراقي السعود، للشيخ سيدي عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي (ت 1233هـ)، صندوق إحياء التراث المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة.

* مقال "المدرسة المالكية الفقهية في ليبيا خلال القرون الستة الأولى للهجرة" الدكتور حمزة أبو فارس ضمن الشبكة العنكبوتية.

* مقال بعنوان " الاستدلال بالقواعد الفقهية في اجتهادات المدرسة المالكية بالعراق"، الدكتور حمزة أبو فارس، ضمن الندوة الدولية حول الاجتهاد في المذهب المالكي ومقتضيات التنمية، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، المملكة المغربية.

* مقال بعنوان "المدرسة المالكية العراقية: النشأة والخصائص" للدكتور حميد لحمر، ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول للقاضي عبد الوهاب المالكي.

* مقال بعنوان "المدرسة المالكية بالعراق" للدكتور عبد المنعم التمسماني، ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول للقاضي عبد الوهاب المالكي.

* مقال بعنوان "نبوغ المدرسة الجزائرية" للدكتور موسى إسماعيل، ضمن أعمال الملتقى الوطني الخامس للمذهب المالكي، حول المدرسة المالكية الجزائرية، الذي نظمته وزارة الشؤون الدينية والأوقاف مع ولاية عين الدفلى، سنة 1430هـ، 2009م.

* مقال بعنوان "المدرسة المالكية العراقية في مرحلة ازدهارها" للدكتور يحيى سعيدي، ضمن أعمال الملتقى الرابع للمذهب المالكي "المذهب المالكي بعد مرحلة التأسيس"، من تنظيم وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، مع ولاية عين الدفلى، 1429هـ، 2008م.

موطأ الإمام مالك :
المصادر والخصائص

أ.د/ أحسن زقور

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ـجامعة وهران.

مقدمـة :

من المعلوم قطعا أن الله تعالى قد بنى شريعته على القرآن الكريم وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، حيث جعل الوحي وحيان: القرآن والسنة، إذ قال على محمد نبيه: «**وما ينطق عن الهوى إن هوإلا وحي يوحى**»، فكان الاهتمام الأعظم للقرآن الكريم أولا، حيث تولى الله حفظه إذ قال: «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**»، فسخر عقول الناس وأذهانهم وصدورهم لحفظه وحفظ مدركاته، فكان الأول حفظا في الصدور على الإطلاق في كل العصور...

ولما كان الخوف من أن يختلط على الناس القرآن والسنة واردا فقد نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم، أول الأمر عن كتابة سنته، فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليّ –قال همام أحسبه قال متعمدا- فليتبوأ مقعده من النار»[1]، وهذا النهي كان على أن يكتبوا عنه الحديث كما يكتبوا عنه القرآن وبنفس الكيفية من الحرص وجعله كتابا مستقلا... وأما إذا كان ليس كذلك: فلا نهي عليه، فقد كان عبد الله ابن عمروبن العاص يكتب الحديث كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمروفإنه كان يكتب ولا أكتب»[2].

1 - أوجز المسالك
2 - أوجز المسالك

أولا : الموطأ أصل المذهب المالكي

تدوين السنة النبوية: ثم كان الاهتمام الثاني بالسنة النبوية من حيث التدوين –بعد كتاب الله وبعد استقراره في الصدور والسطور في المصاحف- بل حتى الاهتمام بآثار الصحابة رضوان الله عليهم وفتاويهم وفتاوى التابعين وتابعي التابعين من الفقهاء المجتهدين، إذ بمجرد مازالت علّة النهي عن تدوين السنة حتى انطلق الأعلام يدونون ويمحصون ويصححون سندات الأخبار فيها... فكان ظهور المصنفات المختلفة والمختلطة أولا، ثم ظهور المسانيد ثانيا، ثم تصحيح المسند منها ثالثا، ثم إفراد السنة عن آثار الصحابة وأقوال التابعين وسائر الفقهاء رابعا، ثم ظهور المعاجم الخمس.

الطبقة الأولى لمدوني الحديث النبوي الشريف: وهي طبقة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت.125هـ)، وأبي بكر بن حزم (ت. 120هـ)، وسميت بهما لأنهما الأبرز على الإطلاق فيها.

واختلف أهل الحديث في أي منهما كان الأسبق، فقيل: كان السبق إلى ذلك ابن شهاب الزهري، إذ أمره به الخليفة عمر بن عبد العزيز، وذلك بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بمائة عام، لأنه كان المجدد لهذه الأمة في هذا القرن، أمره بتدوينها في المائة الثانية للهجرة[1] وقيل أن أول المدونين هوابوبكر محمد بن عمروبن حزم المتوفى سنة 120هـ حيث كلفه هوكذلك عمر بن عبد العزيز بما كلف به ابن شهاب الزهري[2].

الطبقة الثانية: أما الطبقة الثانية من هؤلاء الأعلام فتأتي مدعمة للطبقة الأولى خاصة لما تأكد زوال علة النهي عن تدوين السنة النبوية أوكاد، ومن أبرز أعلام هذه الطبقة: الربيع بن صبيح (ت. 160هـ)، وسعيد بن أبي عروبة (ت.156هـ) وقيل بعدها، وإمام دار الهجرة مالك بن أنس (ت.179هـ)، وابن جريج عبد الملك بن عبد العزيز (ت.150هـ) وقيل بعدها، والأوزاعي عبد الرحمن ابن عمرو(ت. 157هـ)، وسفيان الثوري (ت. 161هـ)، وحماد بن

1 - أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك للكاندهلوي، ج1،ص14، ط/ دار الفكر، بيروت لبنان.
2 - المصدر نفسه.

سلمة (ت. 167هـ) وهشيم بن بشير (ت.183هـ)، ومعمر بن راشد نزيل اليمن (ت.154هـ)، وعبد الله بن المبارك (ت.181هـ)، وجرير بن عبد الحميد قاضي الري (ت. 188هـ)[1]. ومصنفات هؤلاء الأعلام كانت بعد سنة 120هـ أو130هـ، ويقال: إن أول ما صُنف في الإسلام كتاب ابن جريج في الآثار وحروف من التفسير بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن، جمع فيه سننا منثورة مبوبة، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس، ثم جمع ابن عيينة كتاب الجامع والتفسير، وجامع الثوري صنفه أيضا في هذه المدة[2].

سبب جمع السنة مع غيرها في مصنفات الأعلام الأوائل : وسبب كتابة هذه المصنفات مختلطة بآثار الصحابة وفتاويهم وفتاوي التابعين وتابعي التابعين من كبار الفقهاء منهم : كان لابد من كتابتها هكذا مختلطة لأنه بهذه الطريقة في جمعها تكون أبعد عن إفراد السنة بالتأليف والجمع الذي جاء النهي عنه كما رأينا سابقا في صحيح مسلم حيث جاءت السنة أدلة على الأحكام الشرعية التي حوتها هذه المصنفات، إذ القصد في كتابتها: الاستدلال بها وليس التدوين الابتدائي المجرد كما جاء في المسانيد مجردة عن الأحكام.

الطبقة الثالثة، عصر تدوين المسانيد: فبعد تمام الطبقة الثانية من هؤلاء الأعلام وازدهار اهتمامهم بالحديث وآثار الصحابة والتابعين وأحيانا التفسير وأقوال الفقهاء المجتهدين: تحل طبقة ثالثة وعصر آخر اهتم أصحابه بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المسندة دون غيرها، فأفردوها بالتأليف مراعين في ذلك ترتيبها حسب مسندها (راويها)، وكان ذلك على رأس مائتين، إذ صنفوا المسانيد[3].

فصنف عبد الله بن موسى العبسي (ولد بعد 120هـ وتوفي سنة 213 هـ) مسندا وصنف نعيم بن حماد الخزاعي (ت. 228هـ) ويقال بأنه أول من جمع

1 - المصدر السابق، ج1، ص15.
2 - المصدر السابق، ج1، ص16.
3 - تزيين الممالك بمناقب سيدنا مالك للسيوطي، طُبع مع المدونة، ص42، ط/ دار الفكر، بيروت لبنان.

المسند، ثم الإمام أحمد بن حنبل (توفي 281هـ) وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد المشهور بابن راهويه (ت. 238هـ)، وعثمان بن أبي شيبة (ت 231هـ)[1].

الطبقة الرابعة، عصر تدوين الجوامع الصحيحة: ثم تبع عصر المسانيد عصر المجامع الصحيحة، وكان أول من ألف فيه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت. 256) بجامعه: «الجامع الصحيح المسند من أحاديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسننه وأيامه» حيث ألفه على طريقة الأحكام والكتب والأبواب مع اعتماد السند وصحته.

ثم تبعه على نفس المنهجية الإمام أبوالحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسبوري (204-261هـ) بجامعه الصحيح.

الطبقة الخامسة، عصر تدوين السنن: وأول من صنف في السنن «على ما قاله الخطابي هوإمام المحدثين سليمان بن الأشعث أبوداود السجستاني (202-275هـ)، ثم تلاه أبوعبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي (215-303هـ) بسننه ثم أبوعبد الله محمد بن يزيد القزويني الشهير بابن ماجد (209-273هـ) بسننه كذلك ثم محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت.279هـ).

مكانة موطأ الإمام مالك بين سائر مصنفات الحديث:

لقد وصف العلماء الموطأ بأنه الأصل الأول وبأنه اللباب، وبأن كتاب البخاري هوالأصل الثاني ثم الكتب الأخرى وقد بنيت عليهما، كما وصف بأنه أصح كتاب بعد القرآن العظيم ...

قال ابن العربي: «الموطأ هوالأصل الأول واللباب، وكتاب البخاري هوالأصل الثاني في هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي»[2].

وقال الشافعي: «ما بعد كتاب الله أنفع من الموطأ»، وقال: «ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك»، وقال: «ما وضع على الأرض كتاب هوأقرب إلى القرآن من كتاب مالك بن أنس، يعني

1 - أوجز المسالك، ج1، ص16.
2 - ترتيب المدارك، ج2، ص70. - تزيين الممالك، ص42.

«الموطأ» وقال: «ما بعد كتاب الله كتاب أكثر صوابا من موطأ مالك». وقال أحمد بن حنبل عن الموطأ: «ما أحسن الموطأ لمن تدين به»[1].

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «ما كتاب بعد كتاب الله أنفع للناس من الموطأ»[2]. وقال ابن وهب:» من كتب موطأ مالك فلا عليه ألا يكتب من الحرام والحلال شيئا»[3].

وقال سعيد بن أبي مريم: «لوأن ابني أخي مكثا بالعراق – وقد رحلا إليه لطلب العلم- وهما يكتبان عمرهما ليلا ونهارا، ما أتيا بعلم يشبه موطأ مالك».أوقال: «ما أتيا بسنة مجتمع عليها خلاف موطأ مالك بن أنس»[4].

وسئل إسحق بن راهويه: «أي الكتابين أحسن، كتاب مالك أوكتاب سفيان؟ قال: كتاب مالك»[5].

وقال في التمهيد: «كتاب الموطأ لا مثيل له، ولا كتاب فوقه بعد كتاب الله عز وجل»، وقال: «ما كتاب بعد كتاب الله أنفع للناس من الموطأ»[6].

ومما قاله الدهلوي في الموطأ: «من تتبع المذاهب ورزق الإنصاف، علم لا محالة أن الموطأ عدة مذهب مالك وأساسه، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبي حنيفة وصاحبيه ونبراسه، وهذه المذاهب بالنسبة للموطأ كشروح للمتون.

وعلم أيضا أن الكتب في السنن كصحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي وما يتعلق بالفقه من صحيح البخاري وجامع الترمذي: مستخرجات على الموطأ تحوم حومه، وتروم رومه، مطمع نظرهم فيها: وصل ما أرسله، ورفع ما أوقفه، واستدراك ما فاته، وذكر المتابعات والشواهد لما أسنده»[7].

---

1 - التمهيد لابن البر ج1، ص75. ترتيب المدارك ج2، ص70. تزيين الممالك للسيوطي، ص43.
2 - تزيين الممالك للسيوطي، ص43. التمهيد ج2، ص78. ترتيب المدارك ج2، ص70.
3 - تزيين الممالك للسيوطي، ص43. التمهيد ج2، ص78. ترتيب المدارك ج2، ص70.
4 - ترتيب المدارك ج2، ص70. تزيين الممالك، ص44.
5 - ترتيب المدارك ج2، ص70. تزيين الممالك، ص44.
6 - التمهيد لابن البر ج1، ص75، ط/ مؤسسة قرطبة، بيروت، لبنان.
7 - حجة الله البالغة لولي الله الدهلوي، ج1، ص146، ط/ دار المعرفة، بيروت لبنان.

نسبة الموطأ إلى الإمام مالك:

يعد الموطأ أول كتاب في الإسلام لم يختلف الناس في صحة نسبته إلى مؤلفه، إذ كانت كل الكتب التي سبقته أوالتي عاصرته لم تصح نسبها إلى أصحابها، ولعل السبب راجع إلى أن الناس آنئذ ما كانوا يهتمون بالمؤلفات، لأنهم كانوا يعتمدون في علمهم على السماع، وعلى حفظهم وقوة حافظتهم.

ولقد تناقلت الأجيال تلوالأجيال كتاب الموطأ ولم يختلفوا في نسبته إلى صاحبه مالك، مع كثرة رواته واختلاف مواطنهم ومذاهبهم.

قال في فتح الباري: «إنّ آثار النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن في عصر الصحابة وكبار تابعيهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة لأمرين:

1. أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك كما ثبت في صحيح مسلم، خشية ان يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم.

2. سعة حفظهم وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة.

ثم حدث في آخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار، ولما كثرت البدع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار.

فأول من جمع ذلك: الربيع بن صبيح، وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما، وكانوا يصنفون كل باب على حدة، إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة: فدوّنوا الأحكام، فصنف الإمام مالك الموطأ، وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم...»[1]، فكما ترى تلهف الخليفة أبي جعفر المنصور على جعل الموطأ أول قانون وضعي يحكم به الدولة الإسلامية، وحرص الإمام مالك على ترك كل جهة من جهات الأمة تختار ما تراه مناسبا لها قانونا وضعيا، ومن هنا ترى خرافة الادعاء بجعل قانون واحد يحكم جميع الأمة الإسلامية اليوم.

1 - مقدمة فتح الباري للحافظ بن حجر العسقلاني، ص5، ط/الرياض.
- تزيين الممالك للسيوطي، ص42، مطبوع ملحقا بالمدونة.

عدد مسائل الموطأ:

عدد مسائل الموطأ يحي ابن اليثي وهو آخر ما عرض على الإمام مالك هو ثلاثة آلاف مسألة فقهية[1]، فثلاثة آلاف فتوى فقهية، وعليه : إذا نظرنا إلى عدد الأحاديث عن رسول الله، صلى عليه الله وسلم، فيه وقارناه بعدد الفتوى وجدنا الموطأ أنه كتاب فقه حيث لم يتجاوز عدد الحديث فيه الألف، وإذا لم نراعي هذا الجانب من عدد الفتاوى وراعينا الحديث فقط وجدناه كتاب حديث.

سبب تأليف الموطأ:

1 - إن الإمام مالك رأى عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون قد ألّف كتابا جمع فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة المنورة وسماه الموطأ إذ جيء به، ولما قرأه مالك قال: «لو كنت أنا الذي عملت لبدأت بالآثار ثم شددت ذلك بالكلام»، قال ابن عبد البر في تمهيده على الموطأ: «أول من عمل كتابا بالمدينة على معنى الموطأ: من ذكر ما اجتمع عليه أهل المدينة: عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، وعمل ذلك كلاما بغير حديث» ثم قال: «فأُتِيَ مالك فنظر فيه فقال: «ما أحسن ما عمل، ولو كنت أنا الذي عملت لبدأت بالآثار ثم شددت ذلك بالكلام»، ثم قال: إن مالكا عزم على تصنيف الموطأ فصنفه»[2].

2 - استجابة الإمام مالك لطلب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي ألحّ عليه ذلك مرارا[3]، قال في ترتيب المدارك: «روى أبومصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: «ضع للناس كتابا لأحملهم عليه» فكلمه مالك

1 - التعليق الممجد 76/6

2- التمهيد لابن عبد البر 1/86، الإمام وعمله بالحديث في الموطأ،، ص 246، 247، لمبروك.

3 - المرجع نفسه.

في ذلك فقال: «ضعه فما أحد اليوم أعلم منك !». فوضع الموطأ، فلم يفرغ منه حتى مات أبوجعفر»[1].

«وفي رواية: أن المنصور قال له: «يا أبا عبد الله ! ضُمَّ هذا العلم، ودوّن كتبا وجنّب فيها شدائد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ورخص عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وشواذ بن مسعود رضي الله عنه، وأقصد أواسط الأمور، وما اجتمع عليه الصحابة والأئمة»[2].

«وفي رواية أنه قال له: «اجعل هذا العلم علما واحدا !»، فقال له: «إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تفرقوا في البلاد، فأفتى كل في مصره بما رأى، إن لأهل البلاد قولا وإنّ لأهل المدينة قولا، ولأهل العراق قولٌ تعدّوا فيه طورهم»، فقال: «أما أهل العراق فلست أقبل منهم صرفا ولا عدلا، وإنما العلم علم أهل المدينة، فضع للناس العلم !»[3].

وقال مالك: «لما حجّ أبوجعفر المنصور دعاني، فدخلت عليه فحادثته، وسألني فأجبته، فقال: «إني عزمت أن آمر بكتابك هذا الذي وضعته –الموطأ- فينسخ نسخا، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة وآمرهم بأن يعملوا بما فيها لا يتعدوها إلى غيرها، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث، فإني رأيت أصل العلم راية أهل المدينة وعلمهم»، فقلت: «يا أمير المؤمنين ! لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم مما سبق إليهم وعملوا به، ودانوا له، ومن اختلاف الناس وغيرهم، وإنّ ردهم عمّا قد اعتقدوه : شديد، فدع الناس وما هم عليه ! وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم، فقال: «لعمري لوطاوعتني على ذلك لأمرت به»[4].

---

1 - ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ج2، ص72، ط/ وزارة الأوقاف، المملكة المغربية.
2 - ترتيب المدارك ج2، ص 73.
- الديباج المذهب ج1، ص 118.
- تزيين الممالك، ص 43.
3 - ترتيب المدارك ج2، ص 72. - الديباج المذهب ج1، ص 118. - تزيين الممالك، ص 43.
4 - ترتيب المدارك ج2، ص 118.
- تزيين الممالك، ص 46.

سبب تسمية الموطأ بالموطأ:

قال أبوعبد الله محمد بن إبراهيم الكناني الأصبهاني: قلت لأبي حاتم الرازي: موطأ مالك بن أنس لِمَ سمي موطأ؟

فقال: «شيء قد صنفه ووطأه حتى قيل موطأ مالك، كما قيل: جامع سفيان»[1].

وقال مالك: «عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه، فسميته الموطأ»[2].

وقال ابن فهر: «لم يسبق مالكا أحد إلى هذه التسمية، فإن من ألّف في زمانه بعضهم سمى بالمخرج وبعضهم بالمصنف وبعضهم بالمؤلف، ولفظة موطأ بمعنى، الممهد، المنقح، المحرر، المصفى»[3].

وقال في ترتيب المدارك: إن أبا جعفر المنصور قد قال لمالك: « ألف للناس كتابا ووطئه لهم توطئة»[4].

تنقيح أحاديث الموطأ:

قال القاضي بن العربي: «ذكر ابن اللّباب أن مالكا روى مائة ألف حديث، جمع منها في الموطأ عشرة آلاف (أي لمّها في الموطأ)، ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة ويختبرها بالآثار والأخبار حتى رجعت إلى خمسمائة»[5]، بل مراعيا في ذلك ما يصلح لأن تدار به كل الأمة الإسلامية كما أمره بذلك الخليفة أبو جعفر المنصور.

وقال الكيا الهراسي في تعليقه في الأصول: «إن موطأ مالك كان اشتمل على تسعة آلاف حديث، ثم لم يزل ينتقي حتى رجع إلى سبعمائة»[6]، مراعيا قي ذلك أن يجعل منه قانونا وضعيا تُحكم به الدولة الإسلامية..

---

1 - تزيين الممالك لسيوطي، ص 43.
2 - نفس المصدر السابق، ص 43، تنوير الحوالك، شرح موطأ الإمام مالك للسيوطي، ج1، ص 7، ط/ دار الفكر، بيروت، لبنان.
3 - تزيين الممالك ص 43.
4 - ترتيب المدارك ج2، ص 73.
5 - ترتيب المدارك ج2، ص 73. تزيين الممالك للسيوطي، ص (42 - 43).
6 - المصدران نفسهما.

وأخرج أبوالحسن بن فهر في فضائل مالك عن عتيق بن يعقوب قال: «وضع مالك بن أنس الموطأ على نحومن عشرة آلاف حديث، فلم يزل ينظر فيه في كل سنة ويسقط منه حتى بقي منه هذا، ولوبقي قليلا لأسقطه كله»[1]،وهذا يوضح جليّا خرافة من يدعي اليوم جعل قانون واحد تُحكم به جميع الأمة الإسلامية.

وذكر القاضي عياض في المدارك عن سليمان بن بلال قال: «وضع مالك الموطأ وفيه أربعة آلاف حديث أوأكثر ومات وهي ألف حديث ونيّف يخلصها عاما بعد عام بقدر ما يرى أنه أصلح للمسلمين وأمثل في الدين»[2]، و ذلك أملا منه أن يجد قانونا واحدا تُحكم به كل الأمة الإسلامية فلم يجد.

وقال عنه ابن القطان: «كان علم الناس في زيادة وعلم مالك في نقصان، ولوعاش مالك لأسقط علمه كله من كثرة التحري»[3]، أي التحري فن يجد قانونا تُحكم به مشارق الأرض ومغاربها في الدولة الإسلامية.

فمن ظاهر هذه النصوص، ندرك أن مالكا كان يخلص أحاديث الموطأ عاما بعد عام مع كثرتها إلى أن صارت إلى هذا العدد القليل الذي فيه، آخذا بعين الاعتبار هدفين اثنين:

أ- أن لا يترك فيه إلا أصح الأحاديث.

ب- أن لا يترك فيه إلا ما يصلح للامة في ذلك الزمان، ويكون جامعا لها.

ولهذا لما جاء بعده الإمام البخاري وبعده الإمام مسلم وسائر أعلام الحديث جمعوا في كتبهم الصحيحة ما كان مالك قد أسقطه من الموطأ، فهي أحاديث صحيحة ولكنه قد أسقطها لأنها لا تصلح لأن يحمل كل الناس عليها يومها كما طلب منه الخليفة أبوجعفر المنصور، فأحاديث الموطأ الباقية بين دفتيه إذن هي الحد الأدنى الذي يصلح لأن يحمل كل الناس عليه ولا يختلفون الاختلاف البائن بينهم، وإن شئت قلت هي ما يصلح لأن يحمل الناس عليه

1 - نفس المصدر.
2 - ترتيب المدارك ج2، ص 73. - تزيين الممالك للسيوطي، ص 43.
3 - ترتيب المدارك ج 2، ص 73.

ولا يجدون أي مشقة في هذا الحمل، ولا يجدون الاختلاف الكبير بينه وبين ما عندهم مما ترك الصحابة والتابعون بعد انتشارهم في سائر الأصقاع.

والظاهر ان هذا الإسقاط لم يمس حدود الله من الواجبات والمحرمات، وإنما مس غيرها، خاصة جوانب الأخلاق والتربية.

بعض ما تميز به الموطأ من المصطلحات:

لقد انفرد الإمام مالك في موطئه ببعض المصطلحات التي لم تكن سائدة قبله، منها: «الأمر المجتمع عليه في بلادنا» و«الأمر عندنا» و«أدركت عليه أهل العلم في بدلانا» و....

ولقد سئل مالك عن هذه المصطلحات فبينها بقوله: «أما أكثر ما في الكتاب «رأيي»: فلعمري ما هوبرأيي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله تعالى فكثر عليّ فقلت: «رأيي» وذلك رأيي إذ كان رأيهم مثل رأي الصحابة الذين أدركوهم عليه، وأدركتهم أنا على ذلك، فهذا وراثة توارثوها قرنا عن قرن إلى زماننا.

وما كان «أرى»: فهورأي جماعة ممن تقدم من الأئمة.

وما كان فيه: «الأمر المجتمع عليه» فهوما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه.

وما قلت: «الأمر عندنا» فهوما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام، وعرفه الجاهل والعالم وكذلك ما قلت فيه «ببلدنا».

وما قلت فيه: «بعض أهل العلم»: فهوشيء أستحسنته من قول العلماء.

وأما ما لم أسمع منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته، حتى وقع ذلك موقع الحق أوقريبا منه، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم، وإن لم أسمع ذلك بعينه فنسبت الرأي إليّ بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه أهل العلم المقتدى بهم، والأمر المعمول به عندنا منذ لدن

رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة الراشدين مع من لقيت، فذلك رأيهم وما خرجت إلى غيره»[1].

ثانيا : منهج الإمام مالك في الموطأ:

أما عن منهجه في الموطأ فقد قال في القبس: «إن مالكا بناه على تمهيد الأصول للفروع، ونبه فيه على معظم أصول الفقه الذي يرجع إليها مسائله وفروعه»[2]

وقال الشيخ أبوزهرة: «يستطيع القارئ المتتبع باستقراء الموطأ أن يعرف أصول مالك التي كان يجتهد في دائرتها، وعلى الطرائق التي حدها له لا يعدوها»[3].

وهاك بعض الأصول والتنبيهات والتلميحات عليها والتي حواها الموطأ.

1 - استدلال الإمام مالك بالقرآن الكريم:

لا يخلو كتاب أو باب في المؤطأ قد اشتمل على مسائل فقهيةإلاّ وقد هرع مالك إلى كتاب الله تعالى محتجا بآياته المناسبة، ومثاله:

أ - في كتاب وقوت الصلاة من الموطأ، باب ما جاء في دلوك الشمس وغسق الليل:

حدثني يحي عن مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: «[دُلُوكِ الشَّمْسِ] الإسراء 78: ميلها».

وعن مالك عن داود بن الحصين قال أخبرني مخبر أن عبد الله بن عباس كان يقول: [دُلُوكِ الشَّمْسِ]: إذا فاء الفيءُ، «[غَسَق اللَّيْلِ] الإسراء 78: اجتماع اللّيل وظلمته».

---

1 - ترتيب المدارك ج2، ص 74. الديباج المذهب 1/ (119 - 120)

2 - القبس في شرح موطأ مالك بن أنس لابن العربي، ص1، ط/ دار الغرب الإسلام، بيروت لبنان، 1992م.

3 - مالك بن أنس للشيخ أبو زهرة، ص 16، ط/ دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

فكما ترى أنه رضي الله عنه قدر ذكر تفسير «دلوك الشمس» و«غسق الليل» في قوله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ الإسراء الآية 78.

وقد سكت مالك عن معنى قوله تعالى ﴿**وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾، فأول ما وضع مالك في كتابه كان مبنيا على القرآن الكريم، فكل الأحاديث الواردة في وقوت الصلاة تحكمها هذه الآية، ولهذا جاء بها في آخر الكتاب.

ب - في كتاب الطهارة من الموطأ، باب وضوء النائم إذا قام إلى الصلاة:

عن مالك عن زيد ابن أسلم أن تفسير هذه الآية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ المائدة الآية 6: أن ذلك إذا قمتم من المضاجع يعني النوم، أي إذا قمتهم من غير المضاجع فلا تغسلوا.

قال مالك: الأمر عندنا أنه لا يتوضأ من رعاف، «أي إذا قمتم إلى الصلاة من رعاف فلا تغسلوا»، ولا من دم، «أي إذا قمتم إلى الصلاة من دم: فلا تغسلوا»، ولا من قيح يسيل من الجسد، ولا يتوضأ إلا من حدث يخرج من ذكر أو دبر أو نوم[1]، «فإذا وجب الوضوء من النوم بالآية هذه وهو مجرد طريق إلى الحدث: فإن الوضوء من الحدث من باب أولى، أي إذا قمتم إلى الصلاة من النوم فاغسلوا! وإذا قمتم إلى الصلاة من الحدث: فمن باب أولى أن تغسلوا».

وعن مالك عن نافع: «أن ابن عمر كان ينام جالسا ثم يصلي ولا يتوضأ»[2].

1 - الموطأ كتاب الطهارة، باب وضوء النائم إذا قام إلى الصلاة.
2 - المصدر نفسه.

فكما ترى أنه يستدل بكتاب الله تعالى في أبسط المسائل وفي أعقدها على الإطلاق.

ج - وسئل مالك عن رجل جنب أراد أن يتيمم فلم يجد ترابا إلا تراب سبخة، فهل يتيمم بالسباخ؟ وهل تكره الصلاة في السباخ؟ قال مالك: «لا بأس بالصلاة في السباخ والتيمم منها، لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ المائدة الآية 6، فكل ما كان صعيدا: فهو يُتيمم به، سباخا كان أو غيره[1].

وعليه نأخذ القاعدة: «الصعيد: كل ما صعد على وجه الأرض»، والقاعدة: «يتيمم بكل صعيد طيب».

2 - استدلال الإمام مالك بالسنة النبوية في الموطأ:

وهو أكثر الاستدلال على الإطلاق، من أول الكتاب إلى آخره، ومن أمثله ذلك:

أ - عن مالك بن أنس عن بن شهاب: أن عمر بن عبد العزيز أخّر الصلاة يوما فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخّر الصلاة يوما وهو بالكوفة فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: «ما هذا يا مغيرة؟ أليس قد علمت أن جبريل قد نزل فصلى فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صلى فصلى رسول الله، ثم صلى فصلى رسول الله، ثم صلى فصلى رسول الله، ثم صلى فصلى رسول الله، ثم قال: «بهذا أمرتَ» فقال عمر بن عبد العزيز: أعلم ما تحدث به يا عروة، أوَ إن جبريل هو الذي أقام لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقت الصلاة؟ قال عروة: كذلك كان بشير ابن أبي مسعود الأنصاري يحدث عن أبيه»[2].

فكما ترى أن الحديث فيه: «بإشارة يفهم»، فقد ذكر أبو مسعود الأنصاري صلاة يوم واحد فقط لم يذكر اليوم الثاني لصلاة جبريل بالنبي، صلى الله عليه وسلم، تاركا ذلك الأمر لمعرفة عامة الصحافة بالقصة.

1 - كتاب الموطأ، كتاب الطهارة، باب تيمم الجنب.
2 - المؤطأ كتاب وقوت الصلاة الحديث 1.

ب - عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار وعن بُسْر بن سعيد، وعن الأعرج كلهم يحدثون عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله، صلي الله عليه وسلم قال: من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر»[1].

ج - قال مالك لا بأس بأن يُقْبِضَ من أسلف شيئا من الذهب أو الورق أو الطعام أو الحيوان مما أسلفه ذلك: أفضل مما أسلفه إذا لم يكن ذلك على شرط منهما أو عادة، فإن كان ذلك على شرط أو وَأْيٍ (وَعْدٍ) أو عادة: فذلك مكروه ولا خير فيه.

قال وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قضى جملا رباعيا خيارا ماكان بَكْر استسلفه، وأن عبد الله بن عمر استسلف دراهم فقضى خيرا منها.

فإن كان ذلك على طيب نفس من المُسْتَسْلِف ولم يكن ذلك على شرط ولا وَأْيٍ ولا عادة: كان ذلك حلالا لا بأس به»[2].

فدليله من فعل النبي، صلى الله عليه وسلم، هو حديث أبي رافع مولى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «استسلف رسول الله، صلى الله عليه وسلم بكرا[3] فجاءته إبل من الصدقة، قال أبو رافع: فأمرني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن أقضي الرجل بكره فقلت: لم أجد في الإبل إلا جملا خيارا رباعيا، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أعطه إياه، فإن خيار الناس أحسنهم قضاءً»[4].

وأما دليله من عمل الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «فعن مجاهد أنه قال: استسلف عبد الله بن عمر من رجل دراهم ثم قضاة

1 - الموطأ، كتاب وقوت الصلاة حديث 5.
2 - الموطأ، كتاب البيوع، باب ما يجوز من البيوع، ص 474.
3 - أي الصغير من الإبل.
4 - الموطأ، كتاب البيوع، باب ما يجوز في السلف، حديث 1372، أخرجه مسلم في صحيحه كتاب 22، باب 22، حديث (118/1600).

دراهم خيرا منها، فقال الرجل يا أبا عبد الرحمن هذه خير من دارهمي التي استسلفتك، فقال عبد الله بن عمر: قد علمت ولكنّ نفسي بذلك طيبة»[1].

عن أبي هريرة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «جرح العجماء: جُبَار، والبئر: جُبَار، والمعدن: جبار، وفي الركاز: الخمس»[2]، قال مالك: وتفسير الجُبَار: أنه لا دية فيه.

وقال مالك: «القائد والسائق والراكب كلهم: ضامنون لما أصابت الدابة، إلا أن ترمح الداية من غير أن يفعل بها شيء ترْمَحُ له، وقد قضى عمر بن الخطاب في الذي أجرى فرسه بالعقل.

قال مالك: فالقائد والراكب والسائق: أحرى أن يغرموا من الذي أجرى فرسه[3].

فأنت ترى كيف قاس مالك بالأوْلى غرم القائد والراكب والسائق على غُرم الذي أجرى فرسه والذي قضى فيه عمر بن الخطاب وما قضاء عمر، رضي الله عنه، إلا مبنيا على هذا الحديث بمفهوم المخالفة، إذ العجماء إذا أطلقت: فجرحها جبار، وإذا أجريت: فجرحها ليس جُبارا، أي مضمونا.

3 - الاستدلال بإجماع أهمل المدينة المنورة:

قال مالك في الموطأ: «الأمر المجتمع عليه عندنا فيمن أسلف في رقيق أو ماشية أو عروض، فإذا كان كل شيء من ذلك موصوفا فسلف فيه إلى أجل فحلّ الأجل فإن المشتري لا يبيع شيئا من ذلك من الذي اشتراه منه بأكثر من الثمن الذي سلّفه فيه قبل أن يقبض ما سلفه فيه، وذلك أنه إذا فعله: فهو الربا، صار المشتري، أن أعطى الذي باعه دنانير أو دراهم فانتفع بها فلما حلت عليه السلعة ولم يقبضها المشتري باعها من صاحبها بأكثر مما سلفه فيها، فصار: «أَنْ ردّ إليه ما سلّفه وزاده من عنده»[4].

1 - الموطأ، كتاب البيوع، باب ما يجوز في السلف، أثر رقم 1373.
2 - الموطأ، كتاب العقول، باب جامع العقل، حديث 1583.
3 - الموطأ ص 626.
4 - الموطأ، ص 457، ط/ دار النفائس.

أي أن الثمن الذي سلمه المشتري صار قرضا، وزادت قيمته بعد انتهاء الأجل وهو حلول وقت السلعة، فكانت الزيادة: مقابل الأجل، وهذا عين الربا، ربا النسيئة.

4 - الاستدلال بعمل أهل المدينة المنورة:

قال مالك: «الأمر عندنا في القوم يشترون السلعة: البزّ أو الرقيق فيسمع به الرجل فيقول الرجل منه: البز الذي اشتريت من فلان قد بلغني صفته وأمره، فهل لك أن أربحك في نصيبك كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيربحه يكون شريكا للقوم مكانه، فإذا نظر إليه رآه قبيحا واستغلاه، قال مالك: «ذلك لازم له ولا خيار له فيه إذا كان إبتاعه على برنامج وصفة معلومة».

قال مالك في الرجل يقدم له أصناف من البز ويحضره السُّوَم ويقرأ عليهم برنامجه ويقول: في كل عدل كذا وكذا ملحفه بصرية، وكذا وكذا ربطة سابرية ذرعها كذا وكذا ويسمى لهم أصنافا من البز بأجناسه ويقول اشتروا مني على هذه الصفة، فيشترون الأعدال على ما وصف لهم، ثم يفتحونها فيستغلونها ويندمون، قال مالك: ذلك لازم لهم إذا كان موافقا للبرنامج الذي باعهم عليه.

قال مالك: وهذا الأمر الذي لم يزل عليه الناس عندنا يجيرونه بينهم إذا كان المتاع موافقا للبرنامج ولم يكن مخالفا له[1].

والشاهد كما ترى هو في قوله أولا: «الأمر عندنا في القوم يشترون...»، وقوله ثانيا: « وهذا الأمر الذي لم يزل عليه الناس عندنا...».

ومعنى البيع على البرنامج هو البيع على الوصف للسلعة وعلى نوعها وعلى عددها وعلى لونها وما تصلح له ومتى تنتهي صلاحيتها و... مثلما هو الحال اليوم في الإشهار والشراء عليه.

5 - الاستدلال بسد الذريعة:

قال مالك: «الأمر المجتمع عليه عندنا أن من استسلف شيئا من الحيوان بصفة وتحلية[2] معلومة: فإنه لا بأس بذلك، وعليه أن يرد مثله، إلا ما كان

1 - الموطأ، ص 465 - 466.
2 - أي تزيين في عين المشتري.

من الولائد، فإنه يُخَافُ في ذلك الذريعة إلى إحلال ما لا يحل: فلا يصلح، وتفسير ما كُره من ذلك: أن يستسلف الرجل الجارية فيصيبها ما بدا له، ثم يردها إلى صاحبها بعينها، فذلك لا يصلح ولا يحل، ولم يزل أهل العلم ينهون عنه ولا يرخصون فيه لأحد»[1].

وهذه الذريعة التي يُخَاف فتحها فيجب سدها في هذه المسألة: أن الرجل لما أصابها وجامعها وردها بعينها كان زانيا بها.

أما أسلفه جارية فرد له جارية أخرى مثلها: فلا بأس به لعدم الزنا بإصابته إياها.

فالأولى فكأنه أسلفه إياها ليجامعها ثم يردها له، وأما الثانية فإنها مثل البيع باعه جارية بجارية أو أسلفه جارية بجارية.

6 - الاستدلال بالقياس:

قال مالك: «لا أرى أن تنكح المرأة بأقل من ربع دينار، وذلك أدنى ما يجب فيه القطع»[2]، إذا قاس أقل صداق المرأة على أقل ما يقطع فيه السارق، إذا لما قطع في ربع دينار: علم منه قدر الربع شرعا، وأنه مال معتبر، فلما كان ذلك: كان معتبرا في الصداق، وهو أقل الصداق.

أما دليل القطع في ربع دينار: فحديث عبد الله بن عمر، رضي الله عندهما: «أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قطع في مجنّ ثمنه ثلاثة دراهم»[3]، وحديث عمرة بنت عبد الرحمن: «أن سارقا سرق زمان عثمان أُتْرُجَّةً فأمر بها عثمان بن عفان أن تُقوَّم فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهما بدينار، فقطع عثمان يده»[4].

وعن عائشة، رضي الله عنها زوج النبي، صلى الله عليه وسلم، أنها قالت: «ما طال عليّ وما نسيت: القطع في ربع دينار فصاعدا»[5].

---

1 - الموطأ ص 475.
2- الموطأ ص 359.
3 - الموطأ، كتاب الحدود، باب ما يجب فيه القطع، حديث 1514.
4 - الموطأ، كتاب الحدود، باب ما يجب فيه القطع، حديث 1516.
5 - الموطأ، كتاب الحدود، باب ما يجب فيه القطع، حديث 1517.

فمن مجموع الثلاثة أحاديث يستنتج أنه ربع دينار، حيث حديث المجن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن عثمان أنه كان كل دينار باثني عشر درهما.

قال مالك عقب هذه الأحاديث وغيرها: «أحب ما يجب فيه القطع إليّ: ثلاثة دراهم وإن ارتفع الصرف أو اتضع، وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قطع في مجن قيمته ثلاثة دارهم، وأن عثمان بن عفان قطع في أترجة قُومت بثلاثة دراهم، وهذا أحب ما سمعت إليّ في ذلك»[1].

أما قياسه بالأولى: فعن أبي هريرة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: جرح العجماء جبار، والبئر جبار، والمعدن جبار، وفي الركاز الخمس»[2]، قال مالك: وتفسير الجبار: أنه لا دية فيه، وقال مالك: «القائد والسائق والراكب: كلهم ضامنون لما أصابت الدابة، إلا أن ترمح الدابة من غير أن يفعل بها شيء ترمح له، وقد قضى عمر بن الخطاب في الذي أجرى فرسه بالعقل».

قال مالك: «فالقائد والراكب والسائق: أحرى أن يغرموا من الذي أجرى فرسه»[3].

فأنت ترى كيف قاس بالأولى والأحرى غرم القائد والراكب والسائق لما أصابت دابته على غرم الذي أجرى فرسه فأصابت ما أصابت والذي قضى فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

1 - الموطأ، ص 599.
2 - الموطأ، كتاب العقول باب جامع العقل، حديث 1583.
3 - الموطأ، ص 626.

المختصرات الفقهية المالكية
وسبل الاستفادة منها

أ.د/ خير الدين سيب
قسم العلوم الإسلامية ، جامعة تلمسان

الحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين وعلى الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد :

تعدّ المختصرات الفقهية من أهم التراث الذي ألّف الفقهاء ولعل أهم غرض لذلك هو المقصد التعليمي ويجدر بنا ونحن نحاول إبراز هذه المختصرات وفوائدها وسبل الاستفادة منها أن نبدأ بتعريف الاختصار لغة واصطلاحا:

الاختصار لغة:

اختصار الكلام في لسان العرب: إيجازه، وهو أن ندع « : يقول ابن منظور في لسان العرب.[1]» الفضول ونستوجز الذي تأتى على المعنى؛ يعني إيراد المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة.

الاختصار: معناه: ضم بعض الشيء إلى بعض « : وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات بقصد الإيجاز، والغرض منه إيراد المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، قال النووي: اختلفت عبارات الفقهاء في معنى المختصر فقال الاسفراييني: حقيقة الاختصار ضم بعض الشيء إلى بعض، ومعناه عند الفقهاء رد الكثير إلى القليل، وفي القليل معنى الكثير، وقيل: هو إيجاز اللفظ مع استيفاء المعنى.[2]»

الاختصار مصدر اختصر، وعند بعض أهل العربية مرادف للإيجاز، « : وقال في محيط المحيط وقيل: هو أخص منه، لأنه خاص بحذف الجمل بخلاف الإيجاز والاختصار عرفا: تقليل المباني مع . إبقاء المعاني أو هو حذف عرض الكلام وهو أجل مقصود العرب ومبنى أكثر كلامهم عليه[3].

قال بعضهم: الاختصار: إذا جمع ثلاثة أشياء : أحده ا: « : ولهذا يقول حاجي خليفة[4] » الاستقصاء في الصفة، والثاني: الاهتمام في المعنى، والثالث: الإيجاز كان إفادة ذلك أبلغ.

المختصرات جمع مختصر، وهو تقليل الألفاظ مع كثرة « : ويقول صاحب دليل السالك المعنى، فهو اسم المفعول من اختصر الكلام إذا أتى بالمعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة من غير إخلال بالمعنى[5]. ومثل الاختصار الإيجاز وضد الإطناب والإسهاب[6] هو ما دل قليله على كثيره[7] « : وقال الحطاب رحمه الله والاختصار... الخ، وعلى هذا فالمختصر ما قل لفظه وكثر معناه « : وقال الدسوقي، قوله: ويقابله المطول وهو ما كثر لفظه ومعناه، وعلى هذا فما كثر لفظه وقل معناه أو قل لفظه ومعناه واسطة بين المختصر والمطول. والحق أنه لا واسطة بينهما، وأن المختصر ما قل لفظه كثر معناه أم لا وأن المطول ما كثر لفظه كثر معناه أو قل فقول الشارح الاختصار: تقليل اللفظ مع كثرة المعنى .[8])» هذا أحد قولين، والآخر أنه تقليل اللفظ مطلقا أي سواء كثر المعنى أم لا.

وكل هذه التعريفات تفيد أن الاختصار هو الإيجاز دون الإسهاب والإطناب وهو ما أفسد. الفقه إلى درجة كبيرة[9]

أما التلخيص، فيقال : لخص الشيء أخذ خلاصته ولخص القول قربه واختصره ولخص. الشيء بينه وشرحه. ويقال: لخص لي خبرك: بينه شيئا بعد شيء فهو ملخص[10].

أما التهذيب، فيقال: هذب النخلة للمبالغة وهذب الكلام لخص مما يشينه عند البلغاء ،ويقال: هذب الكتاب، لخصه وحذف ما فيه من إضافات مقحمة أو غير لازمة وهذب الصبي .(رباه تربية صالحة خالية من الشوائب، فهذب الشيء: صار مهذبا[11].

من خلال ما سبق يتضح أن جل هذه التعاريف تدور في فلك واحد، ذلك أن الاختصار يعتبر إيجازا لكلام طويل يستوجزه المؤلف في أسطر بتعبير أدق بليغ دون الإخلال أو الإطناب أو الحشو، فكل كلام خرج عن هذه الدائرة فإنه يرد إلى الكثرة دون استيفاء المعنى. ومهما يكن من أمر فإن تعريف الاختصار تبقى من الأمور التي تعرف اختلافا في تحديد تعريف مدقق.

فإلى أي حد عرفت العلوم ظاهرة الاختصار؟ يجيب عن هذا السؤال المبحث اللاحق.

**** تعتبر ظاهرة المختصرات في الفقه المالكي ظاهرة لا تعدو أن تكون عامة في جل العلوم النقلية لذلك فهذه الظاهرة في الفقه المالكي لا تختلف كثيرا عما في المذاهب الفقهية الأخرى؛ فالفقه المالكي لم يسلم كغيره من هذه الظاهرة؛ حيث عرفت هذه الظاهرة نشاطا واسعا وكبيرا لدى معظم مؤلفات المالكية في زمن بعيد حيث عرف المذهب هذه الظاهرة منذ القرن الثاني على اختلاف في تاريخها.وكيفما كان الحال فإن الفقه المالكي تأثر كثيرا بهذه الظاهرة.

*** إن الحديث عن المختصرات ينصب أساسا على نوعين :

فمنها:

1- اختصار خاص لكتاب معين مثل المدونة التي رواها سحنون عن ابن القاسم واختصرها كثير من العلماء مثل ابن أبي زيد القيرواني وابن الجلاب وغيرهما.

2- ومنها اختصار عام، لا يقتصر على كتاب معين وإنما هو تأليف جامع لكل أبواب الفقه اختصرت فيه أهم أقوال كبار الفقهاء، مثل كتاب التفريع لابن الجلاب، والرسالة لابن أبي زيد، ومختصر خليل، ومختصر ابن الحاجب وغيرها كثير. وقد بدأت ظاهرة الاختصار منذ أواخر القرن الثاني في مؤلفات فقهية مثل مختصرات عبد الله بن عبد الحكم: المختصر الكبير والمختصر الصغير والمختصر الأوسط، ثم تطورت حركة[12] الاختصار عبر العصور واقتصر الفقهاء عليها محجمين .عن الإنشاء والتأليف متفننين في الاختزال والتلخيص لكتب السلف[13]

وإذا كان هذا حال الاختصار فإن الحديث عن تاريخ ظهور المختصرات في الفقه المالكي يستلزم أساسا أن نقف قليلا عند تاريخ هذه الظاهرة؛ حيث نجد عددا كثيرا من المؤرخين لم يتفقوا على تاريخ دخول هذه الظاهرة إلى الفقه المالكي، وقد ذكر الحجوي –رحمه الله – أن ظهور هذه الظاهرة

في الفقه المالكي في القرن الثالث بظهور مختصرات [14] . في حين يرى الدكتور الدهماني أن ظاهرة الاختصار نشأت منذ أواخر القرن الثاني مثل مختصرات عبد الله بن عبد الحكم[15]: «المختصر الكبير والمختصر الأوسط والمختصر الصغير ،ولا أريد أن أخوض في تاريخ ظهور المختصرات بقدر ما أريد أن أرجع إلى الوراء شيئا قليلا؛ ذلك أنه منذ القرن الرابع الهجري أجمع الفقهاء من أهل السنة على إغلاق باب الاجتهاد والاكتفاء بالمذاهب الأربعة المعروفة، ثم تقهقرت على إثر ذلك. ونتجت عنه المدنية العربية وأصاب الجمود جميع نواحيها فاستتبع ذلك فشو التقليد وتوقف الاجتهاد في الفقه، واكتفى الفقهاء باختصار الكتب المؤلفة فيه ثم بشروحها، وكان هذا التقهقر نتيجة عوامل متعددة أبرزها تقطيع أوصال الدولة الإسلامية؛ حيث صارت دولا عديدة، فضعف أمر الدولة التي كانت تعز الفقه والفقهاء وتدفعهم إلى البحث والاجتهاد[16]

ومنذ ذلك الوقت بدأت المختصرات الفقهية في المذهب المالكي تظهر للوجود أوائل القرن الثالث، وازداد انتشارها في القرن الرابع ثم تضخم حجمها بشكل لفت انتباه الناس في القرن السابع، ولعل أول من تصدر لاختصار المؤلفات الفقهية هو الفقيه أبو عبد الله بن عبد الحكم المصري (ت. 214 هـ) الذي اختصر كتب أشهب[17] ومن هذا التاريخ بدأت فكرة المختصرات تلوح في الأفق وإن كان الاختصار [18] في هذه المرحلة له طابع خاص يختلف شكلا ومضمونا عما آل إليه الوضع في العصور المتأخرة. على أن الاهتمام بهذه الظاهرة ما لبث أن تطور مع مرور الزمان نتيجة تقاعس الهمم عن تحصيل المبسوطات والتعامل مع المطولات من جهة، وقصور الفقهاء عن الابتكار والإبداع من جهة ثانية، حتى إذا أزفت مرحلة إغلاق باب الاجتهاد ازدادت سوءا؛ بحيث ركن الناس إلى الخمول الفكري واقتصروا على ما وجدوه مدونا لدى الأقدمين مكتفين به.

ولا ريب أن هذه الظاهرة جنت كثيرا على الفقه من حيث نموه وازدهاره حتى إن كثيرا من الباحثين عن هذه الظاهرة جعلها سببا في تقهقره وضعفه وانحلاله؛ ذلك أن المنهج الذي سار عليه المختصرون يقوم على أساس فهم

مختلف للتراث الفقهي لم يستوعبوا مضامينه ومحتواه على الوجه الذي كان عليهم أن يفهموه ويتمثلوه، فجاء كلامهم ضربا من الألغاز يستعصي فهمها حتى على الفقيه المتمرس؛ إذ هو يستعين بالشروح والأصول القديمة عله يظفر بما يريد.

فما هي الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الظاهرة في الفقه المالكي؟ هذا السؤال يجيب عنه الفرع الموالي.

الفرع الأول: أسباب ودواعي المختصرات في الفقه المالكي

إن دواعي ظهور المختصرات في الفقه المالكي أملتها ظروف كثيرة نذكر بعضا منها السبب يرجع في ظهور هذه المختصرات وركوب الناس هذا المهيع « ذلك إلى أن المتأخرين صعب عليهم استيعاب المؤلفات المطولة وشق عليهم حفظها واستقصاؤها.[19] ».. فاستعاضوا عنها كتبا مختصرة تيسيرا على المبتدئين وتسهيلا للحفظ على المتعلمين.

ولا يخفى أن المؤلفات التي صنفت في عهد مبكر كانت كبيرة الحجم، وسهلة العبارة واضحة الأفكار مثل المدونة لسحنون (ت. 240 هـ / 854 م)، والموازية لمحمد بن المواز [20] (269 هـ/ 882 م)، والواضحة لعبد الملك بن حبيب[21] (ت. 238 هـ/ 854 م)، والمبسوطة للقاضي إسماعيل (ت. 282 هـ/ 895 م)، والحاوي لأبي الفرج22) الليثي (ت. 331 هـ/ 942 م والنوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني (ت. 386 هـ/ 996 م) وغيرها من المصنفات التي كانت تشكل أمهات الفقه المالكي. ولما ضعفت الهمم وفترت العزائم قام أهل المائة الرابعة باختصار هذه المؤلفات.

ويقال[23] إن أول من اختصر بعض هذه المطولات الفقهية فضل بن سلمة الجهني الأندلسي (ت. 319 هـ/ 931 م) اختصر المدونة والواضحة والموازية وغيرها، وتبعه محمد بن عبد الله بن عيشون[24] الطليطلي (ت. 341 هـ/ 952 م) صاحب المختصر المشهور اختصر المدونة، ثم جاء بعدهما محمد بن عبد الملك الخولاني البلنسي (ت. 364 هـ/ 974م) فاختصرها كما اختصرها من بعده أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين [25] (ت. 399 هـ/ 996 م) ، وكذا ابن أبي زيد القيرواني (ت. 386 هـ/ 996 م)،

وأبو القاسم اللبيدي[26] (ت. 440 هـ/ 1048 م)، والبراذعي صاحب التهذيب الذي اختصر به مختصر ابن أبي زمنين المذكور سابقا.

ثم جاء بعد هؤلاء رجل المختصرات أبو عمر عثمان بن الحاجب (ت. 646 هـ/ 1248 م) فاختصر تهذيب البراذعي وهو الذي سيختصره خليل بن إسحاق (ت. 776 هـ/ 1374 م) فيما بعد. وسيبلغ الاختصار إذ ذاك أشده. وغير هؤلاء كثير ممن تصدروا لاختصار المؤلفات الطويلة ، وقصدهم بهذه المختصرات كما قيل تحقيق هدفين:

أ-تقليل الألفاظ تيسيرا للحفظ.

ب-جمع ما هو متفرق في كتب المذهب من الفروع ليكون أجمع للمسائل، وهذا قصد حسن لولا أنهم غالوا فيه حتى جاوزوا الحد المعقول بجمعهم أكثر عدد من المعاني في أقل عدد من الألفاظ، مما أضر بالفقه ضررا بالغا كان من أثره[27] أن الناظر في هذه المختصرات لا يستطيع إدراك سر ما قصده المختصر ونتج عن ذلك تضارب في الرأي واختلاف في وجهات نظر الفقهاء كل بحسب ما تيسر له من فهم مراد المختصر مما أثار الجدل بينهم وأوقعهم في اضطراب شديد فحدثت نتيجة ذلك هفوات وأخطاء بسبب طبيعة هذه المختصرات؛ إذ أصبحت عبارة عن ألغاز. يحتاج إلى من يفكك عباراتها ويحلل ألفاظها[28] .

أولا: أسلوب الاختصار :

اعتمد بعض الفقهاء أسلوب صياغة الفقه الإسلامي في شكل مختصرات، وغرضهم من وراء ذلك هو: تسهيل استحضار مسائل الفقه. ذلك أن المطوّلات على غزارة الفوائد التي تحتويها، لاحظ عليها هؤلاء مواطن خلل متعددة على رأسها التكرار.

فهذا أبو محمد ابن شاس(ت610هـ) صاحب [عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة] يغيضه أن بعض متفقهة عصره أو بعض أصحاب المكانات في المجتمع المالكي الذي كان ينتمي إليه يتمذهبون بمذهب غير المالكية طلبا للتميّز.

قال تمهيدا لمؤلَّفه: « أما بعد، فهذا كتاب بعثني على جمعه في مذهب عالم المدينة، إمام دار الهجرة... ما رأيت عليه كثيرا من المنتسبين إليه في زماننا من ترك الاشتغال به والإقبال على غيره، حتى لقد صار ذلك دأب كثير ممن يرى نفسه، أو يُرى من المتميّزين.

هذه هي الحاجة التي دعت صاحب [الجواهر] إلى أن يؤلف كتابه المذكور فما الحاجة التي دعت عصرييه -من المنتسبين للمذهب المالكي- يقبلون على غيره؟، يورد صاحبُنا هذه الحاجة في نفس السياق فيقول: « ولم أستمع من أحد منهم، ولا بلغني عنه أنه كره منه سوى تكريره وعدم ترتيبه، حتى اعتقد بعضهم أنه لا يمكن ترتيبه، بل يشق ويتعذر، ولا تنحصر مسائله تحت ضوابط، بل تتباين وتتبتر... فكانوا كالمعرض عن المعاني النفيسة لمشقة فهمها، والمضرب عن الجواهر الثمينة لتكلّف نظمها».

فحصر الدواعي في كثرة التكرار في الكتب السابقة على كتابه، وعدم الترتيب في تلك المؤلفات، وعدم انحصار المسائل بل تبعثرها وتشتتها.

وهذا ما دفعه إلى تأليف اختصاره البديع؛ الفريد من نوعه من حيث محاكاته لأبرز كتب المذهب الشافعي تنظيما، وهو كتاب [الوجيز] للإمام أبي حامد الغزالي(ت505هـ). وقال عنه: « وقد استخرت الله تعالى، وشرعت في نظم المذهب بأسلوب يوافق قاصدهم ورغباتهم، ويخالف ظنونهم فيه ومعتقداتهم، فحذفت التكرار الذي عيبوا أئمة المذهب إذ لم يحذفوه، وحللت النظام الذي كرهوه، ثم نظمته على ما جنحوا إليه وألفوه.

وهذا هو نفس الداعي الذي جعل الإمام سحنون -قبل هذا- يهتم اهتماما خاصا بالمدونة[بعد أن كانت [مختلطة]: « فهذبها، وبوّبها، ودوّنها، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره، وذيّل أبوابها بالحديث والآثار، إلا كتبا منها مفرقة، بقيت على أصل اختلاطها في السماع، فهذه هي كتب سحنون المدونة والمختلطة.

ولقد بدأت عملية الاختصار هذه مبكّرة جدا، [فالمدونة] تعرضت لاختصارات عديدة منها الاختصار الذي وضعه فضل بن سلمة

الجهني الأندلسي(ت319هـ) واختصار محمد بن عبد الله بن عيشون الطليطيلي(ت341هـ) واختصار محمد بن عبد الملك الخولاني(ت364هـ) واختصر ابن أبي زمنين(ت399هـ) [المدونة] في كتابه [المغرب]. غير أن اختصار ابن أبي زيد القيرواني(ت386هـ) نسخ الاختصارات السابقة واللاحقة، وحلّ محل [المدونة] ذاتها في الدراسة والتدريس، ثم جاء تلميذه خلف بن أبي القاسم البراذعي(ت393هـ) فألّف مختصرا على اختصار شيخه على [المدونة] سمّاه [تهذيب مسائل المدونة]، فأصبح من اصطلاحهم إطلاق لفظ [المدونة] عليه؛ وأبرز من جاء بعده -في سياق مختصرات [المدونة]- أبو عمرو بن الحاجب الصنهاجي فقد اختصر [التهذيب] في كتاب أسماه: [جامع الأمهات] لما جمع فيه من مؤلفات أساسية في الفقه الإسلامي المالكي، وجاء بعده أبو المودة خليل بن إسحاق الجندي فاختصر [جامع الأمهات] في مختصر جديد عرف باسمه [مختصر خليل ،قال صاحب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: »وهناك بلغ الاختصار غايته، لأن مختصر خليل مختصر مختصر المختصر بتكرر الإضافة ثلاث مرّات.

وقبله تحركت همّة ابن جزي الكلبي(741هـ) إلى وضع كتابه المعروف [القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية] لتحقيق غرض منهجي آخر لكنه لا يخرج عن فكرة تقريب الفقه الإسلامي من المتفقه، يذكر هذا المنهج وهذا الهدف بنفسه في مقدمة مؤلفه فيقول: « واعلم أن هذا الكتاب ينيف على سائر الكتب بثلاث فوائد، (الفائدة الأولى) أنه جمع بين تهذيب المذهب وذكر الخلاف العالي، بخلاف غيره من الكتب فإنها في المذهب خاصّة أو في الخلاف العالي خاصّة؛ (الفائدة الثانية) إنا لمحناه يحسن التقسيم والترتيب، وسهلناه بالتهذيب والتقريب، فكم فيه من تقسيم قسيم، وتفصيل أصيل، يقرب البعيد، ويلين الشريد؛ (الفائدة الثالثة) إنا قصدنا إليه الجمع بين الإيجاز والبيان، على أنهما قلّما يجتمعان، فجاء بعون الله سهل العبارة، لطيف الإشارة، تام المعاني، مختصر الألفاظ، حقيقا بأن يلهج به الحفاظ ».

فتبيّن أن غرض ابن جزي الكلبي من التأليف إنما يجيب عن حاجة المتفقه المنهجية المتمثلة في حفظ متن يجمع بين تمهيد المذهب المالكي وذكر الخلاف فيه بينه وبين غيره من المذاهب، لذلك كان الكتاب مقسّما تقسيما مدرسيا محكما.

ونجد باعثَ آخرين يختلف نوعيا عن الأغراض المذكورة أعلاه، ومن هؤلاء غرض الفيلسوف الفقيه ابن رشد الحفيد(ت595هـ) الذي قال عن دافع تأليف كتابه: [بداية المجتهد ونهاية المقتصد]: «فإن غرضي في هذا الكتاب أن أثبت فيه لنفسي على جهة التذكرة من مسائل الأحكام المتفق عليها والمختلف فيها بأدلتها والتنبيه على نكت الخلاف فيها، ما يجري مجرى الأصل والقواعد لما عسى أن يرد على المجتهد من المسائل المسكوت عنها في الشرع.

*** اشهر مختصر في المذهب المالكي هو مختصر الشيخ خليل وهو أكثر مختصرات المذهب المالكي خدمة بين شروح وحواشي، قال أبو محمد الحطاب(هو كتاب صغر حجمه وكثر علمه وجمع فأوعى وفاق أضرابه جنسا ونوعا واختص بتبيين ما به الفتوى وما هو الأرجح والأقوى لم تسمح قريحة بمثاله ولم ينسج ناسج على منواله) وله شروح عدة.

*وإذا أردت متونا صغارا فلتكن البداية بمختصر الأخضري أو العشماوية، وبعد ذلك في الترتيب يأتي متن ابن عاشر المسمى بالمرشد المعين ،ثم بعد ذلك متن رسالة ابن أبي زيد ثم تختم بمختصر خليل.

*وبعضهم يقرأ سراج السالك بدلا من الرسالة ،وآخرين يقرأون أقرب المسالك للدردير وكلها كتب مشروحة ومحشاة ومعتنى بها

* وبعض المتخصيصين في الفقه المالكي ينصحون المبتدئ بالتدرج وفق السلم الآتي :

1- متن العشماوية

2- متن ابن عاشر (أبيات الفقه منه)

3- متن الرسالة مع الحواشي والشروح

4- مختصر خليل مع الحواش والشروح

ومن الكتب المعاصر ة المصاغة بطريقة جميلة وسهلة الفهم منها :

1- مدونة الفقه المالكي وأدلته لشيخ العلامة صادق الغرياني

2- الفقة المالكي وأدلته لحبيب بن طاهر

3- الفقه المالكي لوهبة الزحلي

نقد أسلوب الاختصار :

إذا كانت عملية الاختصار في الفقه الإسلامي واردة على وجه تجنيب القاريء والمتعلم مشكل التكرار، ومشكل طول المصنفات وصعوبة الرجوع إليها لعدم ترتيبها، خاصة لدى غير المتفرغين للدراسات الفقهية، فإن بعض الملاحظين عابوا على هذه الطريقة أمورا منهجية أهمّها:

1 - أنها مفسدة للفقه :

وأبرز من أشار إلى هذه النقيصة أبو إسحاق الشاطبي(ت790هـ) في موافقاته] فقد قال عن التعلم عن طريق مطالعة كتب المصنفين، ومدوني الدواوين:« أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد، فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين، وأصل ذلك التجربة والخبرة »

ويأتي ليبرر اختياره في [فتاواه] فيقول: « ما ذكرت لكم من عدم اعتمادي على التآليف المتأخرة فلم يكن ذلك مني -بحمد الله- محض رأي، ولكن اعتمدت بسبب الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين من كتب المتأخرين، وأعني بالمتأخرين كابن بشير(ت:بعد 526هـ)، وابن شاس، وابن الحاجب، ومن بعدهم، ولأن بعض من لقيته من العلماء بالفقه أوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين، وأتى بعبارة خشنة في السمع لكنها محض النصيحة.

ولقد نبه أبو العباس الونشريسي إلى الكلام الخشن الذي ذكره الشاطبي، فيما نقله في [معياره] إذ قال: «العبارة الخشنة التي أشار إليها كان رحمه الله ينقلها عن شيخه أبي العباس أحمد القباب، وهي أنه كان يقول في ابن بشير وابن الحاج وابن شاس:أفسدوا الفقه.

ولعل سبب تحفظ هؤلاء من كتب المتأخرين أن بعضهم أدخل في المذهب ما ليس منه، وأنه أقحم فيه أقوال المذاهب الأخرى، أو أنه أعرض عن المشهور إلى الضعيف.

2 - أنها مفسدة للتعليم:

وأبرز من لاحظ هذه النقيصة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون(ت807هـ) فقد عنون أحد فصول [مقدمته] بقوله: «إن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلّة بالتعليم»، ومما جاء تحت هذا الفصل: « وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطوّلة في الفنون للتفسير والبيان، فاختصروها تقريبا للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه... وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطا على المبتديء، بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعدّ لقبولها بعد.

3 - أنها مفسدة للعربية:

ذلك أنها أخلّت بالفصاحة، وكادت عباراتها أن تكون لغزا، لمبالغة المصنفين في الاختصار. فاقتصر المتفقهون من هذه المختصرات -كما قال محمد بن الحسن الحجوي في الفكر السامي: « على حفظ ما قلّ لفظه، ونزر خطّه، فأفنوا أعمارهم في حلّ رموزه، وفهم لغوزه، ولم يصلوا لردّ ما فيه لأصوله بالتصحيح، فضلا عن معرفة الضعيف والصحيح، بل حلّ مقفل، وفهم مجمل ».

وهي نقيصة واضحة في الإختصار المبالغ فيه، فالوقت المبذول في فكّ رمز من رموز المختصر أو حلّ لغز من ألغازه، وقت ضائع من حياة طالب العلم، كان أولى أن يصرف في فهم علوم أو فنون أخرى. ثم إن لغة المتفقه بهذه المختصرات ستكون أدنى من لغة المتفقه بمؤلفات متقدمي الفقهاء ممن كانوا أدباء فضلا عن فقههم.

4 - أنها تبعد الفقه عن الوحي:

العيب الآخر في هذه المختصرات هو أنها تبتعد بالمتفقه عن مصدر الفقه الحقيقي ألا وهو الكتاب والسنة، ذلك أن النحو الذي نحاه المختصرون

اقتضى منهم ذكر أقلّ العبارات الممكنة اجتنابا للإطالة، حتى إن ابن عرفة الورغمي لمّا عرّف الإجارة وقال: « هي بيع منفعة ما أمكن نقله غير سفينة ولا حيوان لا يعقل بعوض غير ناشئي عنها بعضه يتبعض بتبعيضها »، أورد عليه بعض تلامذته أن زيادة لفظ: "بعض" تنافي الاختصار.

والعجيب كما قال الحجوي: أن النحو الذي لا تدعو ضرورة لإقامة أدلة على قواعده، افتعلوا له أدلة، فضخموه وصعّبوه؛ والفقه الذي يتأكد بمعرفة أدلته، تركوها وضخّموه بكثرة الاختصار، وكثرة المسائل النادرة.

**** ويرجع بروز هذه الظاهرة إلى أسباب:

أ- ضيق اظال أمام فقهاء عصر الانحطاط بإغلاق باب الاجتهاد، فلم يبق لهؤلاء عند التأليف سوى تكرار ما قاله الأولون في شروح أو نظام أو مختصرات.

ب- تقليل الألفاظ تيسيرا للحفظ؛ فنظرا إلى اعتماد التعليم على الحفظ، وبالمقابل كانت المؤلفات المبكرة في المذهب ضخمة مطولة، صعب عليهم حفظها واستيعاظا فلجأوا إلى اختصارها تسهيلا للحفظ.

ج- جمع ما هو متفرق بين كتب المذهب من الفروع في كتاب واحد ليكون أجمع للمسائل وقصدهم في ذاته من الاختصار حسن، إلا أظم بالغوا فيه مع مرور الزمن، حتى أصبحت المختصرات عبارة عن ألغاز، ولذلك لم يحل الاختصار المشكل، بل زاده تعقيدا وتسبب في حدوث مشاكل جديدة، أهمها :

أ- إلحاق خلل بالمعاني اللغوية والاصطلاحية.

ب- ارتكاب أخطاء فقهية.

ج- تحول العبارات الفقهية إلى ألغاز ومقفلات إلا أن كل هذا لم ينتج عن المختصرات الأولى، التي اختصر فيها تلاميذ الأئمة كلمهم بحذف ما لا تكثر الحاجة إليه من المسائل وترتيب ما أملاه الأئمة غير مرتب، وإنما حدث بعد ذلك فيما بعد، عندما حدثت المغالاة في عملية الاختصار، وقد أسهب الحجوي القول تحت ...(عنوان: غوائل الاختصار وتاريخ ابتدائه

وإن الناظر في هذه المختصرات لا يستطيع إدراك سر ما قصده المختصِر، ونتج عن ذلك تضارب في الرأي واختلاف في وجهات نظر الفقهاء كل بحسب ما تيسر له من فهم مراد المختصر مما أثار الجدل بينهم وأوقعهم في اضطراب شديد فحدثت نتيجة ذلك هفوات وأخطاء بسبب طبيعة هذه المختصرات، إذ أصبحت عبارة عن ألغاز تحتاج إلى من يفكك عبارتها ويحلل ألفاظها فظهرت الشروح والحواشي وضاع بذلك القصد الذي لأجله حدث الاختصار وخلاصة القول: إن أهداف المختصرات تتنوع إلى ما يأتي :

1 - جمع الأسفار في سفر واحد

2 - تقريب المسافة.

3 - تحقيق المراد.

4 - تكثير العلم.

5 - تقليل الزمن.

كل هذه المسائل المذكورة لم تحظ بعناية كبيرة من قبل الباحثين والمهتمين، مما جعل المادة العلمية تعرف نزرا كثيرا سيما هذه الفروع التي سيتم الحديث عنها وقد يجد الباحث صعوبات شتى في جمع ما قيل عنها، ولم يتحدث بإسهاب في مثل هذه المواضع إلا القليل، بل جل من تناول هذه الأفكار تناولوها على شكل نقط لا يتوسعون في شرحها، لذلك يعاني الباحث في جمع شتات هذه الفروع لقلة المادة ولعدم التوسع في مضامينها، مما خلق في هذا البحث عدم توازن مطالبه، وقد بذلت مجهودات كثيرة لغياب شروحات واضحة لهذه النقط، لذلك فلا عجب أن يكون الفرع يتكون من ورقات فقط، لأن المادة العلمية لا توجد بشكل يسمح بالتوسع في كل فرع فكلها رؤوس الأفكار لم تحظ بعناية فائقة لدى الفقهاء والباحثين للتوسع والدراسة، وقد أخذت هذه البادرة وجعلته مطالبا على أمل أن يتوسع البحث مستقبلا على هذه الأصول الأساسية للمختصرات وأهدافها الرئيسة.

الهوامش

1) لسان العرب لابن منظور، مادة: خصر 91/90.
2) تهذيب الأسماء واللغات: 3
3) محيط المحيط، مادة: فصل، ص: 235
4) كشف الظنون لحاجي خليفة 2/1625
5) دليل السالك، ص: 86
6) كشف الظنون 1625: 2
7) مواهب الجليل1: 24
8) حاشية الدسوقي: 1) 18-19 .111/ 9
9) مقدمة محقق التفريع: 1
10) المصدر نفسه: 112/1
11) الفكر السامي للحجوي113: 3
12) مقدمة محقق التفريع111: 1
13) التشريع الإسلامي أصوله ومقاصده للدكتور الجيدي، ص: 25
14) ترتيب المدارك: .364-365/ 3)
15) مباحث في الفقه المالكي، ص: 87)
16) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي للدكتور عمر الجيدي، ص: 132
17) هو الإمام العلامة فقيه الديار المصرية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن زياد الاسكندراني المالكي، ابن المواز صاحب التصانيف، أخذ المذهب عن عبد الله بن عبد الحكم وعبد الملك بن الماجشون وأصبغ بن الفرج، وغيرهم. انتهت إليه رئاسة المذهب، وله مصنف حافل في الفقه سيأتي الحديث عنه. توفي سنة 281 ه. وقد اشتغل أحد الأساتذة الباحثين بكلية الشريعة وهو الأستاذ الحسن مكراز لجمع الموازية في الكتب الفقهية لنيل دكتوراه الدولة تحت إشراف الدكتور الحسن العبادي. (انظر ترجمته في الوافي 177 ، وسير أعلام النبلاء : / 166 ، وشذرات الذهب: 2 / 335 ، والديباج المذهب: 2 / بالوفيات: 1.(6/13
18) هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي، أصله من طليطلة، من مؤلفاته : الواضحة. توفي سنة 238 هـ. (انظر ترجمته في الديباج ص: 154
19) هو أبو الفرج عمرو بن عمرو بن محمد الليثي البغدادي، نشأ ببغداد، وأصله من البصرة، فقيه مالكي تفقه بإسماعيل القاضي. من تآليفه: الحاوي في الفقه،

واللمع في أصول الفقه. توفي سنة 330 هـ، وقيل:.(331 ه. (انظر ترجمته في الفهرست ص: 253 ، والديباج لابن فرحون ص: 215

20) مباحث في الفقه المالكي بالمغرب للدكتور عمر الجيدي، ص: 92

21) محمد بن عبد الله بن عيشون، طليطلي، أبو عبد الله، سمع بطليطلة من وسيم بن سعدون ووهب بن عيسى وغيرهما. وله مختصر مشهور، وألف مسند حديث مالك. توفي سنة 341 هـ. (انظر ترجمته في . ترتيب المدارك: 174/6)

22) الإمام القدوة الزاهد أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد الْمري الأندلسي، شيخ قرطبة،له عدة مؤلفات واختصارات. ولد سنة 324 هـ، وتوفي سنة 399 هـ. قال الذهبي: و زمنين بفتح الميم189). (انظر ترجمته في: جذوة المقتبس ص : 56 ، وترتيب / ثم كسر النون (سير أعلام النبلاء: 17 71، وسير أعلام / 1029 ، والعبر: 3 / 672، وبغية الملتمس ص: 87، وتذكرة الحفاظ: 3 / المدارك: 4.188/ النبلاء: 17

23) اللّبيدي: مفتي المغرب أبو القاسم بن محمد الحضرمي المالكي اللبيدي، ولبيد من قرى إفريقية، له كتاب كبير في المذهب في بضعة عشر مجلد أو كتاب في بسط مسائل المدونة. (سير أعلام النبلاء :128/ 707، واللباب : 3 / 623/17). توفي سنة 440 هـ). (انظر ترجمته في: ترتيب المدارك : 4

109/ 623، وأعلام النبلاء: 17 / 516، وشجرة النور: 1 / 484، وهدية العارفين: 1 / والديباج: 1).

24) مباحث في الفقه المالكي ص: 88

25) مباحث في الفقه المالكي، ص: 89

رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومنهجها في التأصيل و التوصيل

د/ المبروك زيد الخير
أستاذ – جامعة الأغواط

توطئة:

الفقه يرفع صاحبه مكانا عاليا ،ويجعل له وقارا في السّمت، واحتراما في الأنفس، لأنّه ميراث العلم الشّرعي المكين، الّذي يضمن استمراريّة الشّريعة، ويحقّق للنّاس ما يشتهون، من ركون إلى الفتوى في أعمالهم وأحوالهم ،وتصريف حقوقهم وأموالهم.

ومعلوم أنّ مدرسة الفقه المالكيّ، امتدّت جذورها ،داخل المغرب العربيّ والأندلس ،عبر أحقاب متلاحقة من الزّمان، جمعت خلالها بين النّقل والعقل، واستندت على مقاصد الشّريعة ومرتكزاتها.

فأخذت من الكتاب والسّنة، الخميرة الأساسيّة، التّي بنيت عليها الأحكام القطعيّة، التّي تعتمد النّصوص الواردة بالتّواتر ،ممّا لا مجال فيه لشكّ، أوتأويل، أوموازية، ودعّمت ذلك بالقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، وعمل أهل المدينة، وما إلى ذلك، ممّا وسّعه الفقهاء،وبحثوا خلاله على حلّ المشاكل، وإيجاد الأجوبة لمختلف المسائل، في وسطيّة، وتوازن، واعتدال.

وابن أبي زيد (ت 386 هـ)، واحد من الأعلام ،الّذين تفتخر المدرسة المالكيّة بانتسابهم إليها،ونحن نسمع كثيرا ،عمّن ورث الكتاب، وأخذ من تعليم الفقه بالأسباب، حتىّ أصبح علما على رأسه نار، ومنهم ابن أبي القاسم، وسحنون، وأشهب، وأسد بن الفرات، والقاضي عيّاض، والإمام الشّاطبي، وابن رشد الجدّ، وابن رشد الحفيد، وأبوبكر بن العربيّ، ناهيك عن عبد الرّحمن الوغليسيّ البجائيّ، وأحمد بن قاسم البونيّ، وخليفة بن حسن القماريّ، وعبد الواحد بن أحمد الونشريسيّ، وعبد الرّحمن الأخضريّ، وأمثالهم كثر، ممّن جمعوا أصول الفقه المالكيّ وفروعه، أوألّفوا في فروع المسائل، وإجابات القضاة على مستجدات الأحوال، ناهيك عن شروح المدوّنة وحواشيها، وعن شروح مختصر خليل الكثيرة، وعن شروح

الرّسالة الأثيرة، ولا غروأن يتراكم الموروث الفقهيّ ، في مذهب مالك عبر العصور، فيكون مؤشّرا للدّلالة على أصالة المذهب وعمق جذوره، وعلى الاهتمام الّذي لقيه عند علماء الأمّة وعامّتها، فوسّع المكتبة العلميّة، وأثرى العطاء الفقهيّ ،بما زاد من قيمته ،ونجاعته وجدواه.

مكانة ابن أبي زيد القيروانيّ العلميّة والفقهيّة:

عاش ابن أبي زيد القيروانيّ شأنه شأن علماء السّنة آنئذ، في القرن الرّابع الهجريّ ،محنة الاضطهاد التّي اصطلى بنارها، كلّ عالم مخالف للدّولة العبيديّة الشّيعية، وقد أشار القاضي عيّاض في كتابه [ترتيب المدارك] إلى ذلك الضّنك الشّديد، الّذي عانى منه العلماء ،فقال:

"كان أهل السّنة بالقيروان أيام بني عبيد ،في حالة شديدة من الاهتضام والتّستّر، كأنهّم ذمّة تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة، ولمّا أظهر بنوعبيد أمرهم، ونصّبوا حسينا الأعمى السّباب-لعنه الله تعالى- في الأسواق للسّبّ بأسجاع لقّنها، يتوصّل منها إلى سبّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في ألفاظ حفظها ...وعلّقت رؤوس الكباش والحمر، على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلّقة مكتوب فيها أسماء الصّحابة، اشتدّ الأمر على أهل السّنة، فمن تكلّم أوتحرّك قتل ومثّل به"[1].

ولقد قاتل علماء القيروان وأهلوها، إلى جانب الثّائر مخلّد بن كيداد على أسوار المهديّة، وحين لم يكتب له النّصر، فارتدّ على أصحابه الّذين ناصروه، وأعلن مذهبه الخارجيّ، وضع فيهم السّيف تقتيلا وسفكا للدّماء، قال محقّقا [غرر المقالة في شرح غريب الرّسالة لأبي عبد الله المغراوي]:

"وأظهر مخلّد نزعته الخارجيّة، وأمر جنده بضربهم ،فقتل منهم كثيرون، واستشهد من أئمة القيروان خمسة وثمانون"[2].

---

1 - القاضي عياض [ترتيب المدارك و تقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك]، نشر دار مكتبة الحياة بيروت..لبنان(د.ت).ج3/ 318.

2 - أنظر [الرسالة الفقهية لابن أبي زيد القيرواني مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة لابن حمامة المغراوي] إعداد وتحقيق الهادي حمو، ومحمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي بيروت ط2، 1997.ص:11.

ورغم ذلك الجوّ القاتم،والحياة المضطربة، والضّغوطات الشّديدة ،التّي كان أهل القيروان يعيشونها، إلّا أنّ اهتمامهم بمذهب مالك، لم ينقطع، بل ازدادوا به تعلّقا، و دراسة وحفظا ،وخاصّة المدوّنة الكبرى لعالم القيروان الأكبر سحنون، الّذي نوّه به ابن خلدون في مقدّمته[1].

وكان للتّبادل الثّقافي الحاصل بفعل الهجرة، ولقاءات الحجاز ،خلال مواسم الحج دور كبير في تأصيل المذهب المالكيّ،ونشر الفقه القيروانيّ المتناهي بفعل التّحدّيات وعوادي الزّمان، ويذكر بعض المحقّقين من المترجمين لابن أبي زيد، أهميّة هجرة بعض الفقهاء إلى الأندلس، كأبي عبد الله محمّد بن حارث بن أسد الخشنيّ، وأبي محمّد مكّي بن أبي طالب القيسيّ[2].

حفظ ابن أبي زيد القرآن الكريم، وهوفي يفاعة الطّفولة، ودرس العلوم المسعفة على التّحصيل، كالعربيّة، وعلوم القرآن ،وعلم الكلام ،وما إلى ذلك، من مختلف الفنون ،الّتي كانت تدرس عادة في المدارس التّقليدية بالقيروان، إلّا أنّه أوتي نبوغا متفرّدا، وخصّه الله بموهبة خلّاقة ،ساعدته على سرعة التّحصيل، وحسن التّمكن والرّسوخ، في كلّ علم يريد أن يأخذ منه بنصيب.

تتلمذ على يد شيوخ كثر، منهم : أبوالفضل العبّاس بن عيسى المميسي [ت 333هـ]، وأبوسليمان ربيع بن عطاء بن نوفل القطّان [ت 333هـ]، وأبوبكر محمّد بن محمّد المعروف بابن اللّباد القيروانيّ [ت 333 هـ]،ومحمّد بن محمّد بن تميم القيروانيّ [ت 333 هـ]، وأبوعبد الله محمّد بن مسرور العسّال [ت 346 هـ]، وأبوالعبّاس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق الإبياني[ت352هـ][3].

وسمع عن المعمّر بن أبي عثمان الخولانيّ، وعن أبي ميمونة الخبروي [ت 357هـ]، وهوالّذي أدخل المدوّنة الكبرى إلى فارس، وسمع أيضا في

1 - أنظر [المقدمة].ط.دار المصحف بمصر،ص:21.
2 - [الرسالة الفقهية مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة]،ص:12.
3 - المرجع السابق نفسه،ص12

رحلته للحجّ من ابن الأعرابي، وإبراهيم بن محمّد بن المنذر، وأبي عليّ بن أبي هلال، وأحمد بن إبراهيم القاضي،والحسن بن بدر، ومحمّد بن الفتح، وعثمان بن سعد الفر ابلي، وذلك في سنّ مبكّر ،حيث أنّه حجّ وعمره تسعة عشر عاما، يقول الشّيخ الفاضل ابن عاشور معلّقا على ذلك التّنوّع في التّلقّي الّذي حازه ابن أبي زيد في هذه السّنّ المبكّرة:

"فاجتمعت لديه بذلك نفائس الآثار، وتلاقي في كنفه متباعد الأنظار"[1].

نال ابن أبي زيد إجازات من شيوخه عالية السّند، يقول (النّفراويّ):"من أعظم أوصافه علوّ سنده ،لأنّه كان يروي عن سحنون بواسطة، وعن ابن القاسم بواسطتين، وعن مالك بثلاث"[2]. ولم يكن يتأخّر في السّفر إلى العلم، أوالولوج إلى أحد الأقطاب، ممّن يرى فيه الأهليّة. فإذا لم يستطع إلى ذلك سبيلا ،لجأ إلى المكاتبة، وقد استطاع في كثير من الأحيان أن يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، في بعض المسائل الشّائكة من خلال مراسلة شيخه عبد الله الإبّاني، فيردّ عليه الشّيخ مكاتبة، فيجد في ذلك شفاء نفسه، وجواب سؤاله، كما أشار إلى ذلك القاضي عيّاض[3].

ترك ابن أبي زيد ثروة مهمّة من التّآليف الجادّة ،تزيد عن الثّلاثين على ترجيح الفاضل بن عاشور منها [النّوادر والزّيادات] وتوجد نسخ منه في مختلف المكتبات، يقول الباحث أحمد سحنون:"توجد قطعة فريدة من كتاب النّوادر في موضوع الإقرار، وقع الفراغ من مقابلتها بنسخة المؤلّف سنة 383هـ، وهي من الذّخائر العريقة في الأصالة والقدم، كتبت في حياة مؤلّفها، وتعتبر من نوادر المخطوطات بمكتبة القرويين، ووقعت بالخزانة العامّة بالرّباط على ثلاثة أجزاء منه، تحت الأرقام التّالية:1731ق، 425ق، 695ق، وبالخزانة الملكيّة على جزء تحت رقم :5050"[4].

1 - محمد الفاضل بن عاشور[أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي]، مكتبة النجاح، تونس، ص:47.

2 - النفراوي أحمد بن غنيم [الفواكه الدواني على رسالة بن أبي زيد القيرواني]، دار الفكر، بيروت، لبنان.ج1/09.

3 - [ترتيب المدارك]،13/ 347.

4 - نقلا عن محققي [الرسالة الفقهية، وغرر المقالة في شرح غريب الرسالة]، ص:31[الهامش].

كما اشتهر لابن أبي زيد (مختصر المدوّنة)، الّذي توجد قطعة منه بدار الكتب الوطنيّة بتونس، في مجموع رقمه:14894[1].

ويشير الشّيخ الفاضل بن عاشور، إلى أهميّة كتاب [النّوادر والزّيادات]، فيقول: "لم يزل على قلّة نسخه الخطيّة، من أعظم الكتب الفقهيّة ،وأعونها على تكوين الملكة الحقّ، والتّخريج على حسن الفهم، ودقّة التّنزيل ،وبراعة التّعليل، فقد جمع فيه صور الحوادث، الّتي لم تنصّ أحكامها في المدوّنة، واهتم بأكثر الصّور التّي تعرض في عصره في القيروان، فبيّن أحكامها، حسب تنزيل النّقول، وتحقيق مناطها، أوبالجواب عنها، ممّا يتخرّج من الأصول، أومن المنقول، على سنة الاجتهاد في المسائل"[2]. وقال (ابن خلدون) في [المقدّمة]: "جمع ابن أبي زيد جميع ما في المذهب من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النّوادر، فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفروع الأمّهات كلّها، في هذا الكتاب"[3].

ولابن أبي زيد(كتاب الذّبّ عن مذهب مالك) وهومخطوط، وآخر في الرّدّ على القدريّة، ورسالة في النّهي عن الجدل، ورسالة بعنوان(كشف التّلبيس)، وقد ذكر بعض مؤلّفاته ابن النّديم في (الفهرست)[4]، وورد في (دائرة المعارف الإسلامية)، أنّ كتب ابن أبي زيد قد ضاعت، ولم يبق منها إلا ثلاثة:

أوّلها مجموعة أحاديث توجد نسختها الخطية بالمتحف البريطاني [فهرس المخطوطات الشرقية ج2،رقم 8888].

وثانيها الرّسالة التّي نشرها رسل وعبد الله المأمون السّهروردي، مع ترجمة إنجليزيّة وبعض التّعليقات وترجمة للمؤلّف، لندن 1906.

وثالثتها: قصيدة في مدح الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، موجودة بالمتحف البريطانيّ تحت رقم:111617 [5].

1 - المصدر نفسه، ص:31[الهامش].
2 - الفاضل بن عاشور[أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي]، ص:48.
3 - [المقدمة]، ص:322.
4 - إبن النديم [الفهرست]المكتبة التجارية الكبرى.القاهرة.مصر.ج1/ 201.
5 - [الرسالة الفقهية، وغرر المقالة في شرح غريب الرسالة]،ص:36.

ومن تلامذته الّذين أخذوا عنه الرّسالة،وبرّزوا فقهه ودوره ،أبوسعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي البراذعي، وأبوبكر أحمد بن عبد الرّحمن الخولانيّ القيرواني [ت:432هـ]،وأبوالقاسم اللبّيدي [ت:440هـ]، وأبوعبد الله الأجدابيّ [ت:432هـ]، وأبوعبد الله محمّد بن العبّاس الخوّاص [ت:426هـ]، ومكّي بن أبي طالب القيسيّ [ت:437هـ]، وأبوزكرياء الشّقراطسي القرشيّ [ت:429هـ]، وأبوعمر أحمد بن محمّد الإشبيليّ المهدويّ المتوفىّ بعد [410هـ]، وأبوبكر عتيق بن خلف التّجيبي[ت:422هـ]، وأبوعبد الرّحمن الكتامي السّبتي [ت:413هـ]، وأبوالوليد المعروف بابن الفرضيّ[ت:463هـ]، وأبوبكر محمّد بن موهب المقبري التّميمي القرطبيّ [ت:406هـ]، وأبوالمطرّف القنازعيّ القرطبيّ [ت:413هـ]، وأبوعبد الله محمّد بن أحمد بن يحي التّميمي [ت:410هـ]، وأبوعبد الله محمّد بن غالب الهمذانيّ [ت:434هـ]، وأبوعبد الله المعافيّ القرطبيّ [ت:439هـ][1].

يؤكّد الدّارسون أنّ الرّسالة، قد حظيت بقبول كبير لا نظير له، كما هوواقع استقراء مواقع تدريسها، وعدد شروحها، وكثرة الإقبال على حفظ متنها، لدى فئات واسعة من الشّيوخ وطلبة العلم، في أرجاء العالم الإسلاميّ، وخاصّة في المغرب الواسع، وبلاد شنقيط، وأدغال إفريقيا السّوداء، كالسّنغال، والنّيجر ،ونيجيريا ،وبلاد السّودان، وفي أصقاع أخرى من عالمنا الإسلاميّ المترامي الأطراف.

وقد عدّ (القرافيّ) رسالة ابن أبي زيد، من جملة خمسة كتب، عكف عليها جموع المالكيّة، شرقا وغربا[2]. وقال الشّيخ الدّباغ [ت:696هـ]:" انتشرت الرّسالة في سائر بلاد المسلمين ،حتّى بلغت العراق، واليمن، والحجاز، والشّام، ومصر، وبلاد النّوبة، وصقليّة، وجميع بلاد إفريقيّة، والأندلس، والمغرب ،وبلاد السّودان، وتنافس النّاس في اقتنائها، حتّى كتبت بالذّهب، وأوّل نسخة منها بيعت ببغداد، في حلقة أبي بكر الأبهريّ، بعشرين دينارا ذهبيّا "[3].

1 - المصدر السابق نفسه،ص:18 ومابعدها.
2 - القرافي شهاب الدين[الذخيرة]ط. كلية الشريفة.الجامعة الزهرية.1381هـ،1961م. ج1/ 34.
3 - [الرسالة الفقهية، وغرر المقالة في شرح غريب الرسالة]،ص:40-39.

وجاء في مقدّمة شرح النّفراويّ للرّسالة:"قد كثر اشتغال النّاس برسالة الإمام أبي محمّد الملقّبة بباكورة السّعد، وبزبدة المذهب، لماّ ظهر في الخافقين من أثرها وبركتها، لأنّها أوّل مختصر ظهر في المذهب بعد تفريع ابن الجلاّب، وكثرت الشّروح عليها، ولم يكن يستغنى بواحد منها عن غيره"[1].

3 ـ تأليف الرّسالة (المضمون والغايات):

اشتملت الرّسالة على كلّ أبواب الشّريعة ،من دون إطناب مملّ، ولا تقصير مخلّ، وهي خفيفة المؤنة، سهلة التّناول، يأخذ منها العالم والعاميّ، ويحتفي بها الطّالب والمطلوب، على حدّ سواء، فيجد فيها كلّ بغيته، وينال كلّ فيها منيته، وما فيها من المسائل، لا يستغنى عنه ،لأنّه الضّروريّ من علوم الدّين ،يقول محقّقا [الرّسالة الفقهيّة، وغرر المقالة في شرح غريب الرّسالة] في الإشارة إلى أسباب إيثارها عن غيرها : " تركيز مسائلها على العبارة الدّقيقة الحكيمة، الّتي صاغها مؤلّفها، وذلك ميسّر للمراجعة، ومهيء للانطلاق منها، نحوالتّوسّع في عرض المسائل، فقد كان أبوعليّ بن مخلوف الرّاشدي، ت:857هـ، يستخرج من متنها عند تدريسها، جميع فقه مختصر ابن الحاجب، ومدوّنة سحنون ،وغيرهما من الأمّهات، وكان محمّد بن يحي المديونيّ، المتوفّى بعد 950هـ، عندما يدرّس الرّسالة بتلمسان، يدرّس ما يناسبها من ابن الحاجب الفرعيّ، وعندما يقرئ ابن الحاجب، يربط مسائله، بما يناسبها من الرّسالة، وهوفي ذلك يتبع طريقة شيخه محمّد بن موسى "[2].

وابن أبي زيد، يؤكد في مقدّمته ،على أنّه بنى الرّسالة على غاية علميّة، لا تنفكّ عن مناحي النّفع، وتوخّي البيداغوجية ،في التّوصيل للمسائل الفقهيّة، فيقول فيما نصّه ،مخاطبا الشّيخ محرر بن خلف التّونسي الصّدفي، الّذي طلب منه أن يكتب هذه الرّسالة ،كما هوراجح ومشهور:

"فإنك سألتني ،أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الدّيانة، ممّا تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتّصل بالواجب من

1 ـ النفراوي [الفواكه الدواني في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني].ج1/ 02.
2 ـ [الرسالة الفقهية، وغرر المقالة في شرح غريب الرسالة]،ص:42.

ذلك ،من السّنن، من مؤكّدها، ونوافلها ،ورغائبها، وشيء من الآداب، منها جمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته ،مع ما سهّل سبيل ما أشكل من ذلك ،من تفسير الرّاسخين، وبيان المتفّقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما نعلّمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترجى لهم بركته،وتحمد لهم عاقبته، فأجبتك إلى ذلك ،لما رجوته لنفسي ولك ،من ثواب من علّم دين الله، أودعا إليه"[1].

وقد كثرت الشّروح من معاصريه وغيرهم، ونذكر من شروحها وتعليقات العلماء على متنها: كتاب أبي بكر الأبهريّ ،المسمّى [مسلك الجلالة في مسند الرّسالة]، وكتاب أبي بكر محمّد بن موهب القبّري، في شرح الرّسالة، والقاضي عبد الوهّاب، أبومحمّد بن عليّ بن نصر البغداديّ، صاحب (المعونة)، و(الإشراف على مسائل الخلاف).

وقد عدّ كرافت كماذكر ذلك بروكلمان في [تاريخ الأدب العربي]، ثمانية وعشرين شرحا للرّسالة منها شروح لداود المالكي [ت:731هـ]، والأنفاسي [ت:761هـ] والبلوي الشّبيبي [ت:782هـ]، وابن ناجي [ت:837هـ] والقلشاني [ت:863هـ] وسعيد بن الحسين الحميدي [ت:864هـ]، وأحمد زروق [ت:899هـ]، والمنّوفي [ت:939731هـ] والتّتائي [ت:942هـ]، والنّفراوي [ت:1125هـ]، والفاكهاني [ت:734هـ] والتّسولي التّازيّ [ت:749هـ]، وعبد الله بن طلحة [ت:518هـ]، وعبد السّميع الآبّي الأزهريّ وغيرهم.

وإنّنا على يقين أنّه ما انتشرت الرّسالة هذا الانتشار، إلا لخصوصية وسرّ، أودعهما الله في صاحبها، صفاء طويّة، ورقاء خلق، وإخلاص نيّة، وعلوّ همّة، وهوأنّه يكاد مترجموه أن يجمعوا عليه،فقد وصفه القاضي عيّاض، بالصّلاح، والورع، والتّقوى، وقال عند الدّاودي، أنّه كان سريع الانقياد للحقّ، وكان ينفق بسخاء ،إنفاق من لا يخشى الفقر، وقد بعث بألف

1 - عبد المجيد الشرنوبي [تقريب المعاني]، ط دار الحلبي القاهرة مصر، 1323هـ، ص:04 وما بعدها.

دينار من الذّهب إلى القاضي عبد الوهّاب البغداديّ ،حين سمع خصاصته، وهوالفقير المعدم ،الّذي طالما ترنّم بقوله:

بـــغداد دار لأهــل المال طيــبة وللمفاليس دار الضّنك والضّيق.

أبيت أمشي غريبا في شوارعها كأنّني مصحف في بيت زنديق[1]

فسرّ بها القاضي عبد الوهاب، وقال: هذا رجل وجبت علينا مكافأته فقام بشرح الرّسالة[2].

وعطاياه كثيرة لأهل الفضل، وأصحاب السّمعة العلمّية، وكان المال يأتيه بالصّباح، فينفذ من عنده بالعشيّ، قال يوسف الأنفاسي:"قيل: كان مورده كلّ يوم ألف درهم، ولم يجتمع عنده نصاب زكاة، لأنّه كان يصرفه للفقراء والمساكين، وغيرهم"[3].

وأما جانبه الانسانيّ، وتعامله مع الغير، فقد كان آية الزّمان، في اللّطف، والظّرف، ولين الجانب، يقول عنه الأجهوري :"كان واسع العلم ،كثير الحفظ، والديانة، جمع مع ذلك صلاحا تاما ،وورعا، وعفّة، وكرما، وحباه الله بثلاثة أشياء: صحّة البدن، والسّعة في المال، والعلم"[4].

وقال الشّيخ محمّد الفاضل بن عاشور :" قد زكّى سمعته العلميّة الذّائعة، مازان سلوكه الشّخصيّ ،من الزّهد والورع، مع العقل الرّاجح، والأدب البارع، فكانت قوّة عارضته، وجزالة رأيه ،مع ما أوتي من فصاحة اللّسانين، الشّفهي والكتابيّ ،ممكنّة له مقدرة في خدمة الفقه ،تدريسا وتأليفا ،يعزّ أن تتاح لغيره، حتّى عرف في عصره، بشيخ المذهب، ولقب مالكا الأصغر"[5].

1 - القاضي عبد الوهاب:[الإشراف على مسائل الخلاق].
2 - [الرسالة الفقهية، وغرر المقالة في شرح غريب الرسالة]،ص:25.
3 - المصدر السابق نفسه، ص:24.
4 - الأجهوري علي[حاشية الأجهوري على شرح الرسالة]،مخطوط دار الكتب الوطنية تونس رقم 14870/09ب.
5 - الفاضل ابن عاشور [أعلام الفكر الإسلامي].ص:48.

ولئن اختلف مترجموه ،في سنة وفاته، إلا أنّه توفّي على الصّحي، ممّا وثّقها المحقّقون، في شعبان من سنة [386هـ]، وهوالتّاريخ الّذي درج عليه القاضي عيّاض، وابن فرحون، والدّباغ، وابن ناجي، وأحمد زرّوق، ومخلوف، ودائرة المعارف الإسلامية ،ومحمّد رضا كحّالة ،وخير الدّين الزّركلي[1].

وقد نقل محقّقا [غرر المقالة في شرح غريب الرّسالة] جملة من المراثي الّتي قيلت فيه بعد وفاته وهي تنمّ عن تأثّر من رثاه به، وشدّة تقدير تلامذته وأقرانه لعلمه وأخلاقه ومكانته لأنّ فقد العالم المكين خسارة لا تعوّض، خاصّة إذا كان نفعه عميما، وعطاؤه ملموسا، وقدوته في الخلق والدّين لا ينكرها إلّا جاحد كنود، أوحاقد حسود، والواقع أنّ الرّجل كان مرضيّ العشرة محمود السّيرة في محيطه فسلم النّاس من يده ولسانه، وسالم النّاس فأحبّوه وقدّروه.

ومن المراثي قصيدة ابن الخوّاص الكفيف القيروانيّ الّتي يقول فيها :

عجبا أيدري الحاملون لنعشه كيف استطاعت حمل بحر مترع
علما وحكما كاملا وبراعة وتقى وحسن سكينة وتورّع
وسعت نجاح الأرض سعيا حوله من راغب في سعيه متبرّع
يبكونه ولكلّ باك منهم ذلّ الأسير وحرقة المتوجّع[2]

ومرثية تلميذه أبي زكريّاء يحي الشّقراطسي جاء منها قوله :

رزيّة عظمت أتراحها أفلا أبكي وهل سلوة والبدر قد أفلا
رجّت لموقعها الأرجاء وارتجفت وزلزلت لضجيج بالعويل علا
والنّاس من فرق سكرى على فرق وكلّهم كلّهم خطب به ذهلا
على الجليل الّذي جلّت مفاخرة ومن مآثره أضحت لنا مثلا

1 - ينظر [ترتيب المدارك] ج 4/ 496، و الديباج ج1/430، معالم الإعلان ج 3/ 118، ******

2 - أنظر [الرسالة الفقهية، وغرر المقالة في غريب الرسالة]، ص:29 نقلا عن [ترتيب المدارك] ج 4/ 496-497.

كلّ البسيطة لبسط الحزن قد بسطت وقـبـره بسنـا أنـواره ابتهـلا
وكيـف لا، وولـيُ اللهُ حـلّ بـه قطب المشايخ نور للهدى اكتملا
ما بالصّـلاة ولا بالصـوم فـاتـهم لوكان هذا المكان الأمر قد سهلا
لكـن بسرّ من الرّحمـن أوقـره بصدره فليهن الصّدر ما حصلا
يـا عيـن سحّى فالدّمع فـاض لما أصابني، وهمـي سحّا ومنهملا
لا تـعـجبـوامن شـجـيّ في تولهّـه بـل أعجبوا لخلي البـال كيف خلا[1]

ولا عجب أن نجد الرّسالة تكتسح العالم الإسلاميّ شرقا وغربا، ويحتفي بها الدّارسون من كلّ فجّ عميق، وتصبح شامة في جبين الأمّة، تحمل العلم الشّرعيّ، وتحتوي الفقه المالكيّ، ولكنّ العجيب أن تترجم الرّسالة إلى اللّغات الحيّة الأخرى كالإنجليزيّة والفرنسيّة فقد ترجمها إلى الإنجليزيّة المستشرق أدرسل مع عبد الله المأمون السّهرودي، ونشرت الترجمة مع النّص العربيّ بلندن عام 1906، كما ترجمها إلى الفرنسيّة المستشرق فانيان، ونشرت ترجمته بباريس عام 1914، كما ترجمها إلى الفرنسية وقدّم لها الفرنسيّ ليون برشر L.Bercher وطبعت بالجزائر مرّات عديدة[2].

الرّسالة سفر مهمّ ،والتّنافس الحاصل بين العلماء، في شرح مضامينها، وتحقيق أحكامها ، وشرح غريبها، ونظم معانيها ،ثم شرحها عبر العصور، دالّ بلا شكّ ولا مرية، على دقّة تأليفها، وقابليّة نصّها للنّماء، والانفتاح، على كلّ عصر وكلّ حال، ممّا يقتضيه تطوّر الأمّة، وتشابك أحوالها ومصالحها ،ومستجدّات أمورها ،من فترة إلى فترة، ومن جيل إلى آخر، ممّا يجعل عجائبها لا تنقضي، وعطاءها لا ينتهي.

4 - المنحنى التّأصيليّ والتّوصيليّ في رسالة ابن أبي زيد القيروانيّ:

1. الرّسالة تلخيص محكم ،قائم على منهج عمليّ مستوعب لمذهب الإمام مالك، وهومذهب يرتكز في الأساس على النّص، باعتبار أنّ الإمام مالكا (رحمه الله) ،ناقل أمين من نقلة السّنة الشّريفة، وكتابه (الموطّأ)

1 - المصدر السابق نفسه.ص:29-30، نقلا عن معالم الإيمان،ص118..243
2 - المصدر السابق نفسه،ص:48.

تأصيل نصّي دقيق، لأبواب الفقه عامّة، وقد بلغ درجة من الصّحة ،لا تقل عن الصّحاح، وعلى رأسها صحيحي البخاري ومسلم، اللّذين تلقّتهما الأمّة بالقبول.

ولئن كان فقه مالك مؤصّلا، من الكتاب والسّنة ،وإجماع الأمّة ،وما قرّره إمام المذهب، من أصول تشريعيّة محكمة، فلقـــد توسّع الفقه إلى تفريعات، اقتضتها إلحاحات العصر، وضرورات الحياة، وتقلّب الأوضاع، ومقتضيات القضاء الشّرعي، بنوازله، وأحكامه المستنبطة من الأدلة الأولية، والقياس عليها بعد ذلك ،بما تقتضيه المصلحة ،ويحتّمه الواقع، وقد حمل العلم عن المؤسّس الأوّل للمذهب تلامذة وأعوان، ومعتمدهم في الأساس (المدوّنة)، وقد انتحى لها قوم منحى نقديا ،بحثوا فيه عن ألفاظها، ونقّبوا عن بواطن أبوابها، ونبّهوا عن اضطراب الجواب، وتتبّعوا الآثار، ورتّبوا أساليب الأخبار، وضبطوا الحروف على ما وقع في السّماع، ووافق عوامل الإعراب أوخالفها ،من فقهاء مصر، والحجاز، والمغرب عموما[1].

وهناك قوم نهجوا منهجا قياسيا، وهم متفقّهة المدرسة المالكيّة بالعراق، إذ جعلوا مسائل المدوّنة كالأساس، وبنوا عليه فصول المذهب بالأدلّة والقياس، ولم يهتمّوا بتصحيح الرّوايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبوا على إفراد المسائل، وتحرير الدّلائل، على رسم الجدليين وأهل النّظرمن الأصوليّين[2]، وكان ذلك منطلقا للتّأكيد، بأنّ هذه المدرسة العراقيّة المالكية، قد أصّلت منذ البداية لفقه الخلاف، وهوأمر حتّمه الاحتكاك بين مالكيّة العراق، والجوّ الحواريّ الخلافيّ ،المزامن لفقه الحنفية، وغيرهم.

ناهيك عن الصّراع العقديّ القائم بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، في تأويل الصّفات الإلهيّة، وأفعال العباد، ورؤية الله، وخلق القرآن، وحكم مرتكب الكبيرة ومسألة الشّفاعة والإمامة، وقد رأى ابن خلدون، أنّ مذهب الأشاعرة ،يمثّل الوسطيّة في العقيدة بين التّحرّر والجمود ،لذلك كثر أتباعه، وتتابع مناصروه[3].

1 - ينظر المقري التلمساني (أزهار الرياض)،ج3/22.
2 - المرجع نفسه،ج3/22.
3 - ابن خلدون (المقدمة)،ص:388.

2. أخذ ابن أبي زيد القيروانيّ ،مضمون رسالته عن شيوخ ضالعين في الفقه المالكيّ، واتصل سنده العلميّ بهم، كابن اللّباد، تلميذ كبار أصحاب سحنون، كيحيى بن عمر، وعبد الله بن طالب، وحمديس القطّان، وعبد الجبار بن خالد السّرتي، وأحمد بن أبي سليمان، وابن الحدّاد وغيرهم، وقد تأثّر جدّا بابن اللّباد،، ورثاه بما ينمّ عن التّقدير والإعجاب :

يا من هوالعلم المشهود منظره ومن تأدّب بالتّقوى وأدّبنا

ومن به تكشف الظلّمات إذ نزلت ومن بدعوته الرّحمن ينفعنا[1]

كما أخذ عن أبي الفضل الهمسي، وأبي محمّد التّجيبي المعروف بابن الحجّام، وأبي العربي التّميمي، وأبي عبد الله العسّال، وأبي سليمان القطّان، وأبي عثمان الخولاني، وأبي الأزهر بن معتب، وحبيب بن الرّبيع، وأبي محمّد الأصيليّ، وأبي ميمونة وغيرهم، وقد كانت له مكاتبات، وإجازات بالمراسلة، مع الأبهريّ إمام المالكّية بالعراق، وابن القرطيّ ،من أئمة مالكيّة مصر، وأبي الفضل القشيري ،من أهل البصرة، الّذي أقام بمصر، والمروزيّ، وهومحمّد بن أحمد المروزيّ، راوي صحيح البخاريّ عن الفِرَبري، ت: 371هـ.

وكان ابن أبي زيد حافظا ثبتا، وفقيها ورعاً، قال عنه أبوإسحاق الشّيرازي:"إليه انتهت الرّئاسة في الفقه، وكان يسمّى مالكا الصّغير"[2]، وقال عنه الحافظ الذّهبي :"الإمام العلّامة القدوة الفقيه ،عالم أهل المغرب"[3]، ووصفه القاضي عيّاض بأنّه إمام المالكيّة في وقته وقدوتهم، وجامع مذهب مالك وشارح أقواله، لخّص المذهب وضمّ كسره، وذبّ عنه[4]، وشهد له الإمام القابسيّ، بأنّه إمام مؤيّد موثوق به، رواية ودراية[5].

3. وظّف رسالته أخذا من المنبع الأصيل، لمصادر الفقه المالكيّ، عقيدة وعبادة ومعاملة ،للانتصار لمذهب أهل السّنة، وقد تضعضع المذهب

1 - الذهبي (سير أعلام النبلاء)،ج15/ 360.
2 - الشيرازي(طبقات الفقهاء)،ص:160.
3 - الذّهبي (سير أعلام المبلاء)،ج17/10.
4 - القاضي عياض (المدارك) ط بيروت، ج4/ 492.
5 - المصدر نفسه،ج4/ 493.

المالكيّ في الشّمال الإفريقيّ، بعد ظهور دولة العبيديين الفاطميّين سنة 297هـ، وما شهدته الأمّة في مطلع تأسيس الدّولة الزّيريّة النّابتة سنة 362 هـ، وقد كان الصّراع على أشدّه، لولا أن قيّض الله من ينافح عن الدّين، ويرد للمذهب المالكيّ اعتباره، ولعقائد أهل السّنة انتصارها ،وعودتها إلى الواجهة العلميّة والاجتماعيّة، وقد كان أهل السّنة -كما قال القاضي عيّاض- في تلك الفترة في حالة شديدة من الاهتضام والتستّر، كأنهّم أهل ذمّة، ولما انفصلت الدّولة الزّيرية الصّنهاجية عن العبيديين، كان للمعزّ بن باديس الفضل في إعادة المياه إلى مجاريها، واستعاد المالكيّة مكانتهم المفقودة، وقد ذاقوا الأمرّين على يد العبيديين، حتىّ قال القائل، فيما رواه المقريزي في خططه ،وهويتكلّم عن اضطهاد العبيديين لأهل الّسنة، وتمكين النّصارى من رقاب المسلمين :

بذا حكم النّصارى في الفروج وغـالوا بالبـغـال وبالسّروج
وذلّـت دولة الإسـلام طـرّا وصـار الأمر في أيدي العلوج
فقـل للأعـور الـدّجـال هذا مانك إن عزمت على الخروج

وقد كان للشّيخ ابن اللّباد ولتلامذته، من أمثال ابن أبي زيد ،اليد الطولي في المنافحة عن المذهب، وعن عقيدة أهل السّنة، رغم المشاكل، والمتاعب، والفتن الظاهرة والباطنة ،التّي اصطلى بها كلّ مالكيّ معلوم، وكلّ سنّي معروف.

يقول الفاضل بن عاشور:"لولا أنّ جهدا خارقا للعادة، وموهبة عبقريّة، كانت قد حدبت على تراث المذهب المالكيّ في تلك الفترة ،الّتي هومشتغل فيها بسلّ ثيابه من ثياب العبيديين، فحفظته ونمّته، وأدركت قوائمه، ولمّت شعثه، ووصلت بين متباعده، فلم يخلص من محنته تماما، إلاّ وقد وجد نفسه على أكمل ما ينتظر من نفسه، وينتظر النّاس منه، كانت تلك العبقريّة هي عبقرية الشّيخ أبي محمّد بن عبد الرّحمن النّفزاوي، المشهور بابن أبي زيد"[1].

1 - ابن عاشور الفاضل: [أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي]،ص:6

4.انتهج ابن أبي زيد ،منهجا مغايرا لما كان عليه بعض شيوخه، كابن اللّباد، وأبي الفضل المميسي، وأبي إسحاق السّبائي، وبعض معاصريه، كأبي عبد الله الذّهلي، وعبد الله بن أبي القاسم التّجيبي، وكلّهم أوذي في ذات الله، وامتحن امتحانا لا تطيقه العصبة أولواْ القوّة، ولكنّهم صبروا ،حتىّ جاء أمر الله، فمنهم من قضى نحبه ،ومنهم من ردّ إلى الحياة، ليواصل مهمّته، ولكن ابن أبي زيد انشغل بالتّحصيل العلميّ ،وآثر خدمة المذهب ومنهج أهل السّنة، خدمة هادئة متعقّلة ،عن طريق التّعليم والفتوى والتّأليف، وهذا المنهج أجدى نفعا، وأخفّ وطأ من التّهوّر الأحمق، والتّحامل الأخرق، والطّيش الأنزق، وهوأولى بالاستمراريّة، وأجدى بالثّبات وطول النّفس، وقد علّل بعض الباحثين، افتتاحه للرّسالة بباب العقيدة، أنّه كان يعمل على محاربة النّزغات الشّيطانية ،التّي كانت تجتاح منطقة الشّمال الإفريقي آنئذ[1].

ومن ملامح هذا المنهج في الواقع المعيش، حضوره الاجتماعيّ البارز، فقد كان يعود المرضى، ويحضر الجنائز، ويواسي أهل البلاد، ويشهد مناسبات أهل بلده[2]، وقد ذكر القاضي عيّاض أنّ هناك رجلا مشهودا من أهل القيروان ،حضر العلماء لإشهاد أملاكه، وتقسيم تركته، وكان معهم ابن أبي زيد القيرواني[3].

ونظرا للثّقة ،فيه فقد أوكل له النّاس التّصرّف فيما يحتاجون،ممّا له علاقة بالشّرع، وهذا ابن الحجّام لما أراد توزيع كتبه، ولم يكن له عقب، بعث بثلثها إلى ابن أبي زيد ،خوفا من أن يأخذها السّلطان[4].

1 - العابد بن حنيفة (العجالة في شرح الرسالة)،ص:10.
2 - د.أبو فارس حمزة (القاضي عبد الوهاب البغدادي ومنهجه في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني)،ص:200.
3 - القاضي عياض،(المدارك)، ج4/ 529.
4 - الدباغ (معالم الإيمان)، ج3/ 51،52.

5. خصائص منهج الرّسالة في التّأصيل والتّوصيل:

أ- أنهّا نحت منحى بيداغوجيا خالصا:

ودليلنا عليه أمور:

أولها: أنهّا وضعت أساسا للصّغار المبتدئين، لأنّ العلم في الصّغر آكد وأرسخ، وقد قيل أنّ أبا إسحاق السّبائي هوالّذي طلب تأليفها، وقيل بل هومحرز بن خلف، وقيل كلاهما، وقد صرّح في مطلعها بقوله:" فإنّك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الدّيانة ،ممّا تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعلمه الجوارح..."[1]، وإن تعجب فعجب قصور همم الكبار في عصرنا، عمّا وضع للصّغار في العصور المواضي، وهودليل على نكسة العلم، وضياع الثّقة.

وثانيهما: " أنّه كان يفتتح مجلسه بالاستماع إلى أسئلة الطّلبة، فإذا لم يكن لديهم أسئلة، عمد إلى تكوين أسئلة من عنده ،يظن أنهّا تهمّ الطّلبة ، ثم يقوم بالإجابة..."[2].

وثالثهما: أنّ هناك نقاشا علميّا ،كان يكتنف الدّرس ويمهّد له، وربما عرضت خلاله غوامض المسائل، وقد كان المنهج ،أنّ الطّلبة يقرؤون من كتب عدّة بالتتّابع إلى أن ينتهوا منها جميعا[3].

ب- أنهّا هيّئت للدّرس العلميّ من جهة، وللنّقل الذّهنيّ بحفظها ميسّرة من جهة أخرى، وهذا الكمّ الكبير من تلامذته الّذين ذكرهم ابن مخلوف في شجرته عن أعلام المالكية ، وعياض في المدارك ،يدلّ على ذلك القبول الّذي حظيت به الرّسالة، وسميّت باكورة السّعد، ووزبدة المذهب.

ج- كانت الرّسالة قيروانية، ولكنّها أشعّت على كلّ أنحاء الدّنيا، فكان من الطّلبة طرابلسيّون، وصقليّون، ومغاربة، وأندلسيّون، وسودانيّون، وطار ذكرها إلى مصر، والعراق ،والحجاز، فاشتهرت في كلّ الأصقاع،

1 - الشرنوبي (تقريب المعاني) ص04 (النص سبق ذكره في البحث).
2 - (القاضي عبد الوهاب البغدادي ومنهجه في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني)، ص:221.
3 - المرجع نفسه، ص:222.

وكان تاريخ تأليفها آخر القرن الرّابع، أي قبل سنة 375 هـ ،سنة وفاة الأبهريّ، قال ابن ناجي موجزا لقول الدبّاغ:"ولما كان القصد بها أن تعلّم لأولاد المسلمين، لم يبق بلد في بلاد الإسلام إلّا بلغت إليه"[1].

د- احتفى بالرّسالة لصحّة مدلولها ،وعمق مضمونها ،غالبيّة من العلماء، منهم أبومحمّد بن زرب القرطبي ،الّذي أخفاها، وكتب منها كتابه(الخصال)، وأبوبكر الأبهري الّذي شرح آثارها، وقد تألّم القيروانيّ من فعلة ابن زرب، فاشتكاه إلى الأبهريّ، فأرسل له يقول (من مخلّع البسيط) :

أعجب ما في الأمور عندي إظهار ما تدّعي القلوب
تأبى نفوسٌ نفوسَ قوم ومالهم عندها ذنوبُ
وتصطفي أنفس نفوسا ومالها عندها نصيبُ
ما ذاك إلا لمظهرات يعلمها الشّاهد الرُّقيب[2]

ولأهميّتها جعلها القرافي ،من جملة خمسة كتب، هي أصول لكتابه الذّخيرة[3]، وأعجب بها القاضي عبد الوهّاب ،وشرحها كما أسلفنا، ومدحها بقوله :

رسالة علم صاغها العلم النُّهد قد اجتمعت فيها الفرائض والزُّهد
أصول أضاءت بالهدى فكأنمّا بدا لعيون النّاظرين بها الرُّشد[4]

هـ- العبارة فيها سهلة دقيقة، والكلمات واضحة فصيحة، تمتاز بجمال التّركيب، وروعة التأليف، وسهولة المأخذ، وجمال الأداء، وحسن التّعبير عن المطلوب، في غير إفراط موغل، ولا تفريط منقض.

ورغم أنّها معدودة من المختصرات، إلا أنّها لا يوجد فيها الغموض، الّذي يكتنف المختصرات عادة،ولذلك سهل حفظها، وكثر الاشتغال بها في كلّ العصور والأمصار.

1 - الدباغ (معالم الإيمان)ج3/ 111.
2 - عياض (المدارك) ج6/ 220، الدباغ (المعالم) ج3/ 112.
3 - القرافي (الذخيرة) ج1/ 36.
4 - الدباغ (معالم الإيمان) ج3/ 112.

و- أدلّتها إمّا مذكورة مجلوّة، أومشار إليها في طيّات العبارات ،من كتاب الله المحكم، كاستشهاده بآية الكرسي، وكذلك بقوله تعالى: ﴿ **نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ** ﴾، و بقوله تعالى : ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾، واقتبس من القرآن قوله في وصف النبيّ: ﴿ **بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا** ﴾. وقوله: ﴿ **وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ**﴾. وقوله: ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنَّ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾. وقوله : ﴿ **أَلاَّ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾[1] وهناك أمثلة كثيرة في هذا المضمار.

كماأنّ هناك إشارات كثيرة إلى أحاديث نبويّة كقوله:"ولا قول وعمل إلا بنية"، وقوله:" وأن خير القرون القرن الذين رأواْ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"[2] وهكذا، وكلّ حكم وارد في الرّسالة له أصله من الأحاديث المختلفة، والرّوايات الصّحيحة، وقد استدلّ الشّراح للرّسالة من القدامى والمحدثين، على كلّ المضامين، وأصّلواْ أحكامها الشّرعيّة أخذا من القرآن، ورجوعا إلى السّنة المطهّرة، وللشّيخ أبي بكر الأبهريّ [ت:375هـ](مسالك الجلالة في إسناد أحاديث الرّسالة).

يقول العلاّمة الفاضل بن عاشور عن كتاب الرّسالة أنّه:" اشتهر في عصره، وأقبل عليه النّاس في المشرق والمغرب، فجعلوه عمدتهم في تنشئة الأطفال، على أدب الدّين، وأحكام الشّريعة، كما جعلوه عمدتهم في مراجعة المسائل للمتفقّهين، بتركيزها على العبارة الدّقيقة الحكيمة، الّتي صاغها الشّيخ ابن أبي زيد في الرّسالة، حتّى أصبحت عمدة الدّراسة الفقهيّة في المذهب المالكيّ، في جميع معاهد العلم بالبلاد الإسلامية بلا استثناء ،فابتدأ رواجها من حياة مؤلّفها"[3]، وهوالّذي قال عنه القابسي:"إمام موثوق به في درايته وروايته".

---

1 - ينظر متن الرسالة في الثمر الداني، ص: 10-11-13-14-16.
2 - أنظر (الثمر الداني)، ص:20-22-23.
3 - ابن عاشور الفاضل(أعلام الفكر الإسلامي)، ص:48.

ز- المتأمل لمحتوى الرّسالة يجد فيها كمّا هائلا من الأحكام، بلغت كما ذكر ابن ناجي في شرحه عليها أربعة آلاف مسألة، وكلّها راجع إلى نصّ صريح، أومرويّ صحيح، وهي مسائل من المنطوق والمفهوم في الرّسالة، وهي مستوعبة بحق لكلّ أبواب الفقه ومسائله، ولذلك قال صاحبها في ختامها:" قد أتينا على ما شرطنا أن نأتي به في كتابنا هذا ،ممّا ينتفع به إن شاء الله، من رغب في تعليم ذلك من الصّغار، ومن احتاج إليه من الكبار، وفيه ما يؤدّي الجاهل إلى علم ما يعتقده في دينه، ويعمل به من فرائضه، ويفهم كثيرا في أصول الفقه وفنونه ،ومن السّنن والرّغائب والآداب"[1].

ج- توازي منثور الرّسالة، مع محاولات أدبيّة وعلميّة جادّة لنظمها، كنظم مقدّمة الرّسالة لأحمد بن مشرف الأحسائي [ت:1285هـ]، وهونظم لجزء العقيدة، ونظم كامل لنظائر الرّسالة مثل نظم أبي عبد الله محمّد بن أحمد بن غازي [ت:919 هـ]، ومنظومة في مشكلات الرّسالة لمحمّد بن قاسم الغسّاني[ت:1244هـ]، ونظم لنصّ الرّسالة لأبي وكيل ميمون بن مساعد المصموديّ [ت:816 هـ]، ومثله نظم عبد الله الغلاوي [ت:1209 هـ][2].

ط- ولقد تواترت عشرات الشّروح في الغابر والحاضر، لهاته الرّسالة الميمونة، وما استكنف اللّاحق أن يشرح متنها، وهوالعليم بأنّ السّابقين تفنّنوا في ذلك، عبر عدد كبير من الشّروح الزّاخرة بالفقه، والأدلة والمسائل والقضايا الشّرعية، وقد شرح المتن كاملا، وشرحت المقدّمة العقدية وحدها، وهناك شرح لغريبها ،كما هوحال تأليف أبي عبد الله محمّد بن منصور بن حمامة (غرر المقالة في شرح غريب الرّسالة)، وربما شرح بعضهم منها جزءا، كما هوصنيع الرّهوني في تأليفه (نصح المؤمنين في شرح قول ابن أبي زيد الطّاعة لأئمة المسلمين)، وهناك شرح لجزء غير مكتمل لأبي على المشدّالي، وهناك شروح مفقودة كما هوشأن شرح الحسن بن عثمان الونشريسي [ت: 790هـ]،وتقريرات غير مكتملة على الرّسالة لأبي العباس

1 - القاضي عياض (المدارك) ج4/ 493.
2 - (الثمر الداني)، ص: 723.

أحمد الشّرفي، وشرح ليحيى بن أحمد الونشريسي [ت:955 هـ]، وشرح لأبي عمران موسى بن أبي علي الزّناتي [ت:708 هـ].

ي- ألفاظ الرّسالة صنفان، صنف معروف مألوف متداول، لا يحتاج إلى شرح ولا إلى بيان، والعبارات فيها كذلك ، منها ما هوواضح الدّلالة، معلوم المعنى، ومنها ما يحتاج إلى شرح،ويقتضي التوقّف عندها لمعرفة أصلها أوفهم دلالتها، كلفظ المخابرة، وهي كراء الأرض بجزء ممّا يخرج منها، وهي عامّة في المساقاة والمزارعة، وكقوله:"حتى يظعن من مكانه"، وقوله عن كفن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم :"في ثلاثة أثواب بيض سحولية أدرج فيها إدراجا..."، وغير ذلك ممّا هوموجود في المتن، ومشار إليه في الشّروح.

وقد نأت الرّسالة عن التّعريفات الاصطلاحيّة، والحدود التّعريفيّة، وكذلك عن التّراجم، والإيغال في مسائل الخلاف الّتي كثيرا ما تذهب بالأذهان كلّ مذهب، وتعصف بالتّركيز عند الطّالب، فلا يستوعب المسألة، بل يتوه في دهاليز الخلاف المتشعّبة، وشتّان بين فهم فيه شركاء متشاكسون،وفهما سلما لرأي واحد مؤصّل دقيق.

ك- التزمت الرّسالة بمبدأ التّكرار التّربوي في بعض الأحيان، وهوذو غاية بيداغوجيّة ظاهرة، فإن لم يكن من أجل إيراد الجديد، فهولترسيخ ما أعيد، وربما ذكر الشّيء بالمفهوم وأعيدبالمنطوق، حتّى تستوعبه الأذهان، وتعنق له الأفكار، وتتشوّق له القلوب، وتألفه الأنفس، والتّكرار الإيجابي الموضوع للغاية التّربوية ،منهج نبويّ مكين، وهوفي القرآن مدرج ظاهر في آيات كثيرة.

ل- رغم الاختصار الّذي تتميّز به الرّسالة، وترجيحها لأقاويل ليست مشهورة، فإنّ مسلكيّة الفهم الّتي انتحاها ابن أبي زيد ،كانت تقوم على الرّاجح والمتداول بين العلماء، ولقد كانت في سهولتها ويسر تناولها، وضبط أغلب مباحثها ،موثوقة المضامين، مرتضاة من علماء التّحقيق الفقهيّ، حتّى قال زرّوق منوّها بذلك ومعلّلا لأصله وغايته، ذاكرا طول بقائها، وتقادم العهد

بها:"مع ما فيها من عظيم الإشكال، ودواعي الإنكار من الحسّاد والأشكال، وهذه كرامة من الله لا تنال بالأسباب"[1].

م- يستخلص من كلّ ما سلف، أنّ الرّسالة مورد معين، ومنبع زلال، تستقي منه النّاشئة مبادئ الفقه المؤصّلة، ومسائل الشّريعة المحصّلة، ولقد كان مددا سخيّا للأجيال السّابقة، ترنوله همم طلبة العلم، ليكون فاتحة الطّلب، ومرتكز التّأسيس الفقهيّ، لمن أراد أن يخوض في بحره مع الخائضين، فإذا ولج إلى المطوّلات العميقة، والشّروح البليغة، كان متزودا من الرّسالة بما يفتح له الآفاق، ويحقّق له الغايات، ويوصله إلى المبتغى دون تعثر يؤثر، ولا انزلاق يذكر..

ونحن في عصرنا هذا، لا نفتأ نذكّر النّاشئة من متفقّهة هذا العصر، ممّن نفر من كلّ طائفة حصيفة، وكلّ فرقة شريفة، ليتفقّهوا في الدّين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون، أن يركّزوا على الرّسالة حفظا وشرحا وفهما وتأصيلا، وأن يزوّدوا مسارهم بالأدلّة العلميّة، والنّصوص الدّاعمة للشّريعة، إذ ذلك زادهم في المواجهة، وعدّتهم في المجابهة ،في هذا العصر الأخرق، وهذا الزّمان الأحمق، الّذي كثر فيه الإدّعاء، وأطلّت الرّؤوس الضّحلة، والمواهب المعدومة، والنّفوس اللئيمة، والادّعاءات السّافرة، والنّقولات المسلوخة الظّاهرة، وامتطى جواد الفقه الّذي يزلّ الغلام الخفّ عن صهواته، وتتقاصر الهمم الرّخية عن إدراك غاياته..

وستبقى الرّسالة نورا يسري، وحكمة تتجدّد، وملاذا للنّشئ، ومرجعا للتفقّه، لا تخاف معه الأمّة دركا ولا تخشى.

والله الموفق للسّداد، وعليه وحده الاتّكال والاعتماد، وفقكم الله للوصول إلى الغاية،ليكون هذا الملتقى ،ممّا ينفع النّاس،وممّا يمكث في الأرض.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

1 - ابن حنيفة العابدين (العجالة)، ص:31.

خليل بن إسحاق الجندي
وأثره في الفقه المالكي

د/ موسى اسماعيل
جامعة الجزائر

مقدمة:

الفصل الأول: ترجمة العلامة خليل

المبحث الأول: الحياة الخاصة للعلامة خليل

المطلب الأول: اسمه ونسبه ونشأته

أولا : اسمه ونسبه وكنيته[1] : هو خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المصري الجندي.

وخليل على وزن فعيل، مأخوذ من الخُلَّة ـ بالضم ـ وهي صفاء المودة. أو مأخوذ من الخَلَّة ـ بالفتح ـ وهي الحاجة، أي أنه شديد الافتقار إلى مولاه[2]. وذكر الحافظ ابن حجر في الدُّرَرِ الكامنة أنه يسمى محمدا[3]. وهذه التسمية لم يذكرها غير ابن حجر، والمشهور من اسمه هو خليل، وهو الذي أثبته المصنف في كتبه، وهو المنقول عن أهل مذهبه، وهم أعلم به من غيرهم[4]. يقول الحطاب: «خليل بن إسحاق بن موسى، كذا رأيته بخطه في آخر نسخة من مناسكه»[5]. وذكر ابن غازي ابن يعقوب مكان ابن موسى، وهو وهم كما قال التتائي[6]. قال الحطاب: «وذكر ابن غازي موضع موسى يعقوب، ويوجد كذلك في بعض النسخ، وهو مخالف لما رأيته بخطه»[7].

---

1 - ترجمته في الدرر الكامنة (2/ 86)، والديباج المذهب (ص : 186)، ووفيات الونشريسي (ص: 127)، وحسن المحاضرة (1/ 397)، وتوشيح الديباج (ص: 92 - 98)، والنجوم الزاهرة (11/ 92)، ودرة الحجال (ص: 133)، ونيل الابتهاج (ص:112)، وكفاية المحتاج (ص:)، والبستان (ص: 96 - 100)، وشجرة النور الزكية (1/ 223)، وهدية العارفين (5/352)، والأعلام (2/315)، ومعجم المؤلفين (4/ 113 - 114).

2 - انظر مادة: خلل، في لسان العرب (11/ 211).

3 - الدرر الكامنة (2/ 86).

4 - حاشية العدوي على شرح الخرشي (1/ 15).

5 - مواهب الجليل (1/ 13).

6 - انظر حاشية العدوي على شرح الخرشي (1/ 15).

7- مواهب الجليل (1/ 13).

ثانيا: نسبه:المصري نسبة إلى مصر. ويقال له الجندي، نسبة إلى الجند. لأن الإفرنج لما أرادوا احتلال الإسكندرية فبعث السلطان إليها جندا لدفعهم فكان رحمه الله من جملتهم[1].

قال ابن فرحون : «وكان الشيخ خليل من جملة أجناد الحلقة المنصورة، يْلبس زيّ الجند المتقشّفين»[2].

ثالثا: كُنيته: له كنيتان أبو المَوَدَّةِ وأبو الضِّيَاء.

رابعا: لقبه: ذكر ابن حجر في الدرر الكامنة أنه لقب بضياء الدين[3].

خامسا: مولده: اتفقت مصادر التراجم على أنه ولد بمصر، إلا أنها لم تشر إلى سنة مولده.

سادسا: نشأته:نشأ الشيخ وترعرع في بلده القاهرة، وكانت نشأته دينية علمية، في بيت علم ودين.

وكان لوالده الأثر البالغ في تكوين شخصيته وتنشئته على الاستقامة والصلاح وحثه على الالتزام بدينه ودفعه إلى المزيد من النشاط.

فقد كان والده من أولياء الله الصالحين، وقد نصّ على ذلك خليل نفسه في كتابه الذي ألفه في مناقب شيخه عبد الله المنوفي فقال: «وكان الوالد رحمه الله تعالى من الأولياء الأخيار، وكان قد صحب جماعة من الأخيار مثل سيدي الشيخ عبد الله المنوفي، وسيدي الشيخ الصالح العارف بالله تعالى أبى عبد الله بن الحاج، وكان سيدي الشيخ أي المنوفي يأتي إليه ويزوره.

ومن مكاشفات الوالد أني قلت له يوما وهو ضعيف منقطع: يا والدي، سيدي الشيخ أبي عبد الله بن الحاج ضعيف على فراش الموت، فقال: سيدي أحمد لا يصيبه المرة شيء، ولكن سيدي محمد أخوه قد مات، فذهبت فوجدتهم كما ذكر رجعوا من دفنه، ولم يكن قد جاء أحد أعلمه بذلك»[4].

---

1 - انظر حاشية العدوي على شرح الخرشي (1/ 14).
2 - الديباج المذهب (ص: 186).
3 - الدرر الكامنة (2/ 86).
4 - انظر حاشية الدسوقي (1/).

ومما لا شك فيه أن للعلاقات التي كانت تربط الوالد بمثل هؤلاء العلماء الصالحين الأثر الطيب في بناء شخصية الابن وتكوين ثقافته وظهور نبوغه لكثرة مجالسته لهم وأخذه عنهم، وهذا ما نلمسه من توجهه لطلب العلم، وسلوكه طريق الصالحين.

المطلب الثاني : صفاته ووفاته

أولا: صفاته :

1 ـ الدين والصلاح : كان خليل رحمه الله من أهل الدين والصلاح أجمع الناس على فضله وأطبقوا على جلالة قدره.

فقد قال عنه ابن فرحون بعد أن رآه وجلس إليه وسمع منه وعرف قدره: «وكان الشيخ خليل ..... ذا دين وفضل وزهد وانقباض عن أهل الدنيا»[1].

وقال ابن مرزوق الحفيد: «تلقيت من غير واحد ممن لقيته بالديار المصرية وغيرها أن خليلا من أهل الدين والصلاح»[2].

2 ـ العفة والنزاهة: وكان عفيفا نزيه النفس يصون دينه وعرضه، كما وصفه بذلك الحافظ ابن حجر فقال: «وكان صينا عفيفا نزها»[3].

3 ـ الزهد والتقشف : عاش الشيخ عيشة الزهد والتقشف والتقلل من الدنيا، يظهر ذلك من الملابس البسيطة التي كان يرتديها. فقد وصفه ابن فرحون وهو ممن لقيه واجتمع به فقال: «وكان الشيخ خليل من جملة أجناد الحلقة المنصورة، يلبس زي الجند المتقشفين، ذا دين وفضل وزهد وانقباض عن أهل الدنيا»[4]. وقال السيوطي في وصفه: «كان ممن جمع العلم والعمل، والزهد والتقشف»[5].

---

1 - الديباج المذهب (ص: 186) بتصرف.
2 - انظر نيل الابتهاج (ص: 169).
3 - الدرر الكامنة (2/ 86).
4 - الديباج المذهب (ص: 186).
5 - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (1/ 397).

4 ـ التواضع : كان متواضعا في غاية البساطة طارحا للتكلف، ومن تواضعه بساطة لباسه، فقد كان يلبس لباس الجند، وكان ثوبه قصيرا لا يتعدى أنصاف ساقيه، مما يدل على زهده في الدنيا ومتاعها.

وكان هذا دأبه وديدنه طيلة حياته، كما صرح بذلك ابن حجر فقال: «ولم يغير زي الجندية»[1].

ومن تواضعه أيضا ما حكاه ابن غازي عنه «أنه جاء يوما لمنزل بعض شيوخه فوجد كنيف المنزل مفتوحا ولم يجد الشيخ هناك، فسأل عنه فقيل له: إنه يشوشه أمر هذا الكنيف فذهب يطلب من يستأجر له على تنقيته، فقال خليل: أنا أولى بتنقيته، فشمر ونزل ينقيه، وجاء الشيخ فوجده على تلك الحال والناس قد حلقوا عليه ينظرون إليه تعجبا من فعله، فقال الشيخ: من هذا؟ قالوا: خليل، فاستعظم الشيخ ذلك وبالغ في الدعاء له عن قريحة ونية صادقة، فنال بركة دعائه ووضع الله تعالى البركة في عمره»[2].

ومن تواضعه أيضا قوله في مقدمة مختصره: «ثم أعتذر لذوي الألباب من التقصير الواقع في هذا الكتاب، وأسأل بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع أن ينظر بعين الرضا والصواب، فما كان من نقص كملوه، ومن خطأ أصلحوه، فقلما يخلص مصنف من الهفوات أو ينجو مؤلف من العثرات»[3]. وهذا الكلام في غاية التواضع والانكسار، فقد كان رحمه الله عالما محققا للفروع مشاركا في الأصول متقنا للعربية بارعا في الحديث وهو مع ذلك معترف بالنقص ومقرٌّ بالتقصير.

5 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : فقد ذكر ابن غازي عن بعض شيوخ شيوخه أنه رأى خليلا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[4].

6 ـ الجهاد: كان رافعا لراية الجهاد في سبيل الله، جريئا في الدفاع عن المسلمين وتحصين ديارهم، وانخرط في الجندية سالكا في ذلك طريق آبائه[5].

---

1 - الدرر الكامنة (2/ 86).
2 - انظر نيل الابتهاج (ص: 170).
3 - مختصر خليل (ص: 8).
4 - انظر نيل الابتهاج (ص: 170).
5 - انظر نيل الابتهاج (ص: 170).

وكان يرتدي لباس الجندية ولم يخلعها طول حياته[1]. وكان مصدر رزقه من الجندية[2]. يقول ابن مرزوق الحفيد: «حدثني الإمام العلامة المحقق الفاضل قاضي القضاة بمصر والإسكندرية الناصر التنسي أنه اجتمع به حين أُخذت الإسكندرية في عشر السبعين وسبعمائة وكان نزل من القاهرة مع الجيش لاستخلاصها من أيدي العدو»[3].

7 ـ الاشتغال بالعلم : فبالرغم من أنه كان من الجنود المحاربين إلا أنه لم يمنعه ذلك من أن يكون مزاحما لأهل الفضل ومنافسا لأكابر العلماء. فقد كان رحمه الله حريصا أشد الحرص على تعلم العلم والعمل به ونشره بين الناس وتفقيههم، ومما يحكى عنه من حرصه على العلم وانشغاله بأمر نفسه وشحه على عدم ضياع أوقاته أنه أقام بمصر عشرين سنة لم ير النيل[4]. وكان كثير المطالعة للكتب، فقد قال عنه أبو الفضل ابن مرزوق الحفيد: «تلقيت من غير واحد ممن لقيته بالديار المصرية وغيرها أن خليلا من أهل الدين والصلاح والاجتهاد في العلم إلى الغاية، حتى إنه لا ينام في بعض الأوقات إلا زمنا يسيرا بعد طلوع الفجر ليريح النفس من جهد المطالعة والكتب»[5]. ومن شدة انشغاله بطلب العلم ومذاكرة الشيوخ والأقران ما ذكره ابن مرزوق الحفيد عن شيخه الناصر التنسي أنه لما التقى بخليل في الإسكندرية حين نزل مع الجيش لاستخلاصها من يد العدو أنه اختبر فهمه بقول ابن الحاجب: «والصرف في الذمة والصرف في الدين الحال يصح خلافا لأشهب»[6]. فانظر إليه كيف لم يترك المذاكرة والبحث حتى في حالة الجهاد والاستعداد لقتال الكفار.

1 - انظر الدرر الكامنة (2/ 86).
2 - انظر نيل الابتهاج (ص: 170).
3 - انظر نيل الابتهاج (ص: 170).
4 - انظر نيل الابتهاج (ص: 170).
5 - انظر نيل الابتهاج (ص: 169).
6 - انظر نيل الابتهاج (ص: 170).

ثانيا: وفاته:

ذكر ابن حجر وابن تغري بردي وابن الغزي والسيوطي وابن القاضي تقي الدّين أنه رحمه الله توفى ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وستين وسبعمائة (767 هـ)[1].

وذكر التنبكتي عن الشيخ زروق أنه توفى سنة (769 هـ)[2]. وذكر ابن غازيّ أنّها في سنة سِتٍّ وَسَبْعِينَ وسبعمائة (776 هـ). وهو رواية ابن مرزوق، حيث قال في المنزع النبيل: «حدثني الشيخ الفقيه الفاضل ناصر الدين الإسحاقي المصري رحمه الله تعالى ونفع به وهو من أصحاب المصنف ومن حفاظ هذا المختصر أن المصنف توفي سنة ثالث عشر ربيع الأول سنة ست وسبيعين وسبعمائة رحمه الله»[3].

واختار التنبكتي ما ذكره ابن غازي وابن مرزوق وعلل سبب اختياره فقال: «بل الأشبه ما ذكر ابن مرزوق وابن غازي، لإسناده إلى بعض تلاميذ خليل، وهو أعلم به من غيره لكونه ممن حضره وصاحبه في حياته»[4]. واختار الإمام الحطاب ما ذهب إليه ابن حجر والفاسي من أنّ سنة الوفاة كانت في (767 هـ) وقال: «وهما أعلم من ابن غازيّ بذلك»[5]. وحكى التتائي في شرحه عن عبد الخالق بن الفرات عن شيخه خليل أنه رُئِي في المنام بعد موته فقيل له: «ما فُعِلَ بك؟ قال: غفر لي ولجميع من صلّى عليّ»[6].

1 - الدرر الكامنة (2/ 86)، والنجوم الزاهرة (11/ 92)، ودرة الحجال (ص:133).
2 - انظر نيل الابتهاج (2/0).
3 - المنزع النبيل (2/ظ).
4 - نيل الابتهاج (ص: 172).
5 - مواهب الجليل (/).
6 - توشيح الديباج (ص: 95).

المبحث الثاني : الحياة العلمية للعلامة خليل

المطلب الأول : طلبه للعلم وثناء العلماء عليه

أولا: طلبه للعلم :

كعادة أهل المدن مع أبنائهم أدخل الكتّاب في صغره فحفظ القرآن مبكرا، وبعد ذلك بدأ الطلب على العلماء.وقد كانت القاهرة مركزًا مزدهرًا للعلم، تفخر بما فيها من مدارس كبرى، وتزخر بكثير من المكتبات، وتزدحم بالعلماء في مختلف التخصصات، فأخذ يتلقى عن شيوخ القاهرة وحرص على الطلب في سن مبكر من حياته. ومما ساعده على ذلك ذكاؤه النادر ونبوغه المبكر وقوة حافظته والبيئة العلمية المناسبة فضلا عن الحياة الدينية التي نشأ فيها. ودفعه فضوله وهو صغير إلى مطالعة الحكايات وقراءة القصص الشعبية مما، حتى نهاه عن ذلك شيخه عبد الله المنوفي، كي لا ينشغل عن تحصيل العلم الشرعي. فقد ذكر عن نفسه أنه كان في صغره قرأ سيرة البطال، ثم شرع في غيرها من الحكايات ولم يطلع عليه أحد من الطلبة، فقال له شيخه المنوفي: يا خليل، من أعظم الآفات السهر في الخرافات[1]. وبالرغم من أن والده كان حنفيا لكن لم يمنعه ذلك أن يوجه ولده وجهة الفقه المالكي، فشغل خليل بمذهب مالك لمحبته في شيخه عبد الله المنوفي وأبي عبد الله بن الحاج صاحب المدخل، وانتفع بهما ونال بركتهما، حتى صار عمدة العلماء النظار وتحفة فقهاء الأمصار.

ثانيا: ثناء العلماء عليه :

قال ابن فرحون : «كان صدرا في علماء القاهرة المعزية، مجمعاً على فضله وديانته، أستاذا ممتعا من أهل التحقيق، ثاقب الذهن، أصيل البحث، مشاركاً في فنون من العربية والحديث والفرائض، فاضلاً في مذهب مالك، صحيح النقل، تخرج بين يديه جماعة من الفقهاء الفضلاء »[2]. وقال ابن حجر العسقلاني: «وكان صيناً عفيفاً نزهاً»[3]. وقال ابن الغزي: «الإمام

1 - انظر حاشية العدوي على شرح الخرشي (1/ 14).
2 - الديباج المذهب (ص: 186).
3 - الدرر الكامنة (2/86).

الحبر الفقيه المحدث»[1]. وقال ابن تغري بردي: «كان فقيها مصنفا»[2]. وقال السيوطي: «كان ممن جمع العلم والعمل، والزهد والتقشف»[3]. وقال ابن القاضي المكناسي: «كان رجلا صالحا فاضلا زاهدا عالما عاملا»[4].

المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه ومصنفاته

أولا: شيوخه :

لا شك أن شيوخه الذين لقيهم وسمع منهم وحضر دروسهم كانوا كثيرين، وخاصة أن القاهرة كانت ومركز علميا هاما ومحضنا للعلماء، غير أن كتب التراجم لم تسعفنا بذكر أسمائهم إلا البعض منهم وهم:

1 ـ محمد بن محمد العبدري الفاسي أبو عبد الله، المعروف بابن الحاج، صاحب الكتاب المشهور المدخل، المتوفى رحمه الله سنة (737 هـ)[5].

2 ـ عبد الله بن محمد بن سليمان المنوفي المصري، أبو محمد، أحد الشيوخ الفضلاء الفقهاء بمصر، المتوفى رحمه الله سنة (749 هـ)[6].

3 ـ إبراهيم بن لاجين بن عبد الأغري الرشيدي، برهان الدين المصري الشافعي، المتوفى رحمه الله سنة (749 هـ)، كان من أعلام الفقه واللغة، وله إلمام بالأصول والعربية والطب والمنطق، أخذ عنه خليل الأصول والعربية[7].

ثانيا: تلاميذه :

1 ـ عبد الخالق بن علي بن الحسين المعروف بابن الفرات، الفقيه النحوي من أهل الفضل، أخذ الفقه عن الشيخ خليل وشرح مختصره، توفي رحمه الله سنة 794 هـ[8].

---

1 - ديوان الإسلام (/).
2 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (11/ 92).
3 - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (1/ 397).
4 - درة الحجال (ص: 133).
5 - انظر الديباج (ص:413)، والدرر الكامنة (4/ 237)، وشجرة النور (1/ 218).
6 - انظر النجوم الزاهرة (10/ 189)، وحسن المحاضرة (1/454)، ونيل الابتهاج (ص: 219)، وشجرة النور (1/ 205).
7 - انظر الدرر الكامنة (2/ 175)، (10/ 384)، وتوشيح الديباج (ص: 93).
8 - انظر نيل الابتهاج (ص:285)، وشذرات الذهب (6/ 333)، ومعجم المؤلفين (5/ 110).

2 ـ إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن فرحون اليعمري المغربي ثم المدني المالكي، برهان الدين أبو الوفاء، قاضي المدينة المنورة وصاحب كتاب التبصرة والديباج، ذكر أنه اجتمع بخليل وأخذ عنه حيث قال: «اجتمعت به في القاهرة وحضرت مجلسه يقرئ في الفقه والحديث والعربية»، توفي رحمه الله سنة 799 هـ[1].

3 ـ محمد بن محمد بن علي بن عبد الرازق الغماري المصري المالكي النحوي شمس الدين، المتوفى سنة 802 هـ[2].

4 ـ بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عوض بن عمر السلمي الدميري القاهري المالكي، تاج الدين أبو البقاء، تفقه بخليل وسمع منه، ووضع على مختصره ثلاثة شروح كبير وأوسط وصغير، وتوفي رحمه الله سنة 805 هـ[3].

5 ـ محمد بن عثمان بن موسى بن محمد ناصر الدين أبو عبد الله الإسحاقي[4] القاهري المالكي، وهو ممن اشتغل عند الشيخ خليل وغيره، توفي تقريبا سنة 810 هـ وقد زاد على التسعين[5].

6 ـ إبراهيم بن محمد بن حسين برهان الدين القاهري المالكي نزيل مكة، ويعرف بالموصلي، كان حسن خط يتكسب بالنسخ بحيث كتب به مختصر الشيخ خليل وشرحه لابن الحاجب الفرعي، وكان يذكر أنه من تلامذته، توفي بمكة في سنة 814 هـ[6].

7 ـ خلف بن أبي بكر النحريري المصري المالكي نزيل المدينة، أخذ عن الشيخ خليل، وبرع في الفقه وناب في الحكم وأفتى ودرس، ثم توجه إلى

1- انظر الديباج (ص:186)، والدرر الكامنة (1/ 48)، ونيل الابتهاج (ص:33).
2 - انظر شذرات الذهب (7/ 19)، وبغية الوعاة (1/230)، وإنباء الغمر (4/ 179 - 181)، وشجرة النور (1/ 223).
3 - انظر الضوء اللامع (3/219)، ونيل الابتهاج (ص:147)، وتوشيح الديباج (ص:83).
4- الإسحاقي نسبة لمحلة إسحاق بالغربية بمصر.
5 - انظر الضوء اللامع (8/ 150)، والدرر الكامنة (2/ 86)، ومعجم المؤلفين (10/ 287 - 288).
6 - انظر الضوء اللامع (1/)، وشذرات الذهب (7/ 105).

المدينة فجاور بها معتنيا بالتدريس والإفادة والعبادة، إلى أن مات بها في صفر سنة 818 هـ عن ستين سنة[1].

8 ـ عبد الله بن مقداد بن إسماعيل جمال الدين الأقفهسي ثم القاهري، القاضي الفقيه المالكي، انتهت إليه رئاسة المذهب والفتوى بمصر بعد شيخه خليل، وشرح المختصر في ثلاثة مجلدات، توفي رحمه الله سنة 823هـ[2].

9 ـ يوسف بن خالد بن نعيم بن مقدم بن محمد بن حسن بن علَيم بن محمد بن علي جمال الدين البساطي المالكي، تفقه على أخيه، وعلى شيخ المذهب خليل بن إسحاق وشرح مختصره، ولد في حدود الأربعين وسبعمائة، وتوفي رحمه الله سنة 829 هـ[3].

10 ـ حسين بن علي بن سبع البُوصِيرِيُّ القاهري المالكي، بدر الدين وشرف الدين أبو علي، المتوفى سنة 838 هـ، كان من الطلبة بالشيخونية، وكان يذكر أنه حضر مجلس الشيخ خليل[4].

ثالثا: مصنفاته.

1 ـ المختصر في فروع الفقه المالكي.

2 ـ التوضيح في شرح المختصر الفرعي لابن الحاجب في فروع المالكية المسمى جامع الأمهات، انتقاه من شرح ابن عبد السلام وأضاف عليه عزو الأقوال، وإيضاح ما فيه من الإشكال[5].

هو أيضا ينبئ عن رسوخ قدمه في الفقه وغزارة علمه.

---

1 - انظر الضوء اللامع (3/ 182)، وإنباء الغمر (7/ 196)، ونيل الابتهاج (ص:174)، وتوشيح الديباج (ص: 112)، وشذرات الذهب (7/ 132).

2 - انظر الضوء اللامع (5/ 71)، وإنباء الغمر (7/ 396)، ونيل الابتهاج (ص:229)، وتوشيح الديباج (ص: 112).

3 - انظر الضوء اللامع (10/249)، ونيل الابتهاج (ص: 628)، وتوشيح الديباج (ص: 259).

4 - انظر الضوء اللامع (1/)، وشذرات الذهب (7/ 227)، وإنباء الغمر (8/ 362).

5 - انظر الديباج (ص:186)، والدرر الكامنة (2/ 86)، وكشف الظنون (1/ 408).

قال ابن فرحون: «ألف شرح جامع الأمهات لابن الحاجب شرحا حسنا وضع الله عليه القبول وعكف الناس على تحصيله ومطالعته وسماه التوضيح»[1].

3 ـ مناسك الحج[2]، وهو من كتبه المطبوعة.

وقد شرحه الحطاب كما أشار إلى ذلك في شرحه للمختصر في موضعين.

4 ـ شرح على المدونة لم يكمله، وصل فيه إلى باب الحج، سماه التبيين[3].

5 ـ مناقب الشيخ عبد الله المنوفي[4].

6 ـ شرح على ألفية ابن مالك في اللسان العربي[5].

الفصل الثاني : التعريف بمختصر خليل

المبحث الأول : معنى الاختصار وأسبابه وعيوبه

المطلب الأول : معنى الاختصار وأسبابه

معنى الاختصار لغة.: قال في لسان العرب: «اخْتِصارُ الكلام إيجازه، والاختصار في الكلام أن تدع الفضول وتَسْتَوْجِزَ الذي يأْتي على المَعنى، وكذلك الاختصارِ في الطريق، والاختصار فِي الجَزِّ أَن لا تستأْصله، والاختصارُ حذفُ الفضول من كل شيء»[6]. وقال في المصباح المنير: «وحقيقته الاقتصار على تقليل اللفظ دون المعنى»[7]. ونفس المعنى جاء في القواميس الأخرى كالقاموس المحيط وغيره[8]. وعليه فإن الاختصار

1 - الديباج (ص: 186).
2 - انظر الديباج (ص:186)، وتوشيح الديباج (ص: 92)، وهدية العارفين (5/ 352).
3 - انظر توشيح الديباج (ص:94)، ومعجم المؤلفين (4/ 114)، وكشف الظنون (1/ 408).
4 - انظر الدرر الكامنة (2/ 86)، ونيل الابتهاج (ص:169).
5 - انظر درة الحجال (ص:133).
6 - لسان العرب (4/ 240).
7 - المصباح المنير (ص: 105).
8 - انظر مادة: خصر، في معجم العين (4/ 182)، والقاموس المحيط (2/ 21).

إيجاز اللفظ واستيفاء المعنى. وعرفه أبو البقاء في كتاب الكليات بأنه «تقليل المباني مع إبقاء المعاني»[1]. والمختصر مفرد جمعه مختصرات، ويرادفه الموجز. وفيه تفسيران:

الأول : هو ما قل لفظه وكثر معناه.

والثاني : هو ما قل لفظه سواء كثر معناه أو لا.

ويقابله المطول والمبسوط، وجمعه مطولات ومبسوطات، وفيه تفسيران أيضا:

أحدهما : وهو ما كثر لفظه ومعناه.

والثاني : هو ما كثر لفظه سواء كثر معناه أو قل.

ومن عرف المختصر الخليلي تبين له أنه على قلة لفظه ووجازة عبارته قد كثرت معانيه واستوفيت.

أسباب الاختصار: هناك عدة أسباب للاختصار منها:

أولا: تسهيل الحفظ.

وهو من أهم أسباب الاختصار، فقد اهتم العلماء في مختلف التخصصات بتأليف كتب مختصرة ليسهل على المبتدئين حفظها، لأن حفظ المختصر أيسر وأسهل وأهون على النفوس من حفظ المطول.

وفي هذا المعنى يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي: «يُطَوَّلُ الكَلَامُ وَيُكْثَرُ لِيُفْهَمَ، وَيُوجَزْ ويُخْتَصرُ لِيُحْفَظَ»[2]. وسئل أبو عمرو بن العلاء: «هل كانت العرب تطيل؟ فقال: نعم ليسمع منها، قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها»[3]. وحفظ المختصرات يعين العلماء والطلبة على سرعة استحضار المسائل. فقد أوضح حاجي خليفة في كشف الظنون أنواع المؤلفات وبين القصد منها فقال: « وهي تنحصر من جهة المقدار في ثلاثة أصناف:

1 - كتاب الكليات لأبى البقاء الكفومي (ص: 71)
2 - انظر العمدة لابن رشيق (1/ 186).
3 - نفس المرجع (1/ 186).

الأول: مختصرات تجعل تذكرة لرءوس مسائل ينتفع بها المنتهي للاستحضار، وربما أفادت بعض المبتدئين الأذكياء بسرعة هجومهم على المعاني من العبارات الدقيقة.

الثاني: مبسوطات تقابل المختصرات، وهذه يُنْتَفَعُ بها للمطالعة .

الثالث: متوسطات، وهذه نفعها عام»[1].

ثانيا: تسهيل تدريسها.

كان من أهداف الاختصار ربح الوقت وتوفير الجهد في التدريس، إذ يستطيع العالم تدريس الكتاب في وقت يسير.

ثالثا: خشية السآمة والملل: فقد صنفوا المختصرات لئلا يحصل الملل بالإطالة، لأن الكتب المطولة تأخذ وقتا طويلا، وينسي آخرها أولها، والنفس تمل من الإطالة والإطناب وتكره الاستطراد والإسهاب. فهذا يحيى بن أكثم كان من أئمة أهل العلم متقدما في العلوم وكانت كتبه في الفقه أجل كتب فتركها الناس لطولها[2]. ولا يخفى على أحد أن من أسباب إخفاق الطالب في درسه الملل. فقد قال الشافعي رضي الله عنه: «آفة المتعلم الملل في قلة صبره على الدرس»[3].

المطلب الثاني : عيوب الاختصار:لا تخلو المختصرات من عيوب، وخاصة إذا اشتد الاختصار، فربما التبس المعنى على من لا فهم له وخفي على الفقيه الفطن وتحير في أمره وتردد. ولهذا انتقد ابن خلدون طريقة المختصرات فقال: «وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم كما سيأتي. ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن ألفاظ المختصرات نجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت.

1 - كشف الظنون (/).
2 - انظر تاريخ بغداد (14/ 200)، وتاريخ دمشق (64/ 72).
3 - انظر البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (/).

ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة»[1].

وانتقدها أيضا المقري فقال: «ثم كل أهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والأصول الكبار فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حفظه وأفنوا أعمارهم في حل لغوزه وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح فضلا في حل لغوزه وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح، بل هو حل مقفل وفهم أمر مجمل، وطالعة تقييدات زعموا أنها تستنهض النفوس، فبينما نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ أتيحت لنا تقييدات للجهلة بل مسودات الموسوخ، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[2].

ويمكننا أن نلخص عيوب المختصرات فيما يأتي:

1 ـ غموض كلماتها وصعوبة ألفاظها، مما ينجم عنه تضييع الأوقات في البحث عن معناها والكشف عن المراد منها، وربما كانت سببا في بعث الملل عند الطالب فينصرف عن التعليم.

2 ـ اختصار الأقوال اختصارا مخلا يضيع معه المعنى ويجعله عرضة للتأويلات المختلفة والتفسيرات الكثيرة.

3 ـ إهمال الأقوال، لأن المُخْتَصِرْ قد يكتفي بنقل قول واحد فقط، وقد يختار بعضها ويترك أخرى، وربما كان المتروك أهم من المذكور، وتضيع بذلك على الطلبة فائدة كبيرة.

4 ـ عرض الآراء مجردة من غير دليل شرعي، فلا تكون للطالب معرفة كافية بأدلة الفقهاء التي استدلوا بها في تلك المسائل.

---

1 - المقدمة (ص:).

2 - نفح الطيب (5/ 276 - 277).

5 ـ حرمان الطالب من معرفة المناقشات والاعتراضات، وما يرد على الأقوال من إشكالات، وهو ما يفوت عليه فرصة التفقه الكامل، ولا تتكون لديه ملكة فقهية يستطيع بها النظر والاستنباط أو تفريع المسائل وتنزيل النصوص على الوقائع المستجدة.

المبحث الثاني : دراسة في المختصر الخليلي

المطلب الأول : الهدف من تأليفه وعدد مسائله ومصادره

كتاب المختصر جليل القدر عظيم الشأن من أفضل كتب المذهب وأجمعها، جمع فيه الشيخ مادة فقهية كبيرة، واحتوى على مسائل كثيرة وفروع عديدة مما عليه الفتوى في المذهب، فحاز القبول والرضا لدى العلماء والطلبة وأقبلوا عليه ينهلون من مورده الزلال الرقراق، ويكرعون من معينه العذب الفياض، وأصبح عمدة في الفقه المالكي منذ تأليفه إلى يومنا هذا.

أولا: الهدف من تأليف المختصر: كانت غايته من وضع المختصر التنبيه على ما به الفتوى في المذهب المالكي. وعن هذا الهدف قال في مقدمة المختصر: «فقد سألني جماعة أبان الله لي ولهم معالم التحقيق وسلك بنا وبهم أنفع طريق مختصرا على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى، مبينا لما به الفتوى، فأجبت سؤالهم بعد الاستخارة»[1]. وعن ذلك أيضا عبر ابن فرحون وهو واحد ممن لقي الشيخ خليلا واجتمع به في القاهرة وجالسه وحضر تدريسه فقال: «ألف مختصرا في المذهب قصد فيه إلى بيان المشهور مجردا عن الخلاف، وجمع فيه فروعا كثيرة جدا مع الإيجاز البليغ، وأقبل عليه الطلبة ودرسوه»[2].

ثانيا : عدد مسائل المختصر : قال الإمام الحطاب : « قد حوى (أربعمائة ألف) مسألة فقهيَّة، وصارَ هو العمدة عند المالكيَّة منذ تأليفه حتى الآن»[3].

1 - مختصر خليل (ص: 7).
2 - الديباج المذهب (ص: 186).
3 - مواهب الجليل (1/).

وقال العلامة: محمد الحجوي: «قالوا: حوى (مائة ألف) مسألة منطوقة، ومثلها مفهومة، وإنَّما ذلك تقريب، وإلا ففيه أكثر من ذلك بكثير»[1].

ثالثا : مصادر الشيخ خليل في المختصر: اعتمد خليل في مختصره على أهم مصادر الفقه المالكي، وجمع فيه زبدة ما جاء فيها، وقد أشار هو بنفسه في مقدمة مختصره إلى ذلك فقال: «مشيرا بفيها للمدونة، وبأول إلى اختلاف شارحيها في فهمها، وبالاختيار للخمي، لكن إن كان بصيغة الفعل فذلك لاختياره هو في نفسه، وبالاسم فذلك لاختياره من الخلاف، وبالترجيح لابن يونس كذلك، وبالظهور لابن رشد كذلك، وبالقول للمازري كذلك، وحيث قلت: خلاف، فذلك للاختلاف في التشهير، وحيث ذكرت قولين أو أقوالا فذلك لعدم اطلاعي في الفرع على أرجحية منصوصة»[2].

وكلامه يدل على إطلاعه الواسع لأمهات الفقه المالكي وكثرة إحاطته بها.

أولا : المدونة.

ثانيا : شروح المدونة.

ثالثا : كتاب التبصرة للخمي وهو تعليق كبير وشرح مستفيض لكتاب المدونة.

رابع ا: كتاب الجامع لابن يونس.

خامسا : كتب ابن رشد.

سادسا : كتب المازري.

كما نص على ذلك في مقدمته وكان يقدم اللخمي على ابن رشد عند الاختلاف، بخلاف ابن عرفه كما ذكر الحجوي في الفكر السامي حيث قال ان ابن عرفه يقدم ابن رشد على اللخمي عند الاختلاف.

1 - الفكر السامي (ص:).
2 - مختصر خليل (ص: 7).

المطلب الثاني: أهمية المختصر ومآخذه

أولا: أهمية المختصر.

مكث الشيخ خليل في تأليف مختصره عشرين سنة[1]، وقد بيضه في حياته إلى باب النكاح، وجمع أصحابه باقيه من المسودة[2]. وهو يمثل حلقة استقرار في الفقه المالكي، وهذا ما قصده ابن ناجي حين قال: «ولم يزل يختلف حتى ورد علينا تأليف خليل»[3]. ولقد حُكِيَ عن العلامة ناصر الدين اللقاني أنّه حيث عورض كلام خليل بكلام غيره كان يقول: «نحن أناس خليليون، إن ضلّ ضللنا»، مبالغة في الحرص على متابعته[4]. ومراده من هذا الكلام أن الآراء قد اختلفت والأقوال تشعبت والطرق تعددت فكان لابد من ضابط يضبطها ومحقق يوازن بينها ومتقن يهذبها ويرتبها، فجاء خليل ليقوم بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمل حال، فوازن بين الروايات والأقوال وميز جيدها من ضعيفها وبيّن مشهورها من شاذها، وقدّم بذلك خدمة جليلة للمذهب المالكي.

وقد بالغ الشيخ ابن غازي في مدح المختصر فقال: «إنه من أفضل نفائس الأعلاق، وأحق ما رمق بالأحداق وصرفت له همم الحذاق، إذ هو عظيم الجدوى بليغ الفحوى، بيّن ما فيه الفتوى، وما هو المرجح الأقوى، قد جمع مع الاختصار شدة الضبط والتهذيب وأظهر الاقتدار على حسن المساق والترتيب، فما نسج أحد على منواله ولا سمحت قريحة بمثاله»[5].

وقال الحطاب يصف مختصر خليل: «وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ الْمُخْتَصَرَاتِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ مُخْتَصَرُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ وَلِيِّ اللَّهِ تَعَالَى خَلِيلِ بْنِ إِسْحَاقَ الَّذِي أَوْضَحَ بِهِ الْمَسَالِكَ إذْ هُوَ كِتَابٌ صَغُرَ حَجْمُهُ وَكَثُرَ عِلْمُهُ وَجَمَعَ فَأَوْعَى وَفَاقَ أَضْرَابَهُ جِنْسًا وَنَوْعًا وَاخْتَصَّ بِتَبْيِينِ مَا بِهِ الْفَتْوَى وَمَا هُوَ

1 - انظر منح الجليل (1/ 13).
2 - انظر نيل الابتهاج (ص: 172).
3 - انظر توشيح الديباج (ص: 94).
4 - انظر نيل الابتهاج (ص: 171)، وتوشيح الديباج (ص: 96).
5 - انظر نيل الابتهاج (ص: 171)، وتوشيح الديباج (ص: 96).

الْأَرْجَحُ وَالْأَقْوَى وَلَمْ تَسْمَحْ قَرِيحَةٌ بِمِثَالِهِ وَلَمْ يَنْسِجْ نَاسِجٌ عَلَى مِنْوَالِهِ»[1].

ويمكن أن نجمل أهمية المختصر في النقاط التالية:

1 ـ تقريب المذهب لطلبة العلم وذلك بعرض المسائل الفقهية، لأن المختصرات تجمع في الباب الواحد ما هو مفرق في المطولات، ومن درسه يكون قد اطلع على فروع المذهب وأحاط بمسائله.

2 ـ جمع المادة الفقهية، إذ هو على صغر حجمه قد اشتمل على كثير من المسائل قدرها الأئمة بأربعين ألف مسألة.

3 ـ تقرير الأقوال المعتمدة في المذهب وما به الفتوى.

يقول الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي: «ويعتبر متن العلامة الشيخ خليل ومدرسته من الشراح الكثيرين الذين شرحوه هو المعتمد عند المالكية في تحرير الأقوال والروايات وبيان الراجح منها»[2].

4 ـ اعتماده مصدرا للحكم ومرجعية في القضاء وفض النزاعات.

فقد كان المختصر لقرون من الزمن وإلى عهد قريب مرجعا للقضاة في المغرب الإسلامي، يرجعون إليه في أقضيتهم ويأخذون منه أحكامهم ويتقيدون به في فضّ النزاعات بين المتخاصمين. وشاع بين العامة عندنا في الجزائر قولهم: «شرع سيدي خليل»، لأنه كان بمثابة مواد قانونية يتحاكم الناس إليها. يقول الحجوي عن قيمة المختصر: «ديوان وأي ديوان من دواوين المالكية العظام للفتاوى والأحكام»[3].

ثانيا: مآخذ المختصر.

1 ـ دقةُ عباراته وغموضُ المعنى في جمله حتى إنَّ بعضها كادت تكون كالألغاز لا يعلمها إلاّ الحذاق من المشتغلين بالفقه. وهو كما قال حاجي خليفة عن مختصر ابن الحاجب: «وهو مختصرٌ غريبٌ في صنعِهِ، بديعٌ في

1 - مواهب الجليل (1/ 2).
2 - الفقه الإسلامي وأدلته (1/ 58).
3 - الفكر السامي (ص: 706).

فنِّهِ، لغاية إيجازهِ يضاهي الألغازَ»[1]. وقد عبر الشيخ الحطَّاب عن ذلك بعد ثنائه عليه فقال: «إلا أنَّه لفرط الإيجاز، كاد يُعَد من جملةِ الألغاز»[2]. وقال محمد الحجوي: «ثم جاء خليل في أواسط [القرن] الثامن واختصره [أي مختصر البراذعي للمدونة]، وهناك بلغ الاختصار غايته، لأنَّ مختصر خليل مختصرُ مختصرِ المختصر، وإنْ أخل بالفصاحة، وكاد جل عباراته أنْ يكون لغزًا.

وفكرتهم هذه مبنية على مقصدين وهما :

- تقليل الألفاظ تيسيرًا على الحفظ.

- وجمع ما هو في كتب المذهب من الفروع، ليكون أجمع للمسائل.

وكلٌّ منها له مقصدٌ حسنٌ، لولا حصول المبالغة في الاختصار التي نشأت عنها أضرار. فمنها: أنَّ اللغة لنا فيه مترادفات متفاوتة المعنى، وفيها المشترك، والتراكيب ذات الوجهين والوجوه، مع حدوث لغة ثانية وهي مصطلحات شرعيَّة وعربيَّة، فأصبحت الجملة الواحدة تحتمل احتمالات، فلما اختصروا أحالوا أشياء عما قُصِدَ بها، وتغيَّرت مسائل عن موضعها.

ومنها: أنَّهم لما أغرقوا في الاختصار، صار لفظ المتن مغلقًا لا يُفْهم إلا بواسطة الشُّرَّاح، أو الشروح، والحواشي، ففات المقصود الذي لأجله وقع الاختصار، وهو جمعُ الأسفارِ في سفرٍ واحدٍ، وتقريبُ المسافةِ وتخفيفُ المشاقِّ، وتكثيرُ العِلْم وتقليلُ الزَّمَنِ، بل انعكس الأمرُ، إذ كثرت المشاق في فتح الأغلاق، وضَاعِ الزَّمَنُ من غيْرِ ثمنٍ»[3]. ونظرا للإيجاز المفرط احتاج المختصر إلى حلِّ عباراته الغامضة وفكّ رموزه المعقدة وتوضيح مشكلاته، فألفت حوله الكثير من الشروح والحواشي ووضعت له العشرات من التعليقات والتقارير. وصار الباحث نهيك عن الطالب المبتدئ في حاجة إلى الشروح والمزيد من الحواشي لفكّ الرموز وإزالة الغموض. ولو تأملنا

1 - كشف الظنون (2/ 1853).
2 - مواهب الجليل (1/ 3).
3 - الفكر السامي (ص: 703 - 704).

في كتب المتقدمين لوجدنا كلماتها واضحة وعباراتها سهلة ومعانيها دقيقة وعميقة، وما علينا إلا أن نرجع إلى المدونة ونقلب النظر فيها لنكتشف ما قلناه ونتلمس فيها فقها ثريا وعلما غزيرا بأسلوب ميسر يستطيع القارئ البسيط فهم الكثير من عباراتها والاستفادة منها.

يقول العلامة الحجوي: «المدونة فيها ثلاثة أسفار ضخام مفهومة بنفسها لا تحتاج إلى شرح في الغالب، لكن خليل لا يمكننا أن نفهمه ونثق بما فهمناه منه إلا بستة أسفار للخرشي وثمانية للزرقاني وثمانية للرهوني»[1].

المبحث الثالث : منهجية الشيخ خليل في مختصره

المطلب الأول : تقسيم الكتاب وترتيب موضوعاته

تقسيم الكتاب : قسم كتابه إلى مقدمة وأبواب، وجعل في بعض الأبواب فصولا.

أما المقدمة فبدأها بالبسملة والحمد والثناء على الله تعالى، ثم ذكر البواعث التي دفعته إلى تأليف الكتاب، وبين فيها منهجه فيه. وأما الأبواب ففرقها على الموضوعات الفقهية من عبادات ومعاملات، فبلغ عدد الأبواب التي عقدها اثنين وستين بابا، منها ثلاثة عشر بابا في العبادات والباقي في المعاملات.

وبلغ عدد الفصول داخل الأبواب ثلاثة وستين فصلا، وقد اشملت بعض الأبواب على فصول كثيرة، وبعضها ضمنه فصلا واحدا أو اثنين، وخلت معظم الأبواب من الفصول.

فجاء الكتاب مقسما كالآتي :

مقدمة.

باب [في أحكام الطهارة وما يناسبهما]

1 - الفكر السامي (ص: 705).

باب في أحكام الصلاة.
بيان أوقات الصلوات الخمس.
فصل في الأذان والإقامة ومايتعلق بها
فصل في شروط صحة الصلاة: طهارة الحدث والخبث.
فصل في ستر العورة وصفة الساتر.
فصل في استقبال القبلة وما يتعلق به
فصل في فرائض الصلاة وسننها ومندوباتها ومكروهاتها
فصل في القيام وبدله ومراتبهما
فصل في قضاء الفائتة مطلقا
فصل في حكم سجود السهو وما يتعلق به
فصل في سجود التلاوة
فصل في بيان صلاة النافلة وحكمها
فصل في صلاة الجماعة وما يتصل بها من أحكام
فصل في أحكام الاستخلاف.
فصل في أحكام صلاة السفر
فصل في صلاة الجمعة
فصل في صلاة الخوف
فصل في صلاة العيد
فصل في حكم صلاة الكسوف والخسوف
فصل في صلاة الاستسقاء
فصل في صلاة الجنازة وما يتعلق بالميت
باب أحكام الزكاة
فصل في مصرف الزكاة
فصل في زكاة الفطر
باب أحكام الصيام
فصل في حكم الاعتكاف
باب في أحكام كتاب الحج والعمرة
فصل في محظورات الإحرام

فصل في موانع الحج والعمرة بعد الإحرام.
باب في الذكاة
فصل فيما يباح من الأطعمة والأشربة
باب في حكم الأضحية والعقيقة
باب في اليمين
فصل في النذر
باب في أحكام الجهاد
فصل في الجزية وأحكامها
باب في أحكام المسابقة المعينة على الجهاد.
باب في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم
باب في أحكام النكاح وما يتبعه
فصل في الخيار لأحد الزوجين
فصل في خيار الأمة
فصل في الصداق وأحكامه
فصل في بيان أحكام تنازع الزوجين
فصل في الوليمة
فصل في بيان القسم للزوجات وما يناسبه
باب في الخلع وما يتعلق به
فصل في أركان الطلاق
فصل في أحكام الإستنابة على الطلاق وأنواعها
فصل في أحكام الرجعة
باب في الإيلاء وما يتعلق به
باب في الظهار وأحكامه وما يتعلق به
باب في أحكام اللعان وما يتعلق به
باب في العدة
فصل في مسائل زوجة المفقود
فصل في أحكام الاستبراء
فصل في بيان أحكام تداخل العدة والاستبراء.

باب في أحكام الرضاع
باب في النفقة بالنكاح والملك والقرابة
فصل في النفقة الرقيق والدابة والقريب وخادمه والحضانة.
باب في أحكام: البيع شروط الصحة واللزوم.
فصل في بيان ما يحرم فيه ربا الفضل والنساء من الطعام ومتعلقاته
فصل في بيع الآجال وأحكامه
فصل في بيان العينة وأحكامه
فصل في البيع بشرط الخيار
فصل في أحكام المرابحة
فصل في بيان ما يتناوله البيع وما لا يتناوله
فصل في أحكام اختلاف المتبايعين
باب في بيان أحكام السلم
فصل في بيان أحكام القرض ومتعلقاته
فصل في بيان المقاصة
باب في أحكام الرهن
باب في بيان أحكام إحاطة الدين بمال المدين والتفليس
باب في بيان أسباب الحجر وأحكامه ومتعلقاته
باب في بيان أحكام أقسام الصلح
باب في بيان شروط الحوالة ومتعلقاتها
باب في بيان الضمان وأقسامه
باب في بيان حقيقة الشركة وأقسامها وأحكامها
فصل في بيان أحكام الشركة في الزرع
باب في أحكام الوكالة
باب في بيان أحكام الإقرار
فصل في بيان أحكام الاستلحاق
باب في بيان أحكام الوديعة ومتعلقاتها
باب في بيان أحكام العارية
باب في بيان حقيقة الغصب وأحكامه وما يتعلق به

فصل في بيان أحكام الاستحقاق
باب في حقيقة الشفعة وأحكامها
باب في أحكام القسمة ومتعلقاتها
باب في بيان أحكام القراض
باب في بيان أحكام المساقاة
باب في أحكام المغارسة
باب في أحكام الإجارة والكراء
فصل في أحكام كراء الدواب
فصل في أحكام كراء الحمام والدار والأرض وما يناسبها
باب في أحكام الجعل وما يتعلق به
باب في بيان إحياء الموات
باب في بيان أحكام الوقف
باب في أحكام الهبة ومتعلقاتها
باب في اللقطة والضالة والآبق واللقيط
باب في شروط القضاء وأحكامه
باب في أحكام الشهادة
باب في أحكام الدماء والقصاص وما يتعلق بذلك
باب في بيان حد الباغية وأحكامها
باب في بيان حقيقة الردة وأحكامها
باب في حد الزنا ومتعلقاته
باب في بيان أحكام القذف
باب في أحكام السرقة وما يتعلق بها
باب في بيان حقيقة المحارب وأحكامه
باب في بيان حد شارب الخمر
باب في بيان أحكام الإعتاق ومتعلقاته
باب في بيان حقيقة التدبير وأحكامه
باب في بيان أحكام الكتابة والمكاتب

باب في بيان أحكام أم الولد
فصل في بيان أحكام الولاء
باب في بيان أحكام الوصية
باب في بيان الفرائض

ترتيب موضوعات الكتاب.

رتب كتابه على الأبواب الفقهية المعروفة، ليسهل الكشف عليها والرجوع إليها.

وقد راعى في ذلك ترتيب فقهاء أهل المذهب، وخاصة طريقة الفقيه أبي عمرو ابن الحاجب في مختصره جامع الأمهات، فكان أولها باب الطهارة وختمه بباب الفرائض وهو نهاية الكتاب، وجعل عقب بعض الأبواب فصولا أو فصلا واحدا أو فصلين، بينما خلت معظم الأبواب الأخرى من الفصول.

الأبواب الناقصة في المختصر.

نقل العدوي عن الخرشي أنه قال في شرحه الكبير: «ونقل بعضهم عن الشيخ الفقيه الفاضل ناصر الدين الإسحاقي المصري وهو من أصحاب المؤلف أن هذا المختصر إنما لخص منه في حال حياته إلى النكاح، وباقيه وجد في تركته مفرقا في أوراق مسودة، فجمعه أصحابه وضموه إلى ما لخص فكمل ونفع الله به»[1].

وقد أكمل تلاميذه من بعده ما تركه من بياض وأتموا الأبواب الناقصة، وذلك كالآتي:

1 ـ باب المقاصة، فقد ترك الشيخ بعد فصل القرض بياضا ثم ذكر بعده باب الرهن، فألف تلميذه الشيخ تاج الدين بهرام بن عبد الله الدميري رحمه الله تعالى فصل المقاصة.

قال بهرام: «اعلم أن عادة الأشياخ في الغالب أن يذيلوا هذا الباب (أي

1 - انظر حاشية العدوي على شرح الخرشي (1/ 53).

باب القرض) بذكر المقاصة، والشيخ رحمه الله تعالى لم يتعرض لذلك فأردت أن أذكر شيئا منها ليكون تتميما لغرض الناظر»[1].

2 ـ وكمل الشيخ جمال الدين عبد الله بن مِقداد الأقفهسي[2] المتوفي سنة (823هـ) جملة يسيرة ترك المصنف لها بياضا، وقد تفقه الأقفهسي بالشيخ خليل وشرح مختصر الشيخ خليل في ثلاث مجلدات، وتوفي رحمه الله تعالى في رمضان سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة.

ومن أمثلة ذلك ما وُجِدَ في أصل خليل في باب الغصب «وَإِنْ ادَّعَتْ اسْتِكْرَاهًا»، وبعده بياض، فكمله الأقفهسي بخطه فقال: «عَلَى غَيْرِ لَائِقٍ بِلَا تَعَلُّقٍ حُدَّتْ لَهُ».

3 ـ ولم يعقد خليل للمغارسة فصلا، فألف الشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي التعريج والتبريج في أحكام المغارسة والتصيير والتوليج.

وقد قال في مقدمته: «لما كان باب المغارسة مما ينبغي للمؤلفين المختصرين التعرض له، وذكر أحكام المغارسة ومسائلها فيه، ولكنهم لم يفعلوا، ولما ذكر لم يتعرضوا، ولا أدري ما قصدهم بذلك، ولا ما أرادوه هنا لك، وعنيت بمن أشرت إليه الشيخ الإمام العالم العلامة القدوة الكامل أبو عمرو عثمان بن الحاجب والشيخ الفاضل والأسوة الكامل خليل بن إسحاق رحمهما الله تعالى ونفعنا بهما وبأمثالهما ولا حاد بنا عن طريقهما ونهجهما وكان بعض شيوخنا أعلى الله تعالى مقامه ورفع في الدارين ذروته وسنامه، كتب إلي أن أكتب بعض مسائلها، وما يصح منها، وما يترتب على فاسدها، فكتبت إليه في ذلك بعض ما حضرني، ثم طلب مني بعض إخواني من الطلبة، ورغب إلي بعض أحبابي من أهل النِّسْبَةِ، أن أجمع في الباب مسائل جمة، وأن أذكر فيه أحكاما مهمة، هذا مع ما عُلِمَ من جهلي وقصوري وبُعْدِي عن طريق الحق بالكلية وتقصيري، لكن لما رأيت من تأكيد طلبتهم، وحثيث رغبتهم أسعفتهم لما طلبوا، وأجبتهم لما فيه رغبوا، رجاء فيما عند الله تعالى من الثواب الجزيل، واتقاء لما عنده من العذاب الجليل، نسأله

1 ـ انظر منح الجليل (5/ 410).
2 ـ نسبة الى اقفهس من عمل البهنسا بمصر.

سبحانه وتعالى أن يمن علينا بتوبة نصوح، بحيث لا يبقى معها إلى المخالفة ميل ولا جنوح، وأن يصحبنا بعونه، ويكون معنا دائما بلطفه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ثم إني رأيت أن أذكر ما حضر لي في هذا الباب من جملة الأحكام التي اختطفتها من غير ما كتاب على طريقة الشيخ خليل في مختصره في اصطلاحه ومحاذاة عباراته، ثم اتبعه إن شاء الله تعالى بذكر ما حضر كالشرح لتلك الألفاظ والبيان، لما فيها من مقاصد وأغراض، ونسأل الله تعالى التوفيق للصواب، وأن يسلك بنا الزلفى وحسن مآب، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله والأصحاب».

المطلب الثاني: اصطلاحات خليل في مختصره. قد بين خليل في مقدمة مختصره اصطلاحه ليعلم الفقهاء وطلبة العلم مقاصده، ويجنب من لا دراية له بالفقه ولا علم له بمصطلحات الفقهاء سوء الفهم وتحميل الكلام ما لا يحتمل، فقال رحمه الله في صدر كتابه: «وَبَعْدُ: فَقَدْ سَأَلَنِي جَمَاعَةٌ أَبَانَ اللهُ لِي وَلَهُمْ مَعَالِمَ التَّحْقِيقِ، وَسَلَكَ بِنَا وَبِهِمْ أَنْفَعَ طَرِيقٍ، مُخْتَصَرًا عَلَى مَذْهَبِ الإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، مُبَيِّنًا لِمَا بِهِ الفَتْوَى، فَأَجَبْتُ سُؤَالَهُمْ بَعْدَ الاسْتِخَارَةِ. مُشِيرًا بِـ (فِيهَا) لِلْمُدَوَّنَةِ. وَبِـ (أُوِّلَ) إِلَى اخْتِلاَفِ شَارِحِيهَا فِي فَهْمِهَا. وَبِـ (الاخْتِيَارِ) لِلَّخْمِيِّ، لَكِنْ إِنْ كَانَ بِصِيغَةِ الفِعْلِ فَذَلِكَ لاخْتِيَارِهِ هُوَ فِي نَفْسِهِ، وَبِالاسْمِ فَذَلِكَ لاخْتِيَارِهِ مِنَ الخِلاَفِ. وَبِـ (التَّرْجِيحِ) لابْنِ يُونُسَ كَذَلِكَ. وَبِـ (الظُّهُورِ) لابْنِ رُشْدٍ كَذَلِكَ. وَبِـ (القَوْلِ) لِلْمَازَرِيِّ كَذَلِكَ. وَحَيْثُ قُلْت: (خِلاَفٌ) فَذَلِكَ لِلاخْتِلاَفِ فِي التَّشْهِيرِ.

وَحَيْثُ ذَكَرْتُ (قَوْلَيْنِ) أَوْ (أَقْوَالاً) فَذَلِكَ لِعَدَمِ اطِّلاَعِي فِي الفَرْعِ عَلَى أَرْجَحِيَّةٍ مَنْصُوصَةٍ.

وَأَعْتَبِرُ مِنْ الْمَفَاهِيمِ مَفْهُومَ الشَّرْطِ فَقَطْ. وَأُشِيرُ بِـ (لَوْ) إِلَى خِلاَفٍ مَذْهَبِيٍّ. وَأُشِيرُ بِـ (صُحِّحَ) أَوْ (اُسْتُحْسِنَ) إِلَى أَنَّ شَيْخًا غَيْرَ الَّذِينَ قَدَّمْتُهُمْ صَحَّحَ هَذَا أَوْ اسْتَظْهَرَهُ. وَبِـ (التَّرَدُّدِ) لِتَرَدُّدِ المُتَأَخِّرِينَ فِي النَّقْلِ أَوْ لِعَدَمِ

نَصٌّ لِلْمُتَقَدِّمِينَ»[1]. وسنحاول أن نوضح هذه المصطلحات ليسهل على قراء المختصر فهمه والاستفادة منه.

أولا : التعبير بـ (فيها) إشارة إلى المدونة. ويشير أيضا إلى المدونة بعبارات أخرى وهي: حُمِلَتْ، وقُيِّدَتْ، وظاهرها، وأقيم منها، وأولت.

ثانيا : (أُوِّلَ)، من عادته التعبير بـأُوِّلَ للإشارة إلى اختلاف شُرّاح المدونة في فهم المراد منها، نحو قوله: «فَإِذَا بَرِئَ غَسَلَ وَإِلَّا أَعَادَ فِي الوَقْتِ، وَأُوِّلَ بِالنِّسْيَانِ، وَبِالْإِطْلَاقِ»،

ثالثا : الاختيار، إشارة إلى اختيار أبي الحسن علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي. فإن كان التعبير عنه بصيغة الفعل الماضي كاختار فهو اختياره من عند نفسه لا من أقوال منصوصة لغيره، وإن كان بصيغة الاسم نحو المختار كذا فهو اختياره من الأقوال المنصوصة. قال الخرشي: «وخصه عمن ذكر معه بمادة الاختيار لأنه أجرؤهم على ذلك»[2].

رابعا : الترجيح، إشارة إلى ترجيح ابن يونس، فإن كان التعبير عنه بصيغة الفعل الماضي كرجح فهو ترجيحه من عند نفسه لا من أقوال منصوصة لغيره، وإن كان بصيغة الاسم نحو الأرجح كذا فهو ترجيحه من الأقوال المنصوصة.

خامسا : الظهور، إشارة إلى تظهير ابن رشد، فإن كان لما ظهر له أو رجحه أو اختاره من نفسه فيشير لذلك بصيغة الفعل الماضي كظهر، وإن كان من الأقوال الخلافية فيشير له بصيغة الاسم وهو الأظهر.

سادسا : القول، إشارة إلى قول المازري، فإن كان لما ظهره أو رجحه أو اختاره من رأيه فيشير له بصيغة الفعل الماضي كقال، وإن كان من أقوال المذهب فيشير له بصيغة الاسم وهو المقول.

قال الدسوقي :« وخص هؤلاء الأربعة بالذكر لأنه لم يقع لأحد من المتأخرين ما وقع لهم من التعب في تحرير المذهب وتهذيبه، وخص ابن يونس بالترجيح

1 - مختصر خليل (ص: 7 - 8).
2 - شرح الخرشي (1/).

لأن أكثر اجتهاده في الميل إلى بعض أقوال من سبقه وما يختاره لنفسه قليل، وخص ابن رشد بالظهور لاعتماده كثيرا على ظاهر الروايات، فيقول: يأتي على رواية كذا كذا وظاهر ما في سماع فلان كذا، وخص المازري بالقول لأنه لما قويت عارضته في العلوم وتصرف فيها تصرف المجتهدين كان صاحب قول يعتمد عليه، وخص اللخمي بمادة الاختيار لأنه كان أجرأهم على ذلك»[1].

سابعا: خلاف، إشارة للاختلاف الحاصل بين أئمة المذهب في التشهير للأقوال.

ومراده من قوله: «فِي التَّشْهِيرِ» الترجيح، سواء وقع منهم بلفظ التشهير أو بما يدل عليه كالمذهب كذا أو الراجح أو المعروف أو المعتمد كذا. وقد ذكر الشراح أن ما يذكره من الخلاف إن تساوى المشهرون في الرتبة عنده، فإن لم يتساو المرجحون اقتصر على ما رجحه الأقوى.

ثامنا : حكاية الأقوال من غير تشهير، كقوله: قولان، أو أقوال، وهو إشارة إلى الخلاف في المذهب ولم يجد من رجح قولا منها، أما لو وجد ترجيحا لأحد لاقتصر عليه، ولو وجد راجحية للكل لعبر بخلاف.

تاسعا : التعبير بحرف لو، للإشارة إلى خلاف داخل المذهب، نحو قوله: «وَالْبَحْرِيِّ وَلَوْ طَالَتْ حَيَاتُهُ بِبَرٍّ»، وقوله: «وَإِنْ شَكَّ فِي دُخُولِ الْوَقْتِ لَمْ تُجْزِ ، وَلَوْ وَقَعَتْ فِيهِ»، وقوله: «جَازَ مُرَابَحَةً وَالْأَحَبُّ خِلَافُهُ وَلَوْ عَلَى مُقَوَّمٍ».

عاشرا : صُحِّحَ أو اُسْتُحْسِنَ، إشارة إلى أن شيخا من مشايخ المذهب غير الأربعة الذين تقدموا قد صحح هذا القول أو استحسنه. وهل قوله: «أَنَّ شَيْخًا غَيْرَ الَّذِينَ قَدَّمْتُهُمْ صَحَّحَ هَذَا أَوْ اسْتَظْهَرَهُ» بمعنى واحد، أو أن معناه صَحَّحَه من الخلاف أو اسْتَظْهَرَهُ من عند نفسه، رأيان للشراح، والأقرب عند المحققين منهم الثاني.

1 - حاشية الدسوقي (1/ 22).

حادي عشر : التردد، إذا تردد المتأخرون. ومصطلح المتأخرين يطلق على ابن أبي زيد ومن جاء بعده. وقد يحصل التردد في أحد أمرين :

الأول : التردد في النقل عن المتقدمين، كأن ينقلوا عن مالك أو عن ابن القاسم في مكان حكما ثم ينقلوا عنه في مكان آخر خلافه، أو ينقل بعضهم عنه حكما وينقل عنه آخر خلافه. ويرجع هذا التردد إما لاختلاف قول الإمام في المسألة الوادة، كأن يكون له قولان أو أكثر، وإما لاختلاف أصحابه في فهم كلامه، فينسب له كل ما فهمه منه. ومثله أيضا نقل بعضهم عن المتقدمين أنهم على قول واحد في حكم المسألة، وينقل غيره أنهم على قولين فيه، وربما نقل غيرهما أنهم على أقوال.

الثاني : التردد في الحكم نفسه، وذلك لعدم نص المتقدمين عليه.

المبحث الثاني : اهتمام المالكية بمختصر خليل

المطلب الأول : العناية بالمختصر في مجال التدريس

لقد عكف المتأخرون من المالكية على متن ابن عاشر ورسالة ابن أبي زيد ومختصر خليل وأقبلوا عليها حفظا وفهما، وهذه المتون الثلاثة هي العمدة في بلاد المغرب كلها. وجرت العادة أن يبتدئ الطالب بابن عاشر ثم الرسالة ثم مختصر خليل، وبعد ذلك يتوسع في الكتب المطولة كالمدونة وغيرها. وكان اهتمامهم بالمختصر أكثر حتى صار العمدة عندهم في الفقه، وأصبح المعول عليه في الفتوى، واشتغلوا به تدريسا وحفظا وشرحا وتحشية ونظما، حتى أن جماعة لا تحصى من أئمة المعاهد وزوايا العلم وطلبتهم انكبوا عليه وتركوا ما سواه، لما وجدوه أكثر فائدة وأعم نفعا وأغزر فقها وأوسع تخريجا. كما أنه تُرْجِمَ إلى اللغة الفرنسيّة. يقول الشيخ النيفر : «يمثل آخر الخطوات في التأليف الفقهي في المذهب المالكي، حتى أن ما جاء بعده لم يخرج عن غراره». قال أحمد بابا التنبكتي: «ولقد وضع الله القبول على مختصره وتوضيحه من زمانه إلى الآن، فعكف الناس عليهما شرقا وغربا، حتّى لقد آل الحال في هذه الأزمنة المتأخرة إلى الاقتصار على المختصر

في هذه البلاد المغربية مراكش وفاس وغيرهما، فقلّ أن ترى أحدا يعتني بابن الحاجب فضلا عن المدّونة، بل قصاراهم الرسالة والمختصر، وذلك علامة من دروس العلم وذهابه»[1]. ويقول الحجوي في الفكر السامي: «فلا يستغنى عنه، ولا يترك، بل يدرس ويمرن عليه المنتهون ليستعينوا به في الفتوى والقضاء، للحاجة الداعية إليه، لجمعه من المسائل ما يندر أن يوجد في غيره، فربما تقع المسألة ولا توجد إلا فيه، مع تحريره المسائل، وإتقانه، وتبيينه للمشهور المعتمد من القولين أو الأقوال»[2].

المطلب الثاني : العناية بالمختصر شرحا ونظما

نظرا لكون الكتاب مختصرا كان بحاجة إلى شرح وتوضيح، لذلك كثرت حوله الشروح والحواشي والتقريرات، ونظمه جماعة من العلماء في آلاف الأبيات. وقد بلغت شروح المختصر التي وصلت إلينا مئات الشروح، وبلغت أيضا الحواشي على شروحه المئات. وفيما يلي ذكر لأهم شروح هذا الكتاب للمؤلفين الجزائريين:

1 ـ شرح العلامة المحقق الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق التلمساني، المعروف بالحفيد المتوفى سنة 842 هـ. وسماه المنزع النبيل في شرح مختصر خليل وتصحيح مسائله بالنقل والدليل.

قال الحطاب: «ولم أر أحسن من شرحه، لما اشتمل عليه من تفكيك عبارة المُصَنِّفِ وبيان منطوقها ومفهومها، والكلام على مقتضى ذلك من جهة النّقل، ولكنه عزيز الوجود مع أنّه لم يَكْمُلْ، ولا يقع إلا في يد من يَضَنُّ به، حتى لقد أخبرني والدي أنّه كان عند بعض المكيين كُرَّاسٌ من أوله فكان لا يسمح بإعارته ويقول : إن أردت أن تطالعه فتعال إليّ»[3].

2 ـ شرح إبراهيم بن فائد بن موسى الزواوي القسنطيني، ولد في جبل جرجرة، وتعلم

1 - نيل الابتهاج (ص: 171).
2 - لفكر السامي (ص: 706).
3 - مواهب الجليل (1/ 3).

3 ـ في بجاية وتونس، واستقر في قسنطينة إلى أن توفي سنة 857هـ، وضع شرحين على مختصر خليل الأول في ثماني مجلدات سماه تسهيل السبيل في شرح مختصر خليل، والثاني في مجلدين سماه فيض النيل في شرح مختصر خليل.

4 ـ شرح عبد الرحمن بن محمد مخلوف الثعالبي الجزائري.

5 ـ شرح أبي العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني، وسماه المهتصر من أفنان المختصر.

6 ـ شرح محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني التواتي، المتوفى بتوات سنة 909 هـ ـ 1503م، سمى شرحه مغني النبيل.

7 ـ شرح أبي زكريا يحيى بن أحمد بن عبد السلام بن رحمون العلمي القسنطيني، نزل بمصر، ومات بمكة سنة 888 هـ ـ 1483م، وضع تعليقات على مختصر خليل.

8 ـ شرح أحمد بن محمد بن أحمد بن قاسم بن محمد البوني التميمي، المتوفى بعد 1116 هـ ـ 1704م، وسمى شرحه فتح الأغلاق على وجوه مسائل مختصر خليل بن إسحاق.

9 ـ شرح أبي الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن يحيى الأنصاري السجلماسي الجزائري، ولد بثافلات ونشأ بسجلماسة وارتحل إلى فاس وتوفي بالجزائر، وسمى شرحه التقييد الجليل على مختصر خليل.

10 ـ شرح إبراهيم بن فائد بن موسى بن عمر بن سعيد بن علال بن سعيد النبروني الزواوي القسنطيني، شرح المختصر في ثلاث مجلدات وسماه تسهيل السبيل في مختصر الشيخ خليل.

11 ـ حاشية على شرح الخرشي والزرقاني على خليل، لأبي راس الناصري المعسكري.

12 ـ حاشية على شرح الخرشي لمصطفى الرماصي.

13 ـ حاشية على شرح الشبرخيتي على خليل لأبي راشد عمار الراشدي القسنطيني المعروف بالغربي.

14 ـ شرح للشيخ محمد باي بلعالم على نظم ابن بادي لمهمات خليل، سماه إقامة الحجة بالدليل شرح على نظم ابن بادي على مهمات من مختصر خليل.

15- شرح ثاني للشيخ محمد باي بلعالم على نظم خليفة بن حسن القماري لمختصر خليل، سماه مرجع الفروع على التأصيل من الكتاب والسنة والإجماع الكفيل.

وهناك شروح أخرى كثيرة تدل على اهتمام الجزائريين بمختصر خليل وخدمتهم له.

فهرس المصادر والمراجع :

❋ أزهار الرياض في أخبار عياض، للإمام شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت بعد 847 ه)، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358ه ـ 1939 م.

❋ اصطلاح المذهب عند المالكية، للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط: 1، 1421هـ - 2002م.

❋ الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط : 8، 1989م.

❋ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، للإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد التلمساني الملقب بابن مريم (ت بعد 1014 ه)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت.ط).

❋ توشيح الديباج وحلية الابتهاج، للشيخ محمد بن يحيى المعروف ببدر الدين القرافي، تحقيق أحمد الشتيوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط : 1، 1403 ه - 1983 م.

❋ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911 هـ)، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، 1418هـ - 1998م.

❋ درة الحجال في غرة أسماء الرجال، لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية بن القاضي المكناسي (ت1025هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط : 1، 1423 هـ - 2002 م.

❋ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت 825 هـ)، دار الجيل، بيروت، ط : 1، 1414 هـ - 1993 م.

❋ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، للقاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي (ت 799 هـ)، تحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت ط : 1، 1417 هـ - 1996م.

❋ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي بيروت، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، 1349 هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها.

❋ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي (ت 1376 هـ)، اعتنى به هيثم خليفة طعيمي، المكتبة العصرية، بيروت، ط : 1، 1427 هـ - 2006 م.

❋ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، للعلامة مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الشهير بحاجي خليفة (ت 1067 هـ)، دار الفكر، بيروت، 1410 هـ - 1990م.

❋ كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، للعلامة أحمد بابا التنبكتي (ت 1036 هـ)، ضبط وتعليق أبي يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت، ط : 1، 1422 هـ - 2002م.

❋ مقدمة ابن خلدون، للإمام عبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ومكتبة المدرسة، بيروت، (د.ت.ط).

❋ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، (ت 1036 هـ)، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط: 1، 1398 هـ - 1989 م.

❋ لسان العرب، للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت 711 هـ)، دار صادر، بيروت، (د.ت.ط).

❁ القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت817ه)، دار الجيل بيروت، (د.ت.ط).

❁ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي (ت 1230 ه)، مطبوع بهامش الشرح الكبير على مختصر خليل للعلامة الدردير (ت 1201 ه)، دار الفكر، بيروت، (د.ت.ط).

❁ شرح الخرشي، المسمى منح الجليل على مختصر العلامة خليل، للإمام محمد بن عبد الله الخرشي المالكي (ت1101 ه)، وبهامشه حاشية علي الصعيدي العدوي (ت 1198ه)، دار صادر بيروت، (د.ت.ط).

❁ الشرح الكبير على مختصر خليل لأبي البركات أحمد بن محمد الدردير المالكي (ت1201ه)، ومعه حاشية الدسوقي (ت1230 ه)، وتقريرات الشيخ عليش (ت1299ه)، دار الفكر بيروت (د.ت.ط).

❁ مختصر خليل في الفقه المالكي، للإمام الشيخ خليل بن إسحاق المصري المالكي (ت 767 ه)، تحقيق أحمد علي حركات، در الفكر، بيروت، 1419 ه ـ 1999م.

❁ المختصر الفقهي، للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن حماد بن عرفة الورغمي المالكي (ت 803 ه)، تحقيق الدكتور سعد سالم فاندي، والدكتور مسعود الطوير، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط : 1، 2003 م

❁ منح الجليل شرح مختصر سيدي خليل، للشيخ محمد بن أحمد بن محمد الملقب بعليش المالكي (ت 1299 ه)، دار الفكر بيروت، ط : 1، 1404 ه ـ 1984م.

❁ مواهب الجليل شرح مختصر خليل، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي المالكي المعروف بالحطاب (ت954 ه)، وبهامشه التاج والإكليل لمختصر خليل للإمام المواق (ت 898 ه)، دار الفكر بيروت، ط : 2، 1398ه ـ 1979 م.

❁ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني،: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط: 4، دار الجبل، بيروت، 1972م.

المرشد المعين قراءة في المنهج والمضمون

د/ التواتي بن تواتي
جامعة الاغواط

أيها العلماء الأجلاء والسادة الفضلاء كم أنا سعيد بهذا اللقاء الذي خصصت فيه بعضا من وقتي لما يتعلق بالمذهب المالكي، إذ إليه نُسبت، وبمنهج إمامه في الإتباع تشرفت، فلا مناص من خدمتِه، وإظهارِ بهجته، وإن أرغم ذلك أنوف الحاسدين، ونشرِ بعض علوم أئمته الراسخين، إذا جهل ذلك بعض الحاقدين.

وأسأل الله الحليم الكريم أن أكون بعملي هذا قد سننت سنة حسنة، وجئت لأهل الملتقى بفضيلة متبَعة، القصدُ منها لرجوع إلى تراثنا الفقهي نستلهم منه ونحييه لنحي به:

وقد وضعت خطة لهذه المداخلة المتواضعة راجيا من الله تعالى أن تكون سديدة، وعليه فقُدِّر لها أن تكون وفق النقاط التالية:

- تمهيد موجز عالجت فيه الفقه وارتباطه بالحياة.

- تعريف موجز بالشيخ سيدي ابن عاشر-قدس الله سره-.

- بعض مآثره وأقواله المتداولة لدى الفقهاء قديما، ولدى الباحثين الدارسين في زماننا.

-قراءة في النظم والمنهج المتبع فيه.

(أ)- أهمية المنظومة :

(ب)-منهج الناظم : وقد لوحظ فيه ثلاثة أقسام وقد تعرضت لهذه الأقسام بالشرح، وذلك ما هو موجود في النظم.

(ج)-مضمونها : لقد تعرض الناظم-رحمه الله تعالى-للفقه المالكي محاذيا مختصر الشيخ خليل، والجمع بين أصول الدين وفروعه، مع الاختصار وكثرة الفوائد والتحقيق وموافقة المشهور.

تلكم هي أهم النقاط المؤمل التعرض لها في مداخلتي راجيا من الله تعالى أن أفيد وأستفيد، من هذا الملتقى المقام في مدينة القرآن آدرار مدينة الشيخ سيدي محمد بن الكبير-رحمه الله تعالى-، هذا الملتقى المخصص لذكراه.

وأدخل الموضوع حتى لا يضيع الوقت المخصص لي إذ محسوب بدقائق معدودة، فأقول: إنّ الفقه مرتبط بالحياة بل الشريعة نفسها مرتبطة بالحياة؛ لأننا في هذا الصدد وفي هذا المجال أمام أمرين:

-أمام شريعة منزلة من رب السماوات والأرض منهاجا لحياتهم، ونبراسا يهتدون به للوصول إلى الله، وقد أشار إلى ذلك النبيّ ﷺ قبل المغادرة، في خطبة الوداع بقوله: تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا الطريق بعدي: كتاب الله وسنتي.

- وأمام فقه مستنبط من مظانه الشرعية يمثل فهم العلماء والمجتهدين لهذه الشريعة، وكلاهما يكوّنان ثروة من الأحكام لا يستغني عنهما أحد أبدا، فالفقه مرتبط بالحياة، والحياة يجب أن ترتبط بالفقه ولا يزدهر الفقه إلا إذا كان مرتبطاً بالحياة، كما أن الحياة لا تزدهر إلا إذا كانت تحت سلطة الفقه والفقهاء، فأما إذا كان هناك خصام نكد بينهما فإنهما يفقدان الازدهار، فالفقه يصيبه الشلل وقد يموت كما حصل في عصور الجمود والانحطاط، والحياة يصيبها الفساد، والمجتمع قد ينهار بل ينهار فعلاً ويتفكك، فالارتباط بين الفقه وبين الحياة ارتباط وثيق...

يقول أحد العلماء النابهين مشكورا: إنّ الفقه الإسلامي ليس مجرد نظريات ميتة في الكتب فقط كنظريات الفلاسفة، بل هو فقه للحياة؛ لأن الشريعة التي أنزلها الله ﷻ أنزلها قانوناً للحياة، فالفقه يواكب الحياة دائما مرتبطاً بحركتها، ويزدهر بهذا الارتباط يزدهر على أيدي القضاة وأيدي المفتين وأيدي المجتهدين الذين يتقون الله ﷻ في بيان الأحكام.

بناء على ما ذكرنا فنحن أمام فقيه مكتمل الأدوات تجسدت فيه معاني الفقه ففهمها، وعبّر عنها، فمن هو هذا الفقيه؟ وما هو الأثر الذي تركه ووجب علينا الوقوف عنده، أسئلة في غير محلها، وهل يحتاج النهار إلى دليل؟ وهل يحتاج الشيخ ابن عاشر إلى معرِّف يُعَرِّف به، وهو الذي ينشأ الصبيان على ترديد اسمه منذ الصغر لكن عادة وتقاليد البحث أن يعرف بالشخصية المقصود الحديث عنها، فأقول-مستعينا بالله تعالى-:

-الإمام ابن عاشر الفاسي: هو عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري نسباً الأندلسي أصلاً الفاسي منشأ وداراً، كان إماماً عالماً ورعاً متفنناً في علوم شتى كالحديث والتفسير والنحو واللغة والفقه وعلم رسم القرآن وضبطه والقراءات وتوجيهها وعلم الكلام والأصول والتوقيت والحساب والفرائض والمنطق والبيان والعروض والطب وغير ذلك، وحج وجاهد واعتكف وكان يقوم من الليل ما شاء الله.

وله تآليف حسنة عديدة منها:

-شرحه على مورد الظمآن في رسم القرآن المسمى فتح المنان، وهو شرح لا زال مخطوطا، وهو مصنف جيد ومفيد، وانتفع به كثيراً.

- وله نظم يسمى الإعلان بتكملة مورد الظمآن في رسم الباقي من قراءات الأئمة السبعة الأعيان، مطبوع، أوله :

بِحَمْدِ رَبِّهِ ابْتَدَأَ ابْنُ عَاشِر ۞ مُصَلِّيًا عَلَى النَّبِيِّ الْحَاشِرِ
هَاكَ زَائِدٌ لِمُورِدٍ يَفِي ۞ السَّبْعِ مَعَهُ مِنْ خِلاَفِ الْمَصْحَفِ

- وشرح الإعلان بتكملة مورد الظمآن مخطوط.

- وله حاشية على التتائي.

- وله تقييدات على العقيدة الكبرى للإمام السنوسي.

- الجمع بين أصول الدين وفروعه.

- شرح مختصر الشيخ خليل في الفروع.

- فتح المنان المروي بمورد الظمآن.

- وله نظم حسن يسمى "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" وهو مطبوع يحفظه ولدان المغرب العربي، وقد أدركت من المشايخ جمعا ممن يحفظه، ويطالبون الطلاب بحفظه، وكان محل استشهاد به في مسائل الفقهية، وقد كان إلى زمن قريب عمدة المفتين من المالكية، والعادة أن يدرس قبل مختصر خليل، وكان والدي-رحمه الله- يقول لي لما كنت طالبا بالزواية: "اللي ما يحفظ ابن عاشر معندوش باش يقاشر".

والجدير بالذكر أن هذا النظم في القديم كان متداولا كثيراً بالكتاتيب؛ وكان يمثل المرحلة الأساسية من تعليم الفقه بالنسبة للمنتمي للزوايا الرحمانية، التي لها فضل كبير في تكويني العلمي، إذ عن مشايخها أخذت، ومن هذه الزاويا الرشيدة العامرة بالقرآن صدرت...

والذي أفدته من خلال معاشرتي لمتن ابن عاشر واصطحابي له زمنا غير يسير أنّه نظم في العبادات الخمس بدأه الشيخ ابن عاشر بالتوحيد، وهو نظم جميل ولذيذ جدا، وفي أيام الصبا كنّا نتغنى به.

وقد شرحه النابغة الغلاوي شرحاً سماه "المباشر على ابن عاشر"، وهو شرح على متن ابن عاشر، وقد اختصره اختصارا شديدا وحسنا، بحيث انّه يمزج النظم بالشرح حتى يغدو كأنّه نثر، مع التحرير وحسن الضبط، وقال في آخره: وسميته "المباشر على ابن عاشر وستضربون أكباد الإبل شرقا ومغربا ولا تجدون شرحا على هذا الكتاب مثله-والله أعلم-".

وكان العلامة الولي الصالح الشيخ سيدي محمد بن الكبير-رحمه الله تعالى- يعتمد هذا الكتاب في شرح متن ابن عاشر، وقد حقق في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية؛ كما شرحه أحمد بن البشير شرحاً سماه "مفيد العباد"، وقد شرحه أيضاً محمد يحيى بن سليمة، وله شروح أخرى قديمة منها:" الدر الثمين ومختصر الدر الثمين"، وله شروح أخرى حديثة، وإني بصدد شرحه وتأصيل فروعه-بما فتح الله عليّ-.

وللفائدة فإن تدريس المذهب المالكي بالمغرب العربي لا يخرج عن ثلاثة متون-وما سواها مهجور غير معروف- وهي:

- منظومة ابن عاشر (المسماة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين) للمبتدئين، وهي خاصة بالعبادات، مع مقدمة عقدية أشعرية نظم فيها السنوسية الصغرى، وخاتمة في التصوف..

-والشرح المعتمد هو شرح ميارة الصغير بحاشية ابن الحاج.

- رسالة ابن أبي زيد للمتوسطين. والشرح المعتمد هو شرح أبي الحسن بحاشية العدوي.

- مختصر خليل للمتقدمين، بأحد الشروح السابق ذكرها، وأشهر شروح هذا المختصر مواهب الجليل للحطاب وهو شرح مطول ومفيد جدا ولقد اصطحبت حتى كدت أستظهره، والتاج والإكليل وهو مختصر جدا، وشرح الدردير بحاشية الدسوقي وتقريرات عليش، وشرح الخرشي بحواشيه وأهل مصر أكثر احتفاء به من المغاربة، وشرح الزرقاني وهذا الأخير أوسعها وهو المرجع الأول في الفتوى عند مالكية المغرب.

وقديما كانوا يقولون: "حُج من ابن عاشر، وصَل من الرسالة، وتوضأ من خليل"، ومن مارس هذه المتون الثلاثة، عرف صحة المقولة.

وقد قام أحدهم فشرح هذه المقولة فقال: سمعت بعض المشايخ يعلل ذلك: بأن ابن عاشر-رحمه الله- نَظَمَ أرجوزته وهو يؤدي مناسك الحج، فجاء الباب مرتبا على وفق أداء المناسك عمليا، ولأن في الرسالة بابا بعنوان [صفة العمل في الصلوات المفروضة] وهو تطبيق عملي لكيفية أداء الصلوات-والله أعلم-.

ووجدت هذه المقولة بصيغة أخري منسوبة للشيخ الإمام أبي عبد الله محمد القصار، شيخ الفتيا بفاس ت: 1012 هجرية، قصد فيه بيان الكتب المعتمدة في زمانه، فقال: (توضأ بالرسالة، وصلّ بالجلاب، وصم بالتلقين، وزك بابن الحاجب، وحج بخليل، واقض بالمدونة). إذا علم هذا، فإن مدار الفتوى عند المالكية على مختصر خليل وشروحه، كما سبق بيانه -والله أعلم-.

وهناك متن رابع، به يكتمل عقد المتون المالكية المشتهرة، وهو التحفة لابن عاصم في المعاملات والعقود،

وعليه شروح وحواش. وهو معتمد جدا في الفتوى عند المالكية، وكان الشيخ العلامة أبو إسحاق اطفيش-من الإباضية-يعتمد عليه كثيرا فما من مسألة فقهية يناقشها إلاّ وكان متن العاصمية وشرحه لابن ميارة الفاسي حاضرين، وقد لاحظت ذلك عند قراءتي "شرح النيل وشفاء العليل" أكثر من عشرين مرة قراءة دارس مدقق أثناء تصنيفي لكتاب الفقه المقارن بين المذهبين:" المالكي والإباضي".

من مآثر الشيخ ابن عاشر-رحمه الله-لما اختلفوا في عدد المصاحف التي استنسخها سيدنا عثمان ﷺ صوب ابن عاشر أنها ستة المكي والشامي والبصري والكوفي والمدني العام الذي سيره عثمان ﷺ من محل نسخه إلى مقره والمدني الخاص به الذي حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام.

قراءة في متن "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين ": وهو متن منظوم للشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر.

وقبل: أشير أني شرعت في شرح ووضع الأدلة لكل بيت من المنظومة، فألتمس منكم الدعاء بالتوفيق في هذا المسعى، خدمة لفقهنا المالكي، واقتفاء لأثر فقهائنا ﷺ.

وأعود إلى هذه المنظومة فأقول: إنها عديمة المثال في الاختصار، وفي اللغة التي بها الشيخ بنى نظمه، إذ تمثل ألفاظ القرآن الكريم وكذا ألفاظ السنة الشريفة على ما أبيّنه في النماذج التي أعددتها، وهي (أي: المنظومة)كثرة الفوائد والتحقيق وموافقة المشهور ومحاذاة مختصر الشيخ خليل والجمع بين أصول الدين وفروعه بحيث أن من قرأها وفهم مسائلها خرج قطعاً عن ربقة التقليد المختلف في إيمان صاحبه، وأدى ما أوجب الله عليه تعلمه من العلم الواجب على الأعيان، ولذا قال فيها أحدهم :

عليك إذا رمت الْهُدَى وَطريقه ❁ وَبِالدِّينِ لِلْمَوْلَى الْكَرِيم تُدِينُ
بِحِفْظٍ لِنَظْمٍ كَالْجُمَانِ فُصُولُهُ ❁ وَمَا هُوَ الأَمْرُ شَدٌّ وَمُعِينُ
كَأَنَّ الْمَعَانِيَ تَحْتَ أَلْفَاظِهِ وَقَدْ ❁ بَدَتْ سَلْسَبِيلٌ بِالرِّيَاضِ مُعِينُ
وَكَيْفَ وَقَدْ أَبْدَاهُ فِكْرُ ابْنِ عَاشِرٍ ❁ إِمَامُ هُدَى لِلْمُشْكِلاَتِ يُبِينُ
تَضَلَّعَ مِنْ كُلِّ الْعُلُومِ فَمَا لَهُ ❁ شَبِيهٌ ولاَ فِي الْمَعْلُوَاتِ قَرِينُ
وَأَبْرَزَ رَبّات الْجَمَالِ بِفِهْمِهِ ❁ فَهَا هِيَ أَبْكَارٌ لَدَيْهِ وَعُونُ
وَأَعْمَلَ فِكْراً سَالِماً فِي جَمِيعِهَا ❁ فَذَلَّ لَهُ صَعْبٌ وَلاَنَ حُزُونُ
وَأُنْهِي إِلَى قُطْبِ الْوُجُودِ تَحْيَةً ❁ عَلَيْنَا بِهَا كُلُّ الأُمُورِ تَهُونُ[1]

1 - خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، 2/176

وقد اعتنى بهذه المنظومة متأخرو الأشاعرة عناية قلَّ نظيرها وهي في الأصل نظم لعبادات خليل، وللعقيدة السنوسية، مع بعض الاختصار والتصرف، بشروحها، خاصة شرحي ميارة الشرح الكبير والشرح الصغير..

أهمية المنظومة: انتشرت هذه المنظومة واشتهرت بين طلاب العلم، وقد ذكرت أن العلماء كانوا يحثون الطلاب على حفظها وأصبح الفقهاء يستشهدون بها ويذكرون منها في مصنفاتهم ومن هؤلاء على سبيل المثال ففي حاشية الدسوقي: فورد فيها ذكر ما قاله ابن عشر أكثر من ثمنين مرة في كل الأبواب الفقهية، وكذلك الصاوي في حاشيته، ومنح الجليل، وأشرف المسالك لشهاب الدين البغدادي، وعلى كلّ فقد تردد ذكر ابن عاشر واستشهاد بأقواله أكثر600 مرة، وفي كلّها كان يشار إليه بأنّه الحجة فيما يصدر عنه -والله أعلم بالصواب-.

منهج الناظم: يمكن تلخيص المنهج المعتمد في المنظومة من خلال ما ذكره الشيخ ابن عاشر حين قال:

فِي عَقْدِ الأشعري وَفِقْهِ مَالِكِ ۞ وَفِي طَرِيقَةِ الْجُنَيْدِ السَّالِكِ

فقد حدد هذا البيت المنهج الذي أراد الشيخ-قدس الله سره-أن ينظم فيه، وعليه فقد اشتملت هذه المنظومة على ثلاثة أقسام :

- القسم الأول :

جعله كمقدمة ذكر فيه الاعتقاد على مذهب الأشاعرة: سلك فيه الشيخ-رحمه الله تعالى-سبل من سبقه في الاعتناء بالاستدلال لإثبات واجب الوجود لهذا الكون، حين جعلوا هذا أساس مذهبهم، وصدروا كتبهم بتقرير وجود واجب الوجود، وجعلوه أول واجب على المكلف، وإن كان بعضهم يعبر بأن أول واجب النظر، أو القصد للنظر، وجميع ما ذكر يرجع إلى مضمون واحد =هو إثبات واجب الوجود، وهم بذا يريدون إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان، وأنه مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبيﷺ.

وقد اعتنى بهذا التوحيد على هذا القدر، شأنه شأن الأشاعرة حين يقررون توحيد الألوهية، بما يوافق الحق وهو ما عناه الشيخ بقوله-رحمه الله- :

أوَّلَ وَاجِبٍ عَلَى مَنْ كُلِّفَا ۞ مُمَكَّنًا مِنْ نَظَرٍ أَنْ يَعْرِفا
اللهَ وَالرَّسُولَ بِالصِّفَاتِ ۞ مِمَّا عَلَيْهِ نَصَبَ الآيَاتِ

أخبر أنّ أول ما يجب أن يعرفه المكلّف وهو العاقل البالغ حالة كونه ممكنا من النظر معرفة الله تعالى ومعرفة رسله عليهم الصلاة والسلام بالصفات التي نصب عليها الآيات أي: أقام عليها البراهين والأدلة إذ الجهل بالصفة جهل بالموصوف...

وقوله في متن: "أن يعرفا" والمعرفة هي الجزم المطابق وهناك تقسيم عجيب لا بد من إيراده لمسيس الحاجة إليه واشتماله على فوائد:

وهو أنّ الحكم الحادث ينشأ عن أمور خمسة: علم، واعتقاد، وظن، شك، ووهم؛ لأنّ الحاكم بأمر على أمر ثبوتا أو نفيا إمّا أن يجد في نفسه الجزم بذلك الحكم أو لا.

-والأول (أي: الجزم) إما أن يكون لسبب وأعني به ضرورة أو برهانا أو لا. هنا ندرك أنّ أقسام الجزم اثنان، ويسمى الأول من قسمي الجزم: علما، ومعرفة، ويقينا، أما الثاني فيسمى اعتقادا.

-وغير الجزم إما أن يكون راجحا على مقابله أو مرجوحا أو مساويا. وأقسام غير الجزم ثلاثة: ويسمى الأول من أقسام غير الجزم: ظنا، والثاني: وهما، والثالث: شكا.

فإذا عرفت هذا فالإيمان إن حصل عن أقسام غير الجزم الثلاثة فالإجماع على بطلانه، وإن حصل عن القسم الأول من قسمي الجزم وهو العلم فالإجماع على صحته، وأما القسم الثاني وهو الاعتقاد فينقسم قسمين مطابق في نفس الأمر ويسمى الاعتقاد الصحيح كاعتقاد عامة المؤمنين المقلدين.

أما غير المطابق فيسمى الاعتقاد الفاسد والجهل المركب كاعتقاد الكافرين، فالفاسد أجمعوا على كفر

صاحبه، وأنّه آثم غير معذور مخلد في النار اجتهد أو قلّد، ولا يعتد به بخلاف من خالف في ذلك من المبتدعة.

واختلفوا في الاعتقاد الصحيح الذي حصل بمحض التقليد فالذي عليه الجمهور والمحققون من أهل السنة كالشيخ الأشعري والقاضي وإمام الحرمين وغيرهم من الأئمة أنّه لا يصح الاكتفاء به في العقائد الدينية وهو الحق الذي لاشك فيه، وقد حكى غير واحد الإجماع عليه، وكأنّه لم يعتد به بخلاف الحشوية وأهل الظاهر، إما لظهور فساده وعدم متانة علم صاحبه أو لانعقاد إجماع السلف قبله على ضده.

وقد حصل ابن عرفة في المقلد ثلاثة أقوال :

الأول : أنّه مؤمن غير عاص.

الثاني : أنّه مؤمن لكنه عاص إن ترك النظر مع القدرة.

الثالث : أنّه كافر.

ثم قال (أي : ابن عرفة): وبالجملة فالذي حكاه غير واحد عن جمهور أهل السنة ومحققيهم أن التقليد لا يكفي في العقائد، ولهذا قال ابن الحاجب في العقائد المنسوبة له بعد قوله: إن الإيمان هو التصديق وهو حديث النفس التابع للمعرفة على الأصح. وقال: و يكفي التقليد في ذلك على الأصح.

وإلى القسم الأول من قسمي الجزم وهو المطابق عن دليل أشار الناظم بقوله: أن يعرف الله والرسل إذ هو المسمى معرفة...[1]

وبعد الذي ذكرناه للسلف الصالح في نظرهم عند شرح متن العلامة الشيخ عبد الواحد بن عاشر فما حقيقة هذا التوحيد؟ و ما حكم استعمال هذا المصطلح في الطرح الإسلامي المعاصر؟

1 - ومن أراد مزيدا في هذا فعليه بالرجوع إلى كتاب "الدر الثمين والمورد المعين" لابن ميارة ص: 19-20

ممّا لا خلاف فيه بين الموحدين قاطبةً وجوب توحيد الله تعالى في التحكيم و الرد إلى شريعته المحكمة المنزلة في كتابه المبين، و سنة نبيّه خاتم المرسلينﷺ، قال تعالى:﴿ وَ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ وفي قراءة ابن عامر، وهو من القراء السبعة : ﴿وَ لَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾، وقال أيضاً: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فمن أعطى حق التشريع أو الحكم فيما شجر بين الخلق لغير الخالق أو أقر بذلك أو دعا إليه أو انتصر له أو سلّم به دونما إكراهٍ فقد أشرك بالله شركاً أكبر يخرجه من ملة الإسلام، و العياذ بالله.

و لا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير إتباع لما أنزل الله فهو كافر فإنه ما من أمة إلا و هي تأمر بالحكم بالعدل، و قد يكون العدل في دينها ما يراه أكابرهم...فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله منهم كفار.

القسم الثاني : العبادات :

وَغَسْلُ وَجْهٍ غَسْلُهُ الْيَدَيْنِ ❁ وَمَسْحُ رَأْسٍ غَسْلُهُ الرِّجْلَيْنِ

(قوله : ومسح رأس) أي : كله.

قال محمد بن عبد الحكم: قلت للشافعي: (الإمام) لأي شيء أجزتم أنه إذا مسح الإنسان بعض رأسه في الوضوء وترك بعضا أنه يجزيه؟

قال : من سبب الباء الزائدة في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ﴾ ولم يقل رؤوسكم.

قلت له: فما ترى في التيمم إذا مسح الإنسان بعض وجهه وترك بعضا؟

قال: لا يجزيه.

قلت: ولم قال الله: ﴿فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾. فسكت، ولم يجد جوابا.

وقال القاضي عبد الوهاب: لم يقل أحد من أهل اللغة والعربية أن الباء في كلام العرب للتبعيض. والنقل عن الكوفيين والفارسي لم يثبته الأئمة، وضعيف عند أهل اللغة والحكم إذا علق باسم وجب استيفاء ما يتناوله.

والباء في قوله تعالى :﴿ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ(تفيد التعميم لقوله في التيمم:)فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم ﴾ وإذا لم تصلح الباء للمنع من التعميم وجب التعميم، ونقل عن العرب أنها للتأكيد، وقد وردت زيادتها كثيراً للتأكيد لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي: إلحاد، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي: جذع النخلة، وحكي الفراء عن العرب: أنها تقول: هزّه وهَزّ به، وأخذ الخطام وأخذ به، ومد يده ومد بيده، وتقول العرب: حسيت صدره وبصدره، ومسحت رأسه وبرأسه، ولما كانت في مسح التيمم تأكيداً بالاتفاق، وجب أن تكون ها هنا كذلك. وفي هذا قلت في نظم لي :

مَالِكٌ الْبَاءُ صِلَةٌ إِذْ الْمَسْحُ فِعْلٌ مُتَعَدٍّ ❁ "تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ" تَأَكَّدَ بِالْبَاءِ قَوْلُ مَنْ كَلاَمُهُ بِهِ التَّحَدِّ
التَقْدِيرُ وَامْسَحُوا رُءُوسَكُمْ إِلَى النِّهَايَةِ ❁ فَوَجَبَ الْمَسْحُ كُلَّ الرَّأْسِ عِنْدَ الْوُضُوءِ بِعِنَايَةِ
الْقَوْلُ بِالتَّبْعِيضِ لاَ أَصْلَ لَهُ فِي اللِّسَانِ ❁ وَدَلاَلَةُ التَّبْعِيضِ كَلِمَةُ (مِنْ) لِمَا يَأْتِي مِنْ بَيَانِ
وَقَدْ تَرِدُ بِمَعْنَى»عَلَى» في النَّحْوِ تَضْمِينًا ❁ وَكَذَا بِمَعْنَى «مِنْ» أَجَلِ فَافْهَمْهُ إِنْ كُنْتَ فَطِينًا

والدليل على أن المسح على جميع الرأس، أنه مسح بناصيته وعلى العمامة، فلو كفاه المسح على الناصية لا اقتصر عليه، ولو كفاه المسح على العمامة لاقتصر عليه.

وقول المخالف : يحتمل أن يكون هذا في وضوء واحد، ويحتمل أن يكون في وضوءين :

(أ) - مسح بناصيته في وضوء.

(ب) - ومسح على العمامة في وضوء، ومع هذا لا دليل على المنع من الاقتصار على أحدهما.

وجواب أصحابنا : أن المغيرة راوي الحديث ذكر أنه وضوء واحد.

وكونه مرة واحدة؛ لأنه من باب ما ثبت من فعله ﷺ على سبيل الإجمال بقصد القربة إلى الله تعالى، وفعله ﷺ بما روى عنه أنه توضأ ثلاثا فيه إجمال، لا يتناوله، لأن الوضوء مأخوذ من الوضاءة وهي النظافة، والنظافة مخصوصة بالغسل، فكأنه قال: غسل رسول اللهr ثلاثا فلم يدخل فيه المسح.

قوله: " وغسلُه الرجلين" لموافقة عمل الصحابة على قوله تعالى : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بالنصب، فيكون معطوف على قوله تعالى:﴿وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ وما نقل عنهم ولا عن التابعين رضوان الله عليهم إلا الغسل لا المسح.[1]

القسم الثالث : خاتمة في مبادئء التصوف وفاء بما وعد به صدر انظم في قوله :

فِي عَقْدِ الأشعري وَفِقْهِ مَالِكِ ۞ وَفِي طَرِيقَةِ الْجُنَيْدِ السَّالِكِ

وتفاؤلا؛ لأن يكون السعي في تصفية القلب وتطهيره خاتمة الأمر، وقد ذكر الناظم من مسائل التصرف التوبة والتقوى وغض البصر عن المحارم وما كره بعده يتوقف عليه غيره، وجميع هذه المقامات يجمعها رتب ثلاث:

الرتبة الأولى : أخذ القاصد في السير.

الرتبة الثانية : دخوله في القربة.

الرتبة الثالثة : حصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد في طريق الفناء.[2] لقد رسم الشيخ العلامة ابن عاشر مَعالم للسالك وبيّن أن الطريقة التي يجب عليه أن يلتزمها ويسلكها حين يقرأ منظومته هي طريقة الجنيد الذي سلك طريقا وفهما خاصا لقواعد الإسلام الخمس فحين ذكر في هذا النظم الجميل وبيّن الفرائض والسنن والفضائل، والمكروهات، والمحرمات إلى غير ذلك من مما هو منصوص عنه في كتب الفقه إلاّ أنّ

1 - تعليقات أصولية حديثية، 1/ 3 وانظر كتابنا المبسط في الفقه المالكي بالأدلة، 1/ 108 وما بعدها...

2 - الدر الثمين والمورد المعين ، ابن ميارة، 392

ابن عاشر أراد أن يربط كلّ ذلك بأسرار العبادة أي: هو لم يكتف بالأحكام الظاهرة، وإنّما أراد أن يربطها بأحوال القلب، ويدل على الأعمال الباطنة ويبيّن الطريق إليها وكيفية التحقق بالكمال فيها، ويتعمق في جوهر النفس، وتحريرها من شوائب المادة وأدرانها مما ييسر الإدراك المباشر لِعَيْن اليقين، ولقد أوجز ابن عاشر-رحمه الله تعالى-فهمه لهذه القواعد في قوله: "قولا وفعلا هو الإسلام الرفيع".

ففي قوله : "الجنيد السالك" فالجنيد يرى أنّ الطرق كلّها مسدودة على الخلق إلاّ من اقتفى أثر رسول اللهﷺ، واتبع سنته ولزم طريقته فإن طرق الخيرات كلّها مفتوحة عليه".

ولقد سئل عن كيفية إتباع السنة فقال: مجانبة البدع وإتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله، ولزوم طريق الإقتداء والإتباع، بذلك أمر النبيّﷺ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

ولقد ترجم هذه المعاني التي ذكرت على كلّ ركن من أركانه الإسلام منصوص عنه في المنظومة إلاّ أننا نكتفي بما تيسر لنا وهو ركن الحج؛ جاء رجل إلى الجنيد حين أتم حجه، فقال له الجنيد: أرحلت عن جميع ذنبك حين رحلت عن دارك؟ فقال: لا، قال: فأنت لم ترحل، ثم قال له: وبعد كلّ مرحلة نزلت حيث تتلبث الليل، هل قطعت مرحلة إلى الله؟ قال: لا، فقال الجنيد: فأنت لم تقطع الطريق مرحلة، ثمّ سأله: وحين لبست ثوب الإحرام في موضعه، هل خلعت صفات البشرية عنك وأنت تخلع ثيابك؟ قال: لا، فقال الجنيد: فأنت لم تحرم، ثم قال: وحين وقفت بعرفة، هل تأملت في الله لحظة واحدة؟ قال : لا، فقال: فأنت لم تقف بعرفة.

ثمّ قال : وحين أفضت إلى المزدلفة وقضيت مناسكك، هل رفضت جميع الأغراض الجسدية؟ قال الرجل: لا، فقال الجنيد: فأنت لم تفض إلى المزدلفة، ثمّ قال له: وحين طفت بالبيت، هل أدركت الجمال الإلهي في بيت الطهر؟ قال الرجل: لا، قال الجنيد: فأنت لم تطف بالبيت.

ثم قال له : وحين سعيت بين الصفا والمروة هل أدركت الصفا والمروة؟ قال الرجل: لا، قال الجنيد: فأنت لم تسع..ثم قال: فلما جئت إلى منى، هل ذهبت عنك جميع المنى؟ قال: لا، قال: فأنت لم تزر منى..ثم قال له: فلما وصلت المنحر ونحرت القربان، هل نحرت أسباب الدنيا؟ قال الرجل: لا، قال: فأنت لم تنحر...

ثم قال له : فلما رميت الجمار، هل رميت ما صحبك من أفكار جسدانية؟ قال : لا، قال الجنيد: فأنت لم ترم الجمار، بل ولم تؤد على ذلك حجا".

نماذج أستلهم فيها السنة وتمثلها أثناء نظمه :

قال دعاة لا مذهبية-سامحهم الله ونسأل لهم الهداية: أن المتأخرين من المالكية غلب عليهم الإقبال على الفروع الفقهية، دون النظر في الأدلة. وهذا واضح في ما كتب على مختصر خليل ومتن ابن عاشر ورسالة ابن أبي زيد، وهذه المتون الثلاثة هي العمدة عند المتأخرين في بلاد المغرب، ولا يعتمدون على الأدلة من حديث وقرآن، وهذا قول خطير يحتاج التوقف عنده، وذاك لآنّ القائل يجهل تماما الفقه المالكي، لو علم هذا القائل أنّ هذه المصنفات وخاصة منظومة ابن عاشر أن صاحبها اعتمد في نظمها على الكتاب والسنة، وإليكم البيان :

قَوَاعِدُ الإِسْلاَمِ خَمْسٌ وَاجِبَـاتْ ❁ وَهِيَ الشَّهَـادَتَانِ شَـرْطُ الْبَاقِيَـاتْ
ثمَّ الصَّلاَةُ وَالزَّكَاتُ فِي الْقِطَاعِ ❁ وَالصَّوْمُ وَالْحَجُّ عَلَى مَنِ اسْتَطَـاعْ
الإِيْمَانُ جَـــزْمٌ بِالإِلَهِ وَالْكُتُبْ ❁ وَالرُّسلِ وَالأَمْلاَكِ مَـعَ بَعْثٍ قَرُبْ
وَقَـدَرٍ كَـذَا صـــــراط مِيزَانْ ❁ حَـــوْضُ النَّبِـيِّ جَنَّـــةٌ وَنِيـــرَانْ
وَأَمَّا الإِحْسَـانُ فَقَالَ مَنْ دَرَاهْ ❁ أَنْ تَعْبُـدَ الله كَـأَنَّـكَ تَـــرَاهُ
إِنْ لَمْ تَكُنْ تَـــرَاهُ إِنَّـهُ يَرَاكْ ❁ والدِّينُ ذِي الثَّلاَثْ خُذْ أَقْوَى عُرَاكْ

شرح وبيان: إذا تأملت هذه الأبيات تدرك على أن الشيخ ابن عاشر-رحمه الله-كان يبني نظمه على أسلوب الحديث ولغته، فالنظم عنده هو الدليل

بذاته ألا يشعرك هذا بلفظ الحوار الذي دار بين رسول اللهﷺ وجبريلعليه السلام بحضور الصحابةرضي الله عنهم.

عن عمر بن الخطابرضي الله عنهقال: بينما نحن عند رسول اللهﷺذات يوم إذ طلع رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا نعرفه حتى جلس إلى رسول اللهﷺ فأسند ركبته إلى ركبته وضع كفيه على فخذيه ثم قال: يا محمد اخبرني عن الإسلام ما الإسلام؟ قال رسول اللهﷺ: الإسلام أن تشهدان لا اله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت السبيل فقال الرجل: صدقت، قال عمر: عجبنا له يسأله ويصدقه، قال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: فإذا فعلت هذا فأنا مؤمن قال: نعم قال: صدقت، فقال: اخبرني عن الإحسان فقال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. والحديث مشهور في كتب السنن بألفاظ مختلفة وبتقديم وتأخير.

-وقوله: "والدِّينُ ذِي الثَّلاَثْ خُذْ أَقْوَى عُرَاكْ" أي: الدين مجموع في هذه الثلاث من تمسك بهم تمسك بالعروة الوثقى فلينهض المؤمن في طلب المقام الشريف؛ لأنّه منتهى ما قبله أي: منتهى الإسلام، ومنتهى الإيمان، فلهذا سمي بالإحسان، والمراد منه تمام الشيء وإتقانه ومن لم يكن له نصيب من مقام الإحسان فإسلامه ناقص بالنسبة لما سواه.

والإحسان مصدر "أحسن" والمراد منه المبالغة في رفع الدرجات الدينية والترقي إلى رتبة سنية لا مزيد عليها، وصاحب هذا المقام مكلف بتكاليف ثلاثة :

- تكليف لشبحه ووظيفة الشبح الإسلام.

- تكليف لروحه ووظيفة الروح الإيمان وعقائده.

- تكليف لسره ووظيفة السر الإحسان ومشاهداته.

ومهما ضعف وصف من هذه الأوصاف لصاحب هذا المقام كان ناقصا بالنسبة لغيره، ولا يبلغ المراد حتى تكتمل الأوصاف وظائفها، بذلك يبلغ المنى، ويتحقق المراد.

-في الزكاة: وانظر إلى قوله-رحمه الله عن زكاة الذهب والفضة والثمار والحب :

خَمْسَـــةُ أَوْسُـقٍ نِصَـــابٌ فِيهِمَـا ❁ فِي فِضَّةٍ قُلْ مِائَتَانِ دِرْهَمَا
عِشْرُونَ دينَارًا نِصَابٌ في الذَّهبْ ❁ وَرُبُعِ الْعُشْرِ فِيهِمَا وَجَـبْ

فقد كان الشيخ-قدس الله سِرَّه-متمثلا الأحاديث المروية عن رسول اللهr وإليكم أيها السادة ما روي في هذا الباب: عن علي بن أبي طالب، عن رسول اللهﷺ قال: «فإذا كانت لك مائتا درهم، وحَالَ عليها الحَولُ: ففيها خمسة دراهم، وليس عليك شيءٌ-يعني في الذهب-حتى يكون [لك]عشرون دينارا، فإذا كانت لك عشرون دينارا ، وحال عليها الحولُ، ففيها نصفُ دينارٍ. فما زاد، فبحساب ذلك -قال: فلا أدري: أعليٌّ يقول: فبحساب ذلك، أم يرفعه إلى النبيr؟- وليس في مالٍ زكاة حتى يحول عليه الحول».أخرجه أبو داود.

تحقيق الحديث: وفيه الحارث الأعور ضعيف، لكن تابعه عاصم ووثقه ابن معين والنسائي فالحديث حسن ورواه شعبة وسفيان وغيرهما من طريق عاصم موقوفا على علي كذا ذكره الزيلعي.

وقد ثبت تقدير نصاب الفضة بمائتي درهم من حديث جماعة من الصحابة عند الدارقطني والبزار وعبد الرزاق وغيرهم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَاقِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ أَنَّ النَّبِىَّ كَانَ يَأْخُذُ مِنْ كُلِّ عِشْرِينَ دِينَارًا نِصْفَ دِينَارٍ وَمِنَ الأَرْبَعِينَ دِينَارًا دِينَارًا.[1]

وفي زكاة الإبل قال:

1 - الموطأ لمالك بن أنس-رواية محمد بن الحسن،2/116

فِي كُلِّ خَمْسَةِ جِمَالٍ جَذَعَهْ ۞ مِنْ غَنَمٍ بِنْتُ الْمَخَاضِ مُقْنِعَهْ

وقوله: "بنت المخاض مقنعة" أشار الناظم إلى الإبل تزكى من غير جنسها إلى خمس وعشرين وتسمى شَنَقًا، فإذا بلغ خمس وعشرين فبنت مخاض وهذا ما أراد بقوله: مقنعة".

أما الحديث الذي كان يتمثله الشيخ ابن عاشر أثناء النظم ما روي عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَالِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ النَّبِيَّrكَتَبَ الصَّدَقَةَ فَلَمْ يُخْرَجْ إِلَى عُمَّالِهِ حَتَّى قُبِضَ النبيrفَلَمَّا قُبِضَ أَخَذَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَعَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمَّا قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ أَخَذَهَا عُمَرُ فَعَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَلَقَدْ قُتِلَ عُمَرُ وَإِنَّهَا لَمَقْرُونَةٌ بِسَيْفِهِ أَوْ بِوَصِيَّتِهِ ، وَكَانَ فِي صَدَقَةِ الإِبِلِ فِي كُلِّ خَمْسِ شَاةٌ إِلَى خَمْسٍ وَعِشْرِينَ، فَإِذَا بَلَغَتْ خَمْساً وَعِشْرِينَ فَفِيهَا بِنْتُ مَخَاضٍ إِلَى خَمْسٍ وَثَلاَثِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ بِنْتُ مَخَاضٍ فَابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ، فَإِذَا زَادَتْ فَفِيهَا بِنْتُ لَبُونٍ إِلَى خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ، فَإِذَا زَادَتْ فَفِيهَا حِقَّةٌ إِلَى سِتِّينَ، فَإِذَا زَادَتْ فَفِيهَا جَذَعَةٌ إِلَى خَمْسٍ وَسَبْعِينَ، فَإِذَا زَادَتْ فَفِيهَا بِنْتَا لَبُونٍ إِلَى تِسْعِينَ، فَإِذَا زَادَتْ فَفِيهَا حِقَّتَانِ إِلَى عِشْرِينَ وَمِائَةٍ، فَإِذَا زَادَتْ فَفِيهَا فِي كُلِّ خَمْسِينَ حِقَّةٌ، وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ بِنْتُ لَبُونٍ.

-في الصوم: وانظر إلى قوله-رحمه الله:

وَيَثْبُتُ الشَّهْرُ بِرُؤْيَةِ الْهِلاَلِ ۞ أَوْ بِثَلاَثِينَ قُبَيْلاً فِي كَمَالِ

ألا تشعر أنّ الشيخ-قدّس الله سرّه- كان متمثلا الحديث الشريف بلفظ ومعناه: والحديث المقصود هاهنا المروي عن أبي هريرةﷺ أن رسول اللهﷺ قالﷺ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَتِمُّوا ثَلاثِينَ يَوْمًا» يعني عدوا شعبان ثلاثين- رواه البخاري في الصحيح عن آدم بن أبي إياس...ورواه مسلم في الصحيح عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر.[1]

فما ذكرناه دليل على أنّ فقهاءنا-رحمهم الله تعالى-ما كانوا يوما بعيدين عن القرآن والسنة، بل كانوا قرآنيين وسنّيين فقد استلهموا وتمثلوا هذين الدليلين حتى جرت ألفاظهما على ألسنتهم الطيبة بطيبة القرآن والسنة محمد-

1 - انظر كتابا "المبسط في الفقه المالكي بالأدلة الجزء الأول كتاب الزكاة.

عليه أفضل الصلاة والسلام، والسلام عليهم ورحمة الله وبركاته.

في الحج : وانظر إلى قوله-رحمه الله- :

لِلْبَيْتِ مِنْ بَابِ السَّلاَمِ وَاسْتَلِمْ ۞ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ كَبِّرْ وأَتِمْ

ندب دخول المسجد الحرام من باب بني شيبة المسمى باب السلام وإن لم يكن في طريق الداخل، خاشعا متواضعا، ملاحظا عظمة البيت وشرفه، فإذا عاين البيت كبر الله تعالى وهلل ثلاثا ودعا بما أحب، فإنه من أرجى مواضع الإجابة.

وفي الحقيقة باب السلام المعروف الآن موصل إليه، فإنه الآن قَوْصَرَّةٌ بوسط صحن الحرم يمر منها الداخل من باب السلام القاصد للكعبة، فلو دخل شخص من أي باب وتوصل للكعبة من تلك الْقَوْصَرَّةِ فقد أتى بالمندوب.

وقد تمثل الشيخ ابن عاشر في نظمه أي: في هذا البيت فعل رسول اللهﷺ: فقد روى النسائي أنّ رسول اللهﷺ طاب بالبيت حين قدم مكة واستلم الركن أول شيء ثم خب ثلاثة أطواف من السبع ومشى أربعة أطواف ثم ركع حين قضى طوافه بالبيت فصلى عند المقام ركعتين ثم سلم فانصرف فأتى الصفا فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف ثم لم يحل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر، وأفاض فطاف بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه، وفعل مثل ما فعل رسول اللهﷺمن أهدى وساق الهدى من الناس.[1]

وروى البخاري في صحيحه أن رسول اللهﷺ طاف حين قدم مكة واستلم الركن أول شيء ثم خب ثلاثة أطواف ومشى أربعا فركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين ثم سلم فانصرف فأتى الصفا فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف ثم لم يحلل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر وأفاض فطاف بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه وفعل مثل ما فعل رسول اللهﷺ من أهدى وساق الهدي من الناس.

1 - سنن النَسائي، 9/155

وفي الختام أيها السادة أشكركم على إصغائكم إليّ، وإتاحة الفرصة لي لأحدثكم عن علم من أعلام المالكية العظام، فإن أخطأت من حيث نشدت الصواب، فأرجو من هذه الوجوه النيّرة الكريمة العفو والصفح عن كل خطأ والعفو مأمول من الكرام، وأنتم أهله، وأستغفر الله أولا وأخيرا والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

دور علماء توات في تطوير الفقه المالكي.

دور علماء توات
في إرساء العلاقات العلمية في الحواضر الإسلامية الشيخ المغيلي أنموذجا

د/ بن زيطة حميدة
الجامعة الإفريقية أدرار

الحمد لله الهادي إلى الصواب والصلاة والسلام على من أتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

إن الحديث عن العلاقات العلمية في مختلف الحواضر يعني إظهار ما تركه علماء هذه الحواضر من معالم وشهود تعكس مآثرهم في هذا المجال.

ولا شك أن الشيخ سيدي محمد بلكبير هو واحد من هؤلاء الأعلام الأجلاء الذين يستشهد بهم في مثل هذا الموضوع .

وقد اطلعنا من خلال المداخلات السابقة على دوره الجلي خصوصا وأنه فارس المذهب المالكي وجهوده في ترسيخه ونشره لا يستهان بها .

وحتى أتفادى تكرار ما سبقت الإشارة إليه سأحاول أن أبرز هذه العلاقات من خلال ما قام به غيره في هذا السياق.

وقبل ذلك أقول كلمة عن العلاقات بصفة عامة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ{13}﴾ [1]. ويفهم من ذلك أن اختلاف القبائل والشعوب يقتضي حصول التعارف ومن ثمة التعاون من أجل تحقيق المصالح المختلفة؛ خصوصا أنه لا فضل لواحد من بني البشر على آخر إلا بالتقوى والصلاح وكمال النفس، وهي سمات العلماء الأتقياء .

والتعارف المأمور به على من يقول أن القصد من الآية ذلك، يقتضي وجود وسائل وأسباب تيسره لاسيما عندما يكون التباعد المكاني أو الزماني يميز المقصودين به .

1 - الحجرات /13 .

ويبدو من خلال استنطاق التاريخ أن من أهم الوسائل المساعدة على التعارف بين الأمم هو إرساء قواعد العلاقات الوطيدة بينها .

والعلاقات ذاتها تتعدد وتتنوع بتعدد وتنوع الغايات والمقاصد المرسومة لها.

وعموما فالعلاقات الإنسانية تتضمن العلاقات الاجتماعية التي تسعى إلى ربط وشائج القربى وإرساء قواعد التكافل الاجتماعي والمحافظة على أنواع معينة من الآداب والأخلاق والأعراف التي تميز المجتمع.

والعلاقات السياسية التي يحاول دعاتها توحيد الناس وإخضاعهم لسلطة معينة بغية الوقوف أمام تشتت الأمة أو اندثارها .

والعلاقات الاقتصادية ويسعى من خلالها إلى تحقيق الربح والريع المرغوب فيه من خلال المعاملات التجارية والمقايضة واستنفاع فريق بما عند الفريق الآخر.

والعلاقات الفكرية أو الثقافية وهي السبيل إلى نشر فكر معين وإرساء معالم ثقافة بعينها تربط بين وجهتين على الأقل من وجهات النظر المختلفة، وميدانها العلم والثقافة الفكرية بصفة عامة .

بيد أن المحلل الناقد لمضامين هذه العلاقات يجد أغلبها يضمحل ويندثر باندثار مقوماتها الأساسية حتى تندرس وينسى ذكرها التاريخ نفسه .

فالعلاقات الاجتماعية المبنية على أساس الزواج مثلا تنقطع بمجرد وقوع الطلاق بين قبيلتين. والعلاقات المبنية على أساس التكافل الاجتماعي تنمحي بانقضاء ذلك التكافل . والعلاقات السياسية تنحل بمجرد استقلال الطائفة المحكومة عن الحاكمة في الهدف الذي كان يجمع بينهما. والعلاقات الاقتصادية مآلها الانقراض إذا تبخر ينبوعها .

ولا تبقى من هذه العلاقات ولا تدوم إلا العلاقة الفكرية باعتبارها تسمو على الجانب المادي وترتكز على ما هو معنوي، ولا تحد بزمن أو جيل

معينين. فهي بهذه المميزات الضامن لتماسك الأمة بماضيها وإحيائها لمآثر أسلافها. فيتشيد بذلك الحاضر على الماضي وينظر إلى المستقبل بتوءدة وإحكام.

وتعاقب الأمم يشهد على أن الفكر المتولد عن طريق التعليم والتعلم يتوارثه الأجيال الخلف عن السلف. ولذلك كان الاستعمار يعمل دائما على تشويه المعطيات الفكرية بغية قطع هذه الصلة.

وانطلاقا مما سبق نقول أن العلاقات الفكرية بين الحضارات الإنسانية لا تتعرض لما تتعرض له العلاقات الأخرى بل تدوم دوام عقل الإنسان.

ولذلك اخترت أن تكون مداخلتي في هذا الملتقى تندرج ضمن هذا السياق فوسمتها بـ :

« دور علماء توات في إرساء العلاقات العلمية في الحواضر الإسلامية – الشيخ المغيلي أنموذجا –»

وحتى أتمكن من إبراز تلك البصمات تراني مضطرا إلى تقديم ترجمة مختصرة لهذا العلامة النحّرير لأبني عليها ما يترتب من تحليل لإخراج تلك العلاقات المرتبطة به بشكل مباشر أو غير مباشر.

ترجمة مختصرة للشيخ المغيلي :

هو محمد بن عبد الكريم المغيلي، ولد بقرية مغيلة من عائلة راقية النسب ومشهورة بالعلم والدين والشجاعة في الحروب. حتى كان لأحد أجداده شرف المشاركة مع طارق بن زياد في فتح الأندلس. واختلف الباحثون كثيرا في تحديد تاريخ ميلاده وإن اتفقوا على أن وفاته كانت في سنة 909 هـ .

فرجح بعضهم سنة 820 هـ لورود ذكرها في تاريخ الوفيات للعلامة ابن القاضي[1].

1 - النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14 هـ للأستاذ عبد الحميد بكري، ص78.

ورجح آخرون سنة 831 هـ لتطابقها مع مراسلاته وتنقلاته كما يقول الباحث مقدم مبروك[1].

بدأ دراسته الأولى في مسقط رأسه وعلى يد والده ثم انتقل إلى عاصمة حاضرة تلمسان فحفظ فيها القرآن وأخذ من أمهات الفقه المالكي ما أمكنه. حيث تتلمذ على شيخه محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب وشيوخ آخرين، منهم عبد الرحمان بن محمد التلمساني ومحمد بن إبراهيم. ثم انتقل إلى بجاية فأخذ من علمائها، وكانت بجاية حينئذ إحدى حواضر العلم وقبلة العلماء. فأخذ عن الشيخ أحمد البيجائي والشيخ منصور بن علي الزواوي .

ثم رغب في المزيد من التحصيل العلمي فكان له أن توجه صوب الشيخ عبد الرحمان الثعالبي بالجزائر، فأخذ عنه التفسير والتصوف والقراءات. ثم تزوج ابنة شيخه وأنجب منها أبناءه[2].

وحيث أن نفس هذا المصلح كانت تواقة للعلم زاهدة في الدنيا توجه إلى منطقة توات. ودفعته إلى ذلك الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في تلمسان. واكتشاف سلطانها مؤامرة مدبرة من خصومه للإطاحة بملكه واغتياله. حيث اتهم بعض العلماء بذلك ومن بينهم الإمام أحمد بن يحي الونشريسي صاحب المعيار، الذي مكنه أصحابه من مغادرة تلمسان خفية.

ونظرا للعلاقة التي تربط المغيلي بالونشريسي خرج هو كذلك من تلمسان واتجه نحو توات[3]. وكانت توات آنذاك تشتهر بأنها ملجأ أمين للمضطهدين .

فدخل المغيلي توات وعلّم فيها وتعلم وقال قولته المشهورة : « دخلنا توات فوجدناها دار علم وأكابر فانتفعنا منهم وانتفعوا منا »[4].

---

1 - الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقيا الغربية خلال القرن 8، 9، 10 هـ للأستاذ مبروك مقدم، ص 49.

2 - المرجع السابق، ص 53.

3 - مخطوط بعنوان ذكر ما وجد من تاريخ الأخبار التواتية للطيب بن عبد الله البلبالي، ص 6.

4 - التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 هـ إلى القرن 14 هـ /17م إلى 20م للدكتور الصديق حاج أحمد، ص 50 .

وبعد اختلافه مع الإمام العصنوني فيما يعرف بنازلة يهود توات وتبادل المراسلات مع العلماء في مختلف الحواضر الإسلامية، انتصر لرأيه المؤيد بفتوى ثلة من العلماء. فطرد اليهود وأرجعهم أذلة صاغرين. ثم توجه إلى السودان الغربي حيث شرح فيه الإسلام ونصح الحكام وأصلح ما أفسده المبتدعة والكفار[1].

وسأتمم هذه الترجمة بذكر بعض المآثر من خلال الموضوع الموالي.

بصمات الشيخ المغيلي في إرساء العلاقات الفكرية بين الحواضر الإسلامية:

تتجلى هذه البصمات وتكمن في كثير من المعالم والمآثر التي تؤرخ للشيخ المغيلي في مسيرته العلمية والتعليمية والإصلاحية الطويلة، التي خاضها وبقيت شاهدة على ما بذله من جهد وجهاد في محاربته للجهل، وتغييره للمنكر وذوده عن شريعة جده .

ومن حسن المفارقات أن بعض هذه المعالم لم تكن من فعله بنفسه. وكأن القدر زوده بها. ومن ذلك الحيز المكاني الذي جال وتنقل فيه هذا المصلح منذ ولادته إلى تاريخ وفاته . ويتجلى ذلك بوضوح في :

1 - مسقط رأسه هو مغيلة، وهي قرية كانت تابعة لأعمال تلمسان، وهي الآن بمقتضى التقسيم الإداري تابعة لحاضرة تيهرت[2].

وهكذا يكون هذا الحيز المكاني قد ساهم بدوره – والفضل للمغيلي – في إرساء العلاقة الفكرية بين مجموعة من الحواضر الإسلامية. فحاضرة تيهرت ترى المغيلي ابنها. وحاضرة تلمسان تقول عنه أنه لها. وحاضرة توات تبرز معالمه الفكرية فيها. وينتج عن هذا أن يعقد مثل هذا الملتقى ليزيد في متانة العلاقات الفكرية بين هذه الحواضر حتى في هذا الزمن المتأخر عن عصر المغيلي .

---

1 - أعمال المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ منطقة أدرار، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص 30.

2 - الموقع ar.wikipedia.org.

2 - ما قيل عن مسقط رأسه يقال عن مكان تعليمه. حيث أخذ من منابع العلم في مغيلة، وفي تلمسان، وفي بجاية، وفي الجزائر. بل وحتى في توات فقد أخذ جانبا من العلم على يد أستاذه يحيى بن إيدير بن عتيق التدلسي الذي ولي القضاء بتوات[1].

وهذا الجد المتواصل والذي نحن بصدد حلقة من حلقاته، من شأنه أن يديم العلاقات الفكرية بين حواضرنا .

3 - تشابه أوضاع الحواضر الإسلامية في نظر الشيخ المغيلي، وهو ما كان سببا مباشرا في دفعه إلى إعلاء كلمة الجهاد، وتغيير المنكر باللسان واليد.

فقد نقم وانزعج من سلوك السلاطين الذين كانوا يحكمون تلمسان وبجاية، ومن جراء أفعالهم ومعاملاتهم السيئة لرعاياهم، مع سكوت وتغاضي رجال العلم .

فهجر إلى توات فوجد جوّها مشابها لما تركه وراءه، مشحونا بسطوة اليهود ومكائدهم وخروجهم عن حدود الله المرسومة للذميين. حيث عاثوا في الأرض فسادا، واستحكموا في أمور البلاد، وتحكموا في اقتصادياتها. حتى تمكنوا من السيطرة السياسية والتدخل السافر في شؤون الحكم.

وحموا أنفسهم بشراء ذمم شيوخ القبائل بإغرائهم بالهدايا، فصار اليهود في توات أعزاء بعد إذلال[2].

هذه الأوضاع المزرية التي شاء القدر أن تبتلى بها هذه الحواضر كانت دافعا لإيقاظ الضمائر ومحاربة الجمود، وإيجاد العلاج المناسب لذلك من خلال تمتين علاقات هذه الحواضر. ودور الشيخ المغيلي في ذلك لا يحتاج إلى صقل.

4 - نازلة يهود توات كما اصطلح على تسميتها سببها الجوهري هو اختلاف آراء العلماء في كيفية معاملة أهل الذمة. حيث ذهب كل فريق إلى الاجتهاد في إيجاد السند الشرعي للقضية المطروحة، بناء على ما في حوزتهم من مصادر وما أوّل به كل فريق النصوص المعتمدة .

---

1 - تعريف الخلف رجال السلف لأبي القاسم محمد الحفناوي، مؤسسة الرسالة، ط2، ج1/ 196.
2 - النبذة في تاريخ توات وأعلامها، مرجع سابق، ص 28.

والاختلاف في حقيقته لا يفسد للود قضية لأن من شأن العلماء ومنذ قديم الزمان أن يختلفوا في إصدار الحكم بعد الاجتهاد في ذلك، وسندهم قول الرسول ﷺ : ﴿ إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد ﴾ [1].

غير أن الاختلاف هنا ليس بالأمر الهين. فهو من مقتضيات العلاقة التي تربط بين المسلمين وأهل الذمة.

وهذه العلاقة حددها المشرع بشكل لا يقتضي الخلاف. ولذلك ظلت هذه النازلة وعلى مر العصور تقوي العلاقة الفكرية بين الحواضر الإسلامية التي عولجت فيها. فهي من النوازل التي لا تندرس بمر الزمن، وأجر ذلك يرجع لمن كان سببا في إثارتها.

5 - أهمية الموضوع المطروح في الإفتاء في نازلة يهود توات وسع العلاقة بشكل ملفت، وعدّد الحاضرات التي طرحت فيها. فالإشكال لم يبق محليا بين ما رآه المغيلي وخالفه فيه العصنوني. وهما العالمان الجليلان اللذان يشهد لهما كل من عاصرهما بالدهاء والذكاء والفطنة وطول الباع وحسن التخريج.

فقد تجاوز الأمر حدود حاضرة توات وأصبح موضوعا ذا صبغة عالمية يبحث بشكل دقيق في كل من حاضرة تلمسان وفاس وبجاية وغيرها. وهذا ما كان سببا في تقوية الرابطة الفكرية التي تجمع بين هذه الحواضر. لأنه وحتى وإن اختلفت أجوبة العلماء، فإن في الساحة التواتية من سيستسيغ تلك الأجوبة. ويقوي بها عضده ويعتبر المجيب عنها مناصرا له.

6 - إن المتمعن في الرأي الذي ذهب إليه الشيخ العصنوني ومن وافقه من العلماء، أمثال أبي العباس أحمد بن محمد بن زكري فقيه تلمسان. وأبي مهدي عيسى بن أحمد الماواسي فقيه فاس . ومحمد بن القاسم الرصّاع فقيه تونس . وأبي زكريا يحيى بن عبد الله بن أبي البركات، الذين يرون أن خصومهم انطلقوا من عموميات من النصوص هي خصوصيات، ومن

1 - حديث متفق عليه أخرجه البخاري في باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ حديث رقم 7852 ، صحيح البخاري، المجلد الرابع .

مطلقات هي مقيدات وأن شروط النهي عن المنكر غير متوفرة وأن الضرب على يد المخالفين مطلوب[1].

إن المدقق في آرائهم يلاحظ أنهم لم ينطلقوا من فراغ. وإنما بنوا موقفهم على ما بدا لهم من حقوق يجب احترامها. واعتماد قاعدة درء المفاسد أولى من جلب المصالح وعدم تغيير منكر إذا كان ذلك يؤدي إلى منكر أعظم منه[2].

ورغم ما ذهبوا إليه إلا أن دوام العلاقات بين المسلمين يستلزم النظر في المآلات. ولا يكتفي بالمصالح الآنية. والنظر كذلك في ما يتعدى ضرره للغير (الأجيال اللاحقة) .

ولذلك فإن جنوح العلماء بعدهم إلى ما يؤيد رأي المغيلي هو الصواب، لأنه الوسيلة العملية التي تبقي على تقوية العلاقة الفكرية بين العلماء سلفهم وخلفهم.

7 - يستشف من مراسلة العصنوني لعلماء فاس وتلمسان عدم اطمئنانه وقناعته برأيه، لما أورد في تلك المراسلة من آراء مختلفة اعتمد عليها المغيلي في محاجته، وبأدلة قد تسمو على أدلته[3].

وفي هذا التذبذب إشارة إلى أن رأي المغيلي لم يكن مجانبا للصواب، خاصة وأن مخالفيه كان عددهم أكثر من موافقيه، وأن المصالح الدنيوية لبعض النافذين كانت في بقاء اليهود على حالهم .

وهذا ما جعل المغيلي يتمكن من الانتصار لرأيه وتجسيده ميدانيا. مما أعطى الانطباع بأن رأيه كان مقبولا ضمنيا حتى عند خصومه.

8 - وبالمقابل فإن فتاوى الشيخ المغيلي كانت جلية المضمون في وجوب هدم كنائس اليهود، ولو أدى ذلك إلى قطع الرؤوس، لإبقاء اليهود أهل ذمة يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون.

---

1 - المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب للإمام أحمد بن يحيى الونشريسي، ج2/ 218.

2 - المرجع السابق، ص 214 وما بعدها .

3 - المرجع السابق، ص 214 وما بعدها .

وحتى العلماء الذين أيدوه في فتواه أمثال :

الشيخ السنوسي، والشيخ إبراهيم بن عبد الجبار الفيجيجي، ومحمد بن عبد الله التنيسي، ومحمد بن عبد الله الشسي، وأبو القاسم العبدوسي، والشيخ أحمد بن يحيى الونشريسي الذي وضح أن ما أفتى به أصحاب العصنوني خطأ يدور صاحبه بين الكفر والفسق كما يقول العبدوسي[1].

فهؤلاء المشايخ يقولون أن الشيخ المغيلي هو الرجل الصالح القائم بما اندرس من مفاسد الزمن من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي يجب القيام بها[2].

إن المواقف الحازمة التي لا تخشى في الله لومة لائم ولا تبحث عن الرخص وتترك العزائم من شأنها أن تقوي العلاقات بين المسلمين في نوازلهم في حاضرهم وماضيهم .

9 - وبناء على ما سبق فإن موقف المغيلي من اليهود بعد أن تلقى أجوبة العلماء والمساندين له اتصف بالحزم في إجلاء اليهود من بلدة تمنطيط. فلم يعر للجوانب الاقتصادية اهتماما كبيرا بقدر ما أعاره للجوانب الدينية. الأمر الذي أدى إلى الإشاعة بين الحواضر أن توات بعد خروج اليهود منها ضعفت اقتصادياتها، وأصبحت بلادا غير آمنة مما رغب عنها التجار حتى أصبح الناس في ضنك من معيشتهم[3].

غير أن المحلل لهذه الإشاعة يجدها من نسيج أفكار اليهود وأتباعهم، لأن الموقع الجغرافي لمنطقة توات ظل في مكانه ولم يتغير بذهاب اليهود ولا بسيطرتهم، باعتباره معقلا للقوافل التجارية التي كانت تربط شمال إفريقيا بالسودان الغربي .

---

1 - المرجع السابق، ص 251 -253 .

2 - المرجع السابق، ص 232 .

3 - محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره للأستاذ أحمد الحمدي.

يقول الأستاذ عبد الحميد بكري : « تعتبر توات مركزا تجاريا هاما خصوصا للقوافل التجارية المتجهة من شمال بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي وذلك لموقعها المتوسط في الصحراء ولتوفرها على الموارد المائية ووجود الكلاء للدواب »[1].

10 - إن بصمات المغيلي في تغيير الأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية ظلت ظاهرة للعيان وتجلت بشكل واضح في مآلات حاضرة توات بعد مقتل ابنه عبد الجبار وهو ببلاد السودان يتم رسالته العلمية والجهادية. إذ بعد رجوع المغيلي إلى توات وجد اليهود قد استعادوا سطوتهم[2].

والدارس لهذه الظاهرة في إطار العلاقات الإنسانية يتبين له أن ما ذهب إليه الشيخ المغيلي والعلماء المساندون له هو الصواب بعينه. لأن التصرف الجديد لليهود عكس بحق ما هم مجبولون عليه من الغدر، والخداع، واغتنام الفرص كلما سمحت الظروف بذلك. وهو أمر يدفع العلماء إلى دراسة هذه الظاهرة بجد في إطار العلاقات الفكرية. وبالمقابل فإن ظاهرة المغيلي كانت ومازالت محل دراسات وأبحاث علمية من طرف اليهود أنفسهم حتى في عصرنا الحالي .

11 - مظهر تأثير نازلة اليهود في الحركة العلمية :

لقد كان لنازلة يهود توات مظهر تأثير بالغ في الحركة العلمية لأسباب كثيرة منها :

* أن الفتاوى التي صدرت في حقها ظلت مرجعا مهما يعود إليه المختلفون في حكم مثل هذه النازلة. ويبقى التعامل معه متداولا بين المتقدمين والمتأخرين من العلماء .

* النوازل بصفة عامة لا تترك حبيسة الخزانات، وإنما تصبح منارات علمية يعود إليها العلماء والطلبة في التعليم والتعلم .

1 - النبذة من تاريخ توات، مرجع سابق، ص 37.
2 - المرجع السابق، ص 33.

* يستمر جريانها على ألسنة الفقهاء والمفتين في مجالسهم الخاصة والعامة. وقد تقحم وبشكل غير متوقع في مناقشة علمية جارية بين العلماء.

* انتشارها بشكل واسع عند الخاص والعام، وهو ما يجعل بقاءها يدوم ويربط العلاقة بين مركز حدوثها وباقي الحواضر العلمية الأخرى[1].

12 - عينات أخرى من علاقة توات الفكرية بالحواضر الإسلامية :

* مع حاضرة الجزائر :

تمثلت هذه العلاقة في ذهاب كثير من طالبي العلم من توات إلى هذه الحاضرة ومنها إلى توات قصد المزيد من العلم والتعلم والحصول على الإجازات العلمية .

ولعل أبرز مثال على ذلك الشيخ المغيلي الذي أخذ عن الشيخ عبد الرحمان الثعالبي. والقاضي العصنوني معاصر المغيلي. بالإضافة إلى بعض البكريين الذين أخذوا عن الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الذي ترك بصماته في الحركة الثقافية بالإقليم، وكان علماء توات يكنون التقدير الكامل والاحترام التام لعلماء حاضرة الجزائر[2].

وهذا التواصل كما هو بين ما كان ليدوم لولا بصمات الشيخ المغيلي في هذه العلاقة فهو عالم توات وتلميذ الثعالبي وصهره. وقبر ابنة الثعالبي زوج المغيلي مازال شاهدا في بلدة أولاد سعيد بنواحي تيميمون.

* مع حاضرة تلمسان :

ولإظهار ذلك يكفي التذكير بأن الشيخ المغيلي جاء إلى توات من تلمسان وشيد في هذا المجال أكثر العلاقات الفكرية. فتلمسان ولجت تاريخ توات من الباب الواسع، فاتصالات علماء توات بعلماء تلمسان متعددة ولم تقتصر على موضوع نازلة اليهود.

---

1 - توات والأزواد ، الدكتور محمد الصالح حوتية، ج1/ 324.

2 - النبذة من تاريخ توات، مرجع سابق، ص 57.

يقول الأستاذ بكري عبد الحميد متحدثا عن هذه العلاقة : « ... هذا الأمر يجعلنا نقول أن توات كانت لها مع تلمسان العلاقة الوطيدة، وذلك من خلال النازلة، فالعلماء أجابوا من مناطق غير تلمسان، ولكن الفتاوى التلمسانية كانت تحظى بالمكان وذلك لقدر علمائها رحمة الله عليهم» [1].

* مع حاضرة فاس :

كانت العلاقات التي تربط توات بفاس علاقات فكرية وثقافية متعددة، بحيث توجه كثير من الباحثين وطلاب العلم من توات إلى هذه الحاضرة وأخذوا العلم على يد علمائها. ومن الذين كان لهم اتصال بعلماء المغرب نشير على سبيل الذكر إلى العلامة سيدي عمر بن عبد القادر التنيلاني الذي تخرج من مدينة فاس، والعلامة سيدي عبد الكريم بن محمد، والشيخ سيد البكري[2].

ومن بصمات المغيلي في هذه العلاقة المناظرة التي أجراها تلامذته مع علماء فاس الذين أنكروا على المغيلي نزعته الإصلاحية. واتهموه عند السلطان بالطموح إلى الملك، فقال كلمته المشهورة : « لا أرى الملك إلا كما أرى الكنيف »[3].

* مع حاضرة تادلس :

ارتبطت هذه العلاقة من خلال إسهامات علماء تادلس في إنعاش الحركة الثقافية والعلمية بتوات، وخير دليل على ذلك وجود العلامة سيدي يحيى بن إيدير التادلسي شيخ الإمام المغيلي بتمنطيط، والعلامة الحاج لحسن الزقوري التادلسي[4].

* الحواضر الإسلامية الأخرى :

لقد قام الإمام المغيلي بدور كبير في ربط العلاقات الفكرية بين توات والحواضر الإسلامية الأخرى كمصر، والسودان الغربي. ويكتفى للاستدلال

1 - المرجع السابق، ص 58.
2 - المرجع السابق، ص 58.
3 - أعمال المهرجان الثقافي الأول، مرجع سابق، ص 74.
4 - التاريخ الثقافي لإقليم توات، مرجع سابق، ص 156.

على ذلك الإشارة إلى المناظرة التي تمت بينه وبين الإمام السيوطي في جواز استعمال المنطق من عدمه. بالإضافة إلى ما قام به من توجيه وإرشاد وإصلاح في حواضر السودان الغربي. وهذا موضوع آخر خارج عن موضوع الملتقى ويحتاج إلى وقفات كثيرة .

13 - مصنفـات المغيلـي :

ولا مندوحة ونحن نتكلم عن بصمات المغيلي في إرساء قواعد العلاقات الفكرية بين الحواضر الإسلامية من الإشارة ولو باختصار إلى أهم مصنفاته. لأنها تعد الوسائل العلمية لتبليغ رسالته. وفي هذا النطاق يشير معظم الباحثين إلى أن المغيلي خلف للأمة مؤلفات عديدة منها[1] :

البدر المنير في علوم التفسير – تفسير سورة الفاتحة – الفتح المبين في شرح القرآن الكريم – مصباح الأرواح في أصول الفلاح – المفروض في علم الفروض – منهج الوهاب في رد الفكر إلى الصواب – شرح على بيوع الآجال لابن الحاجب – مقدمة في العربية – تنبيه الغافلين – مفتاح النظر في علم الحديث – رسالة إلى كل مسلم ومسلمة – مقدمة في علم المنطق – ما يلزم أهل الذمة – أسئلة الأسقية وجواب المغيلي عليها – التعريف بما يجب على الملوك والأمراء – مختصر فيما يجوز للحكام في رد الناس عن الحرام .

1 - الرحلة العلية إلى منطقة توات لفضيلة المرحوم الشيخ محمد باي بلعالم، ج1، ص 81.

الخاتمــة :

ليس بغريب عن ولاية أدرار أن تنظم هذا الملتقى الذي من أهدافه التعريف بالعلاقات التي تربط مجموعة الحواضر الإسلامية لأنها متبوءة في حاضرة غنية بالأمجاد الإسلامية .

فتوات ومنذ الخطوات الأولى لانتشار الإسلام فيها بيئة علمية إسلامية. ازدهرت بدراسة مختلف العلوم الشرعية وتميزت بتكريم علمائها.

ولعل الكشف عن تلك البصمات التي تركها العلامة الشيخ المغيلي وهو ينسج الخيوط التي تربط العلاقة المستدامة بين البيئـات الإسلاميـة يندرج ضمـن استمرارية هذه الروح الأصيلة التي كان الشيخ المغيلي يراهن عليها.

وإنها لبصمات جديرة بأن تخلد مآثر هذا العالم المجاهد من أعلام الإسلام وأئمته. فهو وإن خذله قومه كما يقول الشيخ البوعبدلي، فقد تبوأ مكانة مرموقة، خلدها له التاريخ فجعله في مصاف الصديقين والشهداء والصالحين[1].

والإشادة بهذه العلاقات العلمية في خضم هذا الملتقى الوطني الأول للشيخ سيدي محمد بلكبير إشارة إلى أن ما قام به شيخنا بلكبير رحمه الله هو استمرار واستدامة لتثبيت العلاقات الفكرية والعلمية التي تميز بها علماء توات قديمهم وحاضرهم، فجزاهم الله عنا خير الجزاء .

1 - أعمال المهرجان الثقافي الأول، مرجع سابق، ص 70.

دور علماء توات في نشر المذهب المالكي وترسيخه بالجزائر

الشيخ مولاي عبد الله الطاهيري
شيخ المدرسة الداخلية بسالي

أيها الأخوة الكرام والسادة الأفاضل أحييكم جميعا بتحية عطرة مباركة وتحية الإسلام، فالسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

إنها لفرصة طيبة مباركة أن ألتقي بهذه الوجوه الطيبة والكريمة في هذا الملتقى المبارك وهذا الملتقى الوطني الأول لشيخنا العلامة الشيخ سيدي محمد بلكبير، رحمه الله، وطيب ثراه وجعل الفردوس الأعلى داره ومثواه ورحم الله جميع العلماء العاملين وجعلنا وإياكم من السائرين على نهجهم والسالكين بطريقهم الي هو طريق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وصحابته الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد:

فإن عنوان محاضرتنا هذه يتركز حول جهود علماء توات وعلى رأسهم سيدي الشيخ محمد بلكبير في نشر المذهب المالكي وترسيخه . ودورهم في المحافظة على المرجعية الدينية والوحدة الوطنية.

ويمكننا أن نتكلم أولا عن:

أسباب انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب العربي.

فمنذ دخول الإسلام إلى هذه الربوع الطاهرة من بلاد المغرب العربي أحس أهل البلاد بحاجتهم إلى معرفة أحكام هذا الدين والتفقه فيه والالتزام بأحكامه والمساهمة في نشره وتبليغه للناس .

من أجل ذلك فقد كانوا يرحلون إلى طلب العلم إلى بلاد كثير من المشرق العربي كي يستفيدوا من مدارسها الفقهية ومن أبر تلك المدارس مدرسة الإمام مالك بالمدينة المنورة .

وبعد عودة الذين رحلوا إلى بلادهم بدأت فكرة انتشار مذاهب فقهية معينة في بلاد المغرب العربي ثم كثر إتباع الإمام.وانتشر في البلاد انتشارا واسعا حتى استحوذ هذا المذهب على الساحة الفقهية المغاربية.حتى أصبح

لا يفتى إلا به ويولى إلا من انتسب إليه حفاظا على الوحدة الفكرية ومنع التشويش على المتمذهبين حتى قيل :

أهل مغرب عليه يمنع لغير نهج مالك أن يتبع

لفقد غيره وكل خارج فإنه عد من الخوارج

ولعل من أهم وأبرز الأسباب والعوامل النفسية والاجتماعية التي جعلت طلبة العلم يتأثرون بالمذهب المالكي ويساهمون في نشره هو تأثير الإمام مالك بن أنس في نفوس المغاربة.

فلقد كان لشخصية الإمام مالك بن أنس أبلغ التأثير في تحبيب مذهبه إلى الناس عامة والمغاربة خاصة. لقد أحب علماء المغرب العربي المذهب المالكي وتعلقوا به لما يتميز به من الخصوصيات التالية:

1 - أن المذهب هو امتداد لمدرسة الحديث وفقه أهل المدينة.

2 - كثرة أصوله وقواعده مما جعله فقها مرنا حيث أن هذه مكنت المذهب من الاجتهاد والاستنباط والتوسع في مجال تخريج المسائل.

3 - جمعه بين الأثر والرأي.

4 - اعتبار المذهب المالكي لمقاصد الشريعة في اجتهاد الفقه.

5 - واقعية الفقه المالكي:فإن المتتبع لفقه المذهب المالكي يجده فقها واسعا استطاع أن يغطي كل الأبواب الفقهية باجتهادات رجالية.

وهو فقه أحاط بحقائق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية إحاطة واعية متبعا في ذلك الدليل الشرعي متوخيا تحقيق مصلحة الفرد والمجتمع على حد سواء.

وما أسسه المذهب المالكي من أصول وقواعد وما خلفه من ثروة فقهية كبيرة يعد كنزا ثمينا بين يدي الفقهاء والمجتهدين و أولي الأمر,تفتح لهم المجال واسعا لإيجاد الحلول العملية فيما لا نص فيه للقضايا والنوازل الاقتصادية والاجتماعية الجديدة.

دور علماء توات في نشر المذهب المالكي وترسيخه في الجزائر:

تعد منطقة توات موطن علم وأمن مما جعلها قبلة للعلماء حيث وفد إليها الكثير من العلماء من فاس وتلمسان من أمثال الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي أتى إليها من تلمسان والشيخ مولاي أحمد الإدريسي الذي أتى من المغرب والذي استقر بها وأنشأ مدرسته الدينية بسالي.فكانت توات بحق مركز إشعاع حضاري تضيء كامل الصحراء بنور المعرفة كما نذكر أيضا من هؤلاء العلماء الذين ساهموا في نشر المذهب المالكي وترسيخه وذاع وصيتهم في الأفاق:

-الشيخ عمر الشيخ البكاي بن محمد الكنتي.
-الشيخ محمد بن عبد الجبار الفجيجي.
-الشيخ محمد بن عبد الرحمن البلبالي.
-الشيخ محمد بن عبد الله الونقالي.
-الشيخ سيدي البكري بن عبد الكريم التمنطيطي.
-الشيخ سيدي أحمد ديدي.
-الشيخ أبي يحيى المنياري.

ومن العلماء المعاصرين:

- الشيخ سيدي محمد بلكبير صاحب الذكرى والملتقى والذي أسس مدرسته الشهيرة التي ذاع صيتها وتخرج منها الكثير من الطلبة والعلماء الذين تربوا على يديه وتأدبوا بأدبه وأخذوا عنه فروع وأصول مالك في كل فنونه توحيدا وعبادات ومعاملات وتصوفا وأخلاق.فكان له الأثر البارز في نشر المذهب المالكي في ربوع هذا الوطن من خلال الأئمة الذين تخرجوا على يديه وحتى من خارج هذا الوطن.والكل قد اصطبغ بصبغته والتزم بأخلاقه وآدابه.

ومن العلماء البارزين أيضا:

-الشيخ حمزة بن أحمد القبلاوي الذي كان همزة وصل بين تكرور وأدرار فكانت تأتيه الفتاوى أو السؤال من الصحراء المالية فيفتيهم بمشهور

مذهب مالك وله في هذا رسائل عديدة و مراجعات لبعض من أفتى بغير مذهب مالك.

- كما لا ننسى أن نذكر من هؤلاء العلماء الشيخ محمد باي بن محمد بن عبد القادر بعالم صاحب التآليف الكثيرة والرحلات العديدة في مختلف ربوع الوطن.

- كما نذكر أيضا الشيخ سالم بن إبراهيم وهو من أبرز تلاميذ الشيخ بلكبير,والشيخ بكراوي بن عبد القادر بن أحمد كذلك الشيخ عبد العزيز بن عمر صاحب المهدية.

منهج علماء توات في ترسيخ المذهب المالكي وعدم الخروج عنه :

لقد كان ولا يزال المذهب المالكي سببا رئيسيا وجوهريا في المحافظة على الوحدة الوطنية والمرجعية الدينية.فمنذ قرون عديدة ومنذ أن اعتنق أبناء هذا الوطن الحبيب الإسلام في عهد الفاتحين فقد كان علماء هذه المنطقة ملتزمين بالمذهب المالكي وأصوله وفروعه لا يحيدون عنه مما أدى إلى وحدة كلمتهم وانتشار الأمن والعافية في ربوع هذا الوطن الكريم بخلاف ما كان يعايشه المشرق من صراعات فكرية وعقائدية ومذهبية تسبب في زرع الفتن والصراعات في ما بينهم.

ولذلك كان لعلماء المنطقة مجلس شورى في الإفتاء حتى لا يخرج أحد منهم عن مشهور المـــذهب وكانت له مؤلفات في الفتاوى التي أصدروها و النـــوازل كنوازل الجـزلاوي و الجنتوري وغيرها قد كانت جهودهم متواصلة في نشر المذهب تدريسا وإفتاء وحتى قضاء في أيام الاستعمار وما قبله.

فقد ساهم هؤلاء العلماء الأفذاذ في نشر المذهب وترسيخه من خلال إنشاء المدارس القرآنية والدينية والزوايا والتي تعد إلى يومنا هذا منارات للعلم ومصدرا للإشعاع الحضاري حيث يؤمها المئات بل الآلاف من طلبة العلم من داخل الوطن وخارجه.

ومنهج العلماء في هذه المدارس الدينية يتمثل في تحفيظ القرآن الكريم الذي هو المصدر الأول للفقه والتشريع الإسلامي.كما يعتمد في تدريس الفقه على المختصرات والمتون الفقهية كمختصر سيدي خليل رحمه الله ومتن ابن عاشر ومتن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني ومتن الأخضري والعبقري في أحكام السهو، ومتن أسهل المسالك، وتحفة الأحكام لابن عاصم حيث يجتهد الطلبة في حفظها ويتولى هؤلاء العلماء والمشائخ تدريسها وشرحها وتوضيحها حيث يتسنى لطلبة العلم الإلمام بتلك الأصول والفروع الفقهية للمذهب المالكي بالإضافة إلى تدريس علم التوحد واللغة العربية وصحيح البخاري وموطأ الإمام مالك ولا يزال هؤلاء العلماء يحافظون على السند إذ يدرس صحيح البخاري طوال السنة ثم يحتفلون بختم البخاري حيث يروونه بسند من شيخ عن شيخ إلى البخاري رحمه الله.

ويعتمدون في تدريسهم للفقه وفقه الطريقة التي وسمها ابن خلدون "الطريف المفيد" حيث يقول (أعلم أن تلقين العلوم إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا فقليلا. إنما يحصل في ثلاثة تكرارات وقد يصل البعض في أقل من ذلك...)

لقد قام هؤلاء العلماء بجهود جبارة تستحق كل التقدير والاحترام لما قاموا به من خدمة الإسلام ودعم الوحدة الوطنية والمحافظة عليها وحمايتها من الذوبان.

فقد كانوا ينبذون الخلاف من أجل الخلاف وينبذون التعصب وكانوا يجتهدون في المسائل المستجدة والمستحدثة.

وقد تمثلت في جهودهم أيضا بما عرفت هذه المنطقة من حركة النسخ والتأليف حيث بلغ عدد المخطوطات بها 27000 مخطوط وذلك قبل عملية النهب التي تعرض لها المخطوط بهذه الديار وهي الآن تزيد عن 3000 مخطوط موزعة بين 29 خزانة تقليدية يمتلكها أفراد وأسر توارثوها أبا عن جد وتتناول هذه المخطوطات شتى العلوم والمعارف والفقه واللغة العربية وعلم الفلك والتفسير والحديث والتاريخ والنوازل.

أهم المؤلفات التي ألفها علماء المنطقة في المذهب المالكي:

1 - فتوحات الإله المالك في شرح أسهل المساك للشيخ مولاي الإدريسي.

2 - العقد الجوهري في شرح نظم العبقري لنفس المؤلف.

3 - العبقري نظم مختصر الأخضري للشيخ محمد بن آب الزموري الماخفي.

4 - ملتقى الأدلة الموضح للسالك على فتح الرحيم المالك للشيخ باي.

5 - شرح خليل لابن العالم الزجلاوي.

- إقامة الحجة بالدليل عن نظم ابن بادي عن مهمات خليل للشيخ باي.

7 - زاد السالك على أهل أسهل المسالك.للشيخ باي.

8 - كشف الجلباب على جوهرة الطلاب في علمي الفروض والحساب للشيخ باي.

التأليف الفقهي عند علماء توات أعلامه ومضامينه.
دراسة في مخطوط غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل أنموذجا.

د/ أحمد جعفري
الجامعة الإفريقية أدرار

يعتبر مخطوط «غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل» من أهم وأضخم المخطوطات التي استطاعت أن تجمع أكبر قدر من النوازل والفتاوى الفقهية التي حلت بأقاليم توات جنوب الجزائر ، وتدخل فيها كبار العلماء والفقهاء من الإقليم من أمثال : الشيخ سيدي عبد الرحمان بن باعومر 1189هـ، والشيخ الزجلاوي 1212هـ، والشيخ سيدي الحاج البلبالي1244هـ،وابنه الشيخ الحاج عبد العزيز 1261هـ، وغيرهم كثير، فجاء بذلك المخطوط جامعا بين دفتيه وفي ما يزيد عن السبعمائة صفحة من الحجم الكبير لكل ما وقع في هذه الأقاليم من القضايا والمسائل على مر العصور، وقد بدأ جمعه أولا في مجلد وعنوان واحد الشيخ سيدي الحاج بن عبد الرحمان البلبالي، ثم أكمل العمل بعد وفاته ابنه الشيخ سيدي عبد العزيز.ليكون ترتيبه بعد ذلك على يد الشيخ سيدي أحمد لحبيب بن أمحمد بن عبد الله بن إبراهيم البلبالي، ولا تكاد تخلو مكتبة من وجود نسخة من نسخه المتعددة في توات ، وقد وقفنا شخصيا على خمس نسخ منها. الأولى بخزانة البلبالين بقصر ملوكة غرب الولاية أدرار، والثانية محفوظة بخزانة البكريين بتمنطيط جنوب الولاية، والثالثة محفوظة بخزانة باعبد الله ضواحي المدينة أدرار حاليا، والرابعة بخزانة المطارفة شمال الولاية، والخامسة محفوظة حاليا بخزانة كوسام بأدرار .

ومخطوط الغنية وإضافة لأبعاده الاجتماعية و الاقتصادية التي طبعته في معظم مسائله إلا أن له أبعادا تاريخية وفقهية لا تقل أهمية عن الجوانب الأخرى، واستطاع بذلك جامعوه أن يؤرخوا لنا لمرحلة هامة من تاريخ الإقليم التواتي خاصة والمجتمع العربي عامة، واضعين إيانا في الوقت نفسه في صلب المنظومة الفقهية التي نظمت حياة الأفراد طيلة تلك الفترة.

وانطلاقا من أهمية الكتاب الذي لا يزال مخطوطا أولا، وحرصا منا على كسر جدار الصمت المضروب على كثير من تراثنا العربي المخطوط، جاءت فكرة بحثنا في تسليط بعض الضوء على جزء من مجموع ما انطبع به المخطوط في تقاطعاته الدينية و التاريخية بشكل خاص،على أمل أن يفتح الموضوع شهية المختصين في تناول المخطوط عامة تحقيقا ودراسة.

إن المتأمل بداية لمخطوط الغنية في اجتهاد منظريه من علماء الإقليم يجده مبنيا في أساسه على فكرة الشورى التي دفعت قاضي توات حينها الشيخ سيدي عبد الحق بن عبد الكريم[1] إلى تأسيس مجلس الشورى الذي انتدب له أربعة من كبار علماء وفقهاء الإقليم وقتها وكانت إجابتهم جميعا تدون في سجل خاص ومحفوظ عنده عرف بينهم ب"ديوان الشورى " أو "ديوان القضاء ". ومن الديوان نفسه كان القاضي الشيخ سيدي عبد الحق يستمد كل أحكامه القضائية في الفصل بين المتنازعين، أو الرد على السائلين. وبعد عملية التبويب والترتيب التي خضعت لها تلك الأجوبة والمسائل جُمعت مجددا لتكون سجلا تاريخيا ومرجعا قانونيا في حياة الإقليم.

لقد تضمن مخطوط الغنية في أبعاده التاريخية بداية العديد من التراجم وأخبار العلماء وبخاصة كبار الفقهاء والعلماء من أبناء الإقليم التواتي، ولعل من أهم الشخصيات التي ترجم لها المؤلف هو ترجمته للشيخ سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمان البلبالي(1244هـ)، وابنه الشيخ سيدي عبد العزيز(1261هـ)، إضافة إلى عديد الشخصيات العلمية والقضائية الأخرى في الإقليم من أمثال الشيخ سيدي أحمد زروق بن صابر البداوي الجعفري (1244هـ)[2]، والشيخ سيدي محمد بن أب المزمري(1160هـ)[3] والشيخ

1 - الشيخ سيدي عبد الحق (1210هـ) بن عبد الكريم بن البكري أخذ عن والده وعن الشيخ سيدي عبد الرحمان بن عمر، تولى القضاء بعد وفاة والده بأمر من عمه الشيخ سيدي محمد بن البكري سنة (1174هـ). يقال أنه كان يجيد عدة لغات ولهجات محلية منها العربية والزناتية والترقية والبربرية. توفى يوم الاثنين مطلع شهر ذي القعدة سنة (1210هـ) من آثاره مجموعة من القصائد الأدبية، وبعض الفتاوى المختلفة. ينظر ترجمته في: ومخطوط الدرة البهية. ص 101 و127.

2 - ينظر ترجمته في هذا البحث.

3 - الشيخ سيد محمد (1160هـ) بن أبّ المُزّمّري. ولد سنة (1094هـ) بقرية أولاد الحاج ولاية أدرار. نشأ في مسقط رأسه. تنقل رحمه الله بين عدة مدن وأقطار عربية وإسلامية، واستقر به المطاف أخيرا بمدينة تيميمون، وبها توفي شهيدا. في ظهر يوم الاثنين العاشر من جمادى الأخيرة سنة ألف ومائة وستتين هجرية (ت. 1160هـ) من آثاره المخطوطة أزيد من ثلاثين مخطوطا في مختلف العلوم.
ينظر ترجمته في: مخطوط تراجم شيوخ عبد الرحمان بن باعوامر، ص 40 وما بعدها.

سيدي أبي الأنوار بن عبد الكريم (1168هـ)[1]، والشيخ سيدي عبد الكريم الحاجب (1193هـ)[2] والشيخ سيدي عمر بن عبد الرحمان التنلاني[3]، وإلى هذا تضمن المخطوط أخبار شخصيات علمية أخرى أمثال : الشيخ سيدي امحمد بن عبد الله الأدغاغي الونقالي، والشيخ الحاج محمد بن أحمد الراشدي، والشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمان البلبالي، والشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمان بن عمر، والشيخ سيدي عمر الأصغر، وغيرهم كثير.

وبعيدًا عن التراجم والتأريخ لحياة علماء توات فقد أرخت المخطوطة أيضا لعديد الأحداث التي عرفها الإقليم في تلك الفترة أو قبلها، ولعل من أهمها حديث المؤلف عن الاقتتال الدائر بين بعض القصور والقبائل كمثل حديثه عن الهجوم[4] الذي شنته بعض القبائل في مطلع القرن الثالث عشر الهجري تقريبا على قصر بودة السفلانية وقصة هروبهم واحتمائهم بسكان قصر ملوكة وما جاورها.

عبد الرحمان بن باعومر. ومخطوط جوهرة المعاني في التعريف بعلماء الألف الثاني، ص 14. محمد بن عبد الكريم البكري. ومخطوط رحلة ضيف الله بن محمد بن أبّ، ص 11 وما بعدها. ومخطوط العي المصروم شرح نظم ابن أبّ لاجروم ص01. محمد بن بادي الكنتاوي. ومخطوط نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، ص 158. مولاي أحمد الإدريسي، وكتاب إقليم توات خلال القرنين 18 و19م، ص 99 وما بعدها. فرج محمود فرج. وكتاب محمد بن أبّ المزّمّري حياته وآثاره ص 59 وما بعدها.

1 - الشيخ سيدي أبي الأنوار (1168هـ) بن عبد الكريم بن أحمد بن يوسف التنلاني، ولد سنة 1077 بزاوية تنلان، وأخذ عن الشيخ سيدي محمد دين الله التطافي ثم سافر بعد ذلك إلى أرض التكرور، وتربع هناك على عرش التدريس والإفتاء فترة طويلة من الزمن. ولما رجع غلى تدكلت استقر في زاويته المشهورة التي تنسب إلى ولد ابتنه مولاي هيبة، وبهذه الزاوية توفى سنة (1168هـ) وقيل سنة (1158هـ). ينظر ترجمته في: مخطوط ترجمة وجيزة لبعض علماء توات. لحاج محمد بكراوي، ص 25، ومخطوط الدرة الفاخرة ص 03، وكتاب التاريخ الثقافي لإقليم توات، ص 89 وما بعدها. وكتاب الرحلة العلية إلى منطقة توات ج1، ص 35 وكتاب سلسلة النواة، ج1، ص 100 وما بعدها. وكتاب قطف الزهرات، ص 80.

2 - ينظر مخطوط الغنية ص 01 وما بعدها.

3 - ولد سنة 1152 هـ وتولى إمارة ركب الحجيج في توات وضواحيها، أسس زاوية في قصر مهدية، وهو الذي تولى القضاء والفتوى في أقاليم توات بعد وفاة الشيخ سيدي عبد الحق صاحب مجلس الشورى. توفى بقصر مهدية في 23 من جمادي الأخيرة سنة 1221هـ. ينظر ترجمته في: مخطوط جوهرة المعاني في التعريف بعلماء الألف الثاني، ص 06. ومخطوط الدرة الفاخرة ص 09.

4 - ينظر مخطوط الغنية ص 09 وما بعدها.

كما تحدثنا المخطوطة أيضا عن بعض النزاعات القبلية التي كانت تحدث بين بعض قصور الأقاليم التواتية، حيث كان البعض يحاول التقوي بالعلماء والسير وراء محبتهم، ونيل رضاهم لتحقيق الغرض، وهو ما كاد يقع للشيخ القاضي ولد سيد الحاج مع جماعة تيميمون في الخصومة التي وقعت بينهم وبين جماعة قصر بادريان، وهو ما تفطن له شيخ الإقليم القوراري وعالم قصر كالي آنذاك الشيخ مولاي امحمد بن مولاي عبد الحي الذي خاطب القاضي ولد سيد الحاج برسالة جاء فيها : " ...وبعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو على ما أسدى إليك هذا ، وإن موجبه إليك أن تعلم أنه قد انتشر صيتكم في أقاليم تجرارين فضلا عن أقاليمكم، فالواجب على مثلك الذي يريد عقل هذه النعمة أن يطيب مأكله ومشربه، وإن تشابه ذلك عنه فليقتصر على ما يسد به الرمق إن عضه الحلال وقلت ذات يده، وأن يحمد الله ويشكره بشرطه وهو الامتثال والاجتناب سرا وعلانية ... وقد بلغني أن جماعة تيميمون يريدون قدومك معهم لغزو أهل بدريان فإني أود أن تلتزم مكانك، وإن كان ولا بد فامتثل قوله تعالى وأمر بالصلح، ولكن إن قعدت فلا يظهر لك غير ما ذكرنا، وليس الخبر كالعيان، وناهيك بهذا وحسبك إياه والسلام ...فإني أرجو لك ما تمناه الشيخ الولي عبد الوهاب الشعراني في قوله :

يا لهف نفسي عن شيئين لو جمعا ۞ لي لكـنت إذا من أسعد البشر

كفاف عيش يغنيني ذل مسئـلة ۞ وخدمة العلم حتى ينتهي عمري"[1]

ومن ضمن القضايا التاريخية التي وقف عندها المخطوط عرضا وتوضيحا هذه القضية التي كانت متداولة في الإقليم التواتي قبل القرن الحادي عشر وإلى الآن، والمعروفة في ذاكرة العامة بواقعة " تنغ أبويا "[2] ومعناها بالعربية (قاتل أبي). و" تنغ أبويا " هو اسم لمصحف[3] مخطوط

1 - ينظر مخطوط الغنية ص 10.
2 - ينظرنهاية مخطوط الغنية.
3 - مخطوط المصحف كتبه إسماعيل به أحمد به حسان الأزهري بتاريخ الثلاثاء شهر جماد الأولى سنة 872هـ وموجود حاليا في قصر أركشاش أولف أدرار.

يعود نسخه إلى القرن التاسع الهجري،أخذ تسميته هذه - كما يقال - من قصة وقعت لرجل حلف على هذا المصحف وهو كاذب فمات لحينه . فجاء ابن الرجل الميت ونعت المصحف بقوله (تنغ أبويا) أي قاتل أبي.ومنذ ذلك الحين انتشرت هذه القصة وأصبح المصحف محكا حقيقيا لمعرفة الصادق من الكاذب في الإقليم، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل نسبت القصة في فتواها وحكمها الشرعي إلى الشيخ الجليل سيدي أبي الأنوار بن عبد الكريم(1168هـ) . ولما وقف الشيخ محمد ابن أب المزمري(1160هـ) على المسألة في تداولها بين العامة و نسبتها للشيخ أبي الأنوار راح يستفسر في القصة من الشيخ سيدي أبي الأنوار نفسه في جواز أمر الحلف بالمصحف أولا، وعن صحة نسب القصة والفتوى إليه ثانيا،وكان السؤال في شكل أرجوزة[1] جاء في مطلعها :

الحمد لله الذي قد ألهما ۞ أولي النهى تعظيم شأن العلما
ثم صلاته على محمد ۞ وآله وكل من به اهتدى
هذا سؤال جاهل فقير ۞ لله جان مذنب حقير
للشيخ سيدي أبي الأنوار ۞ العالم الوالي ذي الأسرار
بعد سلام طيب عميم ۞ عليكم ورحمة الكريم
نص السؤال أن ذ ا للبَلدا ۞ عادة أهلها إذا ما أرادا
أحدهم تحليف خصم بليا ۞ أن يجلب الخصم إلى تنغ ابويا

ولما وصل نص القصيدة السؤال إلى الشيخ سيدي أبي الأنوار بن عبد الكريم (1168هـ) رد عليه بأرجوزة[2] هو الآخر جاء فيها :

الحمد لله وصلى الله ۞ على الذي إلهه اصطفاه
وبعد فالجواب أنا الخصما ۞ يمنع أن يجلب خصما رغما

1 - ينظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات. ج 1، ص 100 وما بعدها، الشيخ باي.
2 - ينظر الرحلة العيلة إلى منطقة توات، ج 1، ص 101 وما بعدها، الشيخ باي.

إلى سوى ثلاثة المساجد ۞ فتلك قد ذكر غير واحد

أن لها يجلب في المقاسمة ۞ لا غيرها من كان ذا إقامة

والشيخ أبو الأنوار في معرض رده بيّن لسائله كل الخلافات والأوجه الممكنة في المسألة، ويشفعها قبل ذلك بأهم المصادر والمراجع التي تناولت المسألة أو ما يحاكيها .

ومن جملة ما نقف عليه في هذه المخطوطة أيضا هو حديث المؤلف عن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية عامة والأسرية خاصة في هذه الأقاليم .فعن الأسرة الصحراوية في هذه الأقاليم تتحدث المخطوطة[1] عن طبيعة تكوين هذه الأسر وحقيقة ما كان يدور من الأمور المتعلقة بالزواج والطلاق وما بينهما، فهي تخبرنا مثلا عن الخطبة وأهم شروطها وأحكامها، وكيف تتم بين المخطوبين، إضافة إلى الصداق وطبيعته مقدما ومؤخرا، وما كان يصحبه من عادة تقديم الهدايا بين المخطوبين في الأعياد والمناسبات .كما أن بعض النوازل الواردة في المخطوطة[2] تدلنا على ما كان يفعله بعض الآباء في هذه الأقاليم من منحهم الهبات لبناتهم من حرير وقطيفة وعقارات وما إلى ذلك في حال الصغر قصد تجهيزهن في حال الكبر .

ومن مظاهر الحياة الأسرية التي يؤرخ لها المؤلف أيضا ظاهرة الزواج المختلط بين الأجناس، وكذا طريقة زواج اليتيمة بعد رشدها، إضافة إلى سن الزواج الذي كان يبدأ مع الفتاة أحيانا من سن دون العاشرة[3]. كما يصور لنا أيضا بعض الوضعيات الخاصة للأسرة التواتية في أحكام الزواج وبخاصة البنت التي قطع عنها وليها النفقة، والتي كانوا يزوجونها أحيانا قبل البلوغ، ويكون وليها السلطان لأن أباها صار كالميت.[4] وفي الحياة الأسرية دائما يعطينا المؤلف نبذة تاريخية[5] عن بعض كبار النساء في الإقليم وما كن يتمتعن به من حرية في اختيار الزوج والوكيل أحيانا .

1 - ينظر مخطوط الغنية ص 11.
2 - ينظر مخطوط الغنية ص 15.
3 - ينظر مخطوط الغنية ص 11.
4 - ينظر مخطوط الغنية ص 11.
5 - ينظر مخطوط الغنية ص 11.

وفي الجانب الآخر من هذه الحياة الأسرية يؤرخ لنا المؤلف لكثير من المشكلات والنزاعات الأسرية عارضا أهم مظاهرها وسبل علاجها القانوني والشرعي أحيانا، من ذلك تمثيلا زيارة الأقارب والأهالي، وتباين الجنسين، وما يسببه كل ذلك من خلاف بين الزوجين، إضافة إلى تعدد الزوجات وصعوبة العدل بينهن وما إلى ذلك.

وفي هذا الباب أيضا نقف على صورة أخرى من صور العلاقات الأسرية بين الآباء وأبنائهم والتي لم تكن في مجملها علاقة حب وود، بل كانت تشوبها الخلافات أحيانا خصوصا عند أولئك الذين كانوا يرهنون مستقبل أبنائهم بمستقبلهم هم، فيشترطون مثلا عند زواج بناتهم بعض الاحتياجات والمطالب الخاصة بهم، ويرهنون بها موافقتهم على الزواج، وهو ما رأى فيه علماء توات خروجا عن الشرع والقانون، وأجازوا للبنت أن توكل عمها للعقد عليها[1]، وبهذه الطريقة تزوجت كثير من البنات وتخلصت من ربقة السيطرة الأبوية.

وفي هذا الجانب دائما يعطينا المخطوط صورة واضحة لطبيعة العلاقات التي كانت تربط علماء الإقليم خاصة مع غيرهم من علماء العواصم الإسلامية والتاريخية، وبخاصة علماء حواضر المغرب الشقيق كعلماء حاضرة فاس وسجلماسة وغيرهما .فهذا المؤلف نفسه الشيخ ولد سيدي الحاج وبعد استقباله لبعض الأسئلة يوجهها مباشرة لاستشارة عالم سجلماسة الشيخ سيدي أحمد بن عبد العزيز ويتلقى منه الجواب سريعا.[2]

وإلى هذه الجوانب جميعا يؤرخ لنا المخطوط أيضا لكثير من مظاهر الحياة الاقتصادية والدينية والعلمية في هذه الأقاليم، فهو يتحدث عن نظام السقي التقليدي والمعروف بنظام الفقارة[3] العجيب ونظام توزيعه الأعجب

1 - ينظر مخطوط الغنية ص 12.
2 - ينظر مخطوط الغنية ص 11.
3 - نظام الفقارة هو عبارة عن سلسلة من الآبار المائية المتصلة بعضها ببعض في شكل تصاعدي، لينتهي الماء أخيرا على سطح الأرض.

الذي أشاد به ابن خلدون[1] في تاريخه، إضافة إلى حديثه عن نظام الزراعة والغراسة. وفي الجانب الاقتصادي دائما يعطينا المؤلف نبذة عن كثير من الموازين والمكاييل المستخدمة، إضافة إلى أهم العملات النقدية التي كانت متداولة في الإقليم.

وفي الحياة العلمية والدينية يؤرخ لنا المؤلف لطريقة التدريس في الكتاتيب القرآنية وأهم مراحلها[2]، من افتتاح اللوح بحروف (أ ب ت ث) بحسب بداية الصبيان ثم بالتهجي إلى ثلث القرآن، لتبدأ مرحلة الحفظ إلى ختام سورة البقرة، ثم الرجوع من سورة البقرة إلى الختام، ثم الصعود مجددا. ليُطرح اللوح وتبدأ دراسة المتون والتفاسير المتخصصة والتي عددها المخطوط كتابا كتابا. وإضافة إلى هذا نجد المؤلف يتحدث عن أهم خزائن المخطوطات والكتب التي كانت في بيت العلماء والفقهاء وما احتوته من عناوين هامة.

وبالموازاة مع كل هذه الأحداث التاريخية فقد جاء مخطوط الغنية من أوله إلى آخره حافلا بالقضايا القانونية التي جاءت لتنظم حياة التواتيين في تلك المرحلة، وعاكسة في الوقت نفسه جل القضايا السائرة في معاملات الناس فيما بينهم من قوانين الأحوال الشخصية، وقوانين العقوبات مرورا بأهم القوانين المدنية، وكذا القوانين التجارية، وصولا إلى أهم قوانين الأحوال الشرعية وهذه عينة تمثيلية لا حصرية لأهم تلك الأبعاد الفقهية القانونية في هذه المخطوطة :

أولا : من قوانين الأحوال الشخصية :

تتحدث هذه النوازل في هذا الباب عن كثير من القوانين المنظمة لأحكام النكاح وتوابعه[3]، والطلاق وما يتعلق به[4]، والخلع ومتطلباته[5]،

1 - ينظر العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ابن خلدون، مج 7/ ج 13 ص 118 وما بعدها. دار الكتاب اللبناني 1983م بيروت لبنان.

2 - ينظر مخطوط الغنية ص 04.

3 - ينظر مخطوط الغنية ص 50 وما بعدها.

4 - ينظر مخطوط الغنية ص 40 وما بعدها وص 88 وما بعدها.

5 - ينظر مخطوط الغنية ص 84 وما بعدها.

وقوانين العدة[1]، والنفقات[2]، والحضانة[3]، والقسمة، و المواريث[4]، وفي كل مرة كان المؤلف يتعرض لنازلة من هذه النوازل إلا ووقف أولا عند أهم الأحكام المنظمة لها شرعا من ولي وصداق وعدة وما إلى ذلك من القوانين والشروط الأساسية لكل مسألة، والتي لم تكن تخالف في شيء يذكر أهم القوانين الوضعية المتبعة في هذا المجال.

ثانيا من قضايا القانون المدني :

ضمن المؤلف في هذا الجزء الكثير من القوانين المسيرة لأنظمة البيوع وما شاكلها[5]، و قوانين القرض و الرهن[6]، وشروط الصلح[7]، و الضمان و الحجر،و الضرر،و الوديعة، والرهن،والإرفاق[8]، وكذا متطلبات الوكالة والإقرار، وقوانين الإيجار،والحبس، والحيازات، وسائر العطايا[9]. وفي هذه المسائل القانونية جميعها لم يكن الشيخ يكتفي بعرض النازلة وحلها فحسب، بل كان يتعدى ذلك إلى الوقوف عند جملة من القوانين المنظمة لأي حكم .فهو في باب البيوع مثلا يقدم النازلة بادئا كما وردت في نص سائلها، ثم ينطلق من ذلك للتعريف بالبيع وأنواعه مثلا، ثم أهم الأحكام القانونية التي تنظمه في هذه الأقاليم.

وإلى هذا جميعا يقف القارئ لهذه النوازل على جملة أخرى من الأحكام والمسائل المنطلقة من عمق المنظومة القانونية التي كانت تحكم الإقليم من ذلك أهم **القوانين المتعلقة بمجال العقوبات** مثل قوانين السرقة والزنا، والغصب[10] وغيرها من أشكال الجريمة[11] التي كانت سائدة في الإقليم.

1 - ينظر مخطوط الغنية ص 120 وما بعدها.
2 - ينظر مخطوط الغنية ص 124 وما بعدها.
3 - ينظر مخطوط الغنية ص 136 وما بعدها.
4 - ينظر مخطوط الغنية ص 776 وما بعدها.
5 - ينظر مخطوط الغنية ص 32 وما بعدها، وص 57 وما بعدها.
6 - ينظر مخطوط الغنية ص 206 وما بعدها.
7 - ينظر مخطوط الغنية ص 222 وما بعدها.
8 - ينظر مخطوط الغنية ص 210 وما بعدها.
9 - ينظر مخطوط الغنية ص 700 وما بعدها.
10 - ينظر مخطوط الغنية ص 360 وما بعدها وص 718 وما بعدها.
11 - ينظر مخطوط الغنية ص 718 وما بعدها.

كما نجد أيضا قضايا متعلقة بأحكام القانون التجاري مثل مسائل الشركة، والإبراء والبيوع والإجارة والإكراء، ما شاكل ذلك[1] ويضاف إلى هذا أيضا عديد القوانين المتعلقة بقضايا الأحوال الشرعية كقضايا العتق والنذور وغيرها.

ولم تقف شهرة وأهمية المخطوط الفقهي التواتي عند حدود الأقاليم التواتية بل تعدته إلى أدغال إفريقيا كتراث عربي إسلامي عامة وإنساني خاصة. والحديث عن هذه الرحلة وما أعقبها من نتائج يقودنا حتما للحديث أولا عن أهم العوامل المساعدة في هجرة العلماء الجزائريين واستقرارهم بهذه المناطق الإفريقية، أولا ثم رحلة معظم المخطوطات الجزائرية إلى هذه البقاع وقصة دخولها إلى غالبية المكتبات والخزائن هناك.

تحتل الجزائر - بمساحتها الشاسعة والمطلة على أكبر العواصم الثقافية الإفريقية قديما - موقعا استراتجيا تتوسط فيه كبريات هذه العواصم، وفي الجهة الجنوبية المتاخمة للحدود الإفريقية يتربع الإقليم التواتي كجسر عبور وتواصل بين مختلف الشعوب القاطنة في شمال إفريقيا وفي جنوبها، وبذلك شكلت المنطقة -ومنذ أزمنة غابرة– خيط تواصل وعطاء بين هذه الشعوب جميعاً، ومن ثم انعكس الأمر إيجابًا على واقع المنطقة، فعرف إنسانها كيف يستغل الظرف ويستثمر هذه العناصر، ليشارك بها القطبين، الشمالي وشمال الجزائر والمغرب وتونس ومصر وليبيا، والجنوب بعواصمه التاريخية الكبرى كتمبكتو وكانو وشنقيط وغير ذلك.

كل هذا وغيره كثير "جعل الجماعات التواتية عبر تاريخها الطويل من أنشط الجماعات التي سكنت الصحراء... أوصلوا أسواق شمال المغرب العربي بأسواق الجنوب السوداني عن طريق القوافل الذاهبة والآيبة، ومع هذه القوافل اطلع التواتيون عن كثب على التيارات الثقافية والفكرية التي كانت شائعة عند عرب المشرق والمغرب. وفي نفس الوقت قام فقهاء

1 - ينظر مخطوط الغنية ص 138 وما بعدها وص 466 وما بعدها.

وعلماء توات بنقل ما عندهم من علوم ومعارف. "[1] كما ذكر القاضي الفع محمود كعت[2] أن كل جامعات الغرب الإفريقي ومساجده كانت خلال القرن الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر الميلادي حافلة بالطلبة والعلماء من منطقة توات. ويضيف السعدي[3] أن قائمة العلماء المشهورين في مساجد وجوامع مدن الغرب الإفريقي ومراكزه الحضارية يشكل التواتيون من بينهم نسبة تقارب النصف . ولهؤلاء جميعا مئات المخطوطات المتواجدة حاليا في خزائن ومكتبات مصر وموريتانيا ومالي والنيجر وغانا ونيجيريا .كما جاءت في فهارس مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن لصاحبها الدكتور أحمد زكي يماني . وقد شمل البحث بداية ستة خزائن ومكتبات عامة وخاصة، وفي أربع دول إفريقية هي (مالي، موريتانيا،غانا، نيجريا) حيث أننا وجدنا بمركزي مالي وحدها أزيد من 280 مخطوطا فقهيا لعلماء جزائريين فقط منهم قرابة ثمانين مخطوطا لعلماء تواتيين نذكر منهم :

محمد بن أب المزمري (ت 1160 هـ)، المختار بن أحمد بن أبي بكر(المختار الكبير 1226هـ، محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي 1241هـ 1826م، محمد بن عبد الكريم المغيلي 909هـ1503م، محمد عبد الكريم بن محمد بن أبي بكر التواتي، محمد بن مالك التواتي، التجاني بن محمد بن محمد بن الأمين التواتي 1367هـ 1947م، أحمد بن العبيد التواتي، أحمد بن عبد الله بن محمد بن الواحد البر يشي التواتي، محمد الحسن بن محمد بن الحاج أحمد بن محمد بن مالك التواتي، محمد المكيدي البحامدي التواتي، عبد الرحمان الرحيم بن قادة التواتي، عبد الرحمان بن محمد التواتي، عبد الرحمان التلمساني الرازي أبو زيد، محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم التواتي الزجلاوي، عبد الله بن عوف التواتي، أحمد بن عبد الكريم

1 - إقليم توات خلال القرنين 18 – 19 م، ص 113، فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1977م.

2 - ينظر: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، ص 15. تحقيق هوداس ودلافوس، مطبعة بردين باريس 1964.

3 - ينظر: تاريخ السودان، تحقيق هوادس، مطبعة بردين 1898م.

التواتي ، عبد الله بن الحاج محمد الصمد التواتي، الصديق بن أحمد التواتي، أحمد بن عبد القادر التواتي.

أما عن أعلام الحركة الفقهية عموما فنجد القائمة أكثر من أن تحصر في ورقات بحث لكن مع هذا آثرنا الوقوف عند هذه العينة تمثيلا لا حصرا ومن هؤلاء :

الشيخ سيدي أبي الأنوار(1168هـ) بن عبد الكريم بن أحمد بن يوسف التنلاني، ولد سنة 1077 بزاوية تنلان، و توفي سنة. (1168هـ) وقيل سنة (1158هـ).

الشيخ سيدي أحمد (1078هـ) بن يوسف.ولد بقصر أولاد ونقال سنة (1002هـ) ثم انتقل إلى تنلان القديمة (رزق الله الواسع) في يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر رمضان سنة (1058هـ). توفي سنة (1078هـ) من آثاره المخطوطة وصيته في تأسيس زاويته الشهيرة، بالإضافة إلى بعض التقايد المختلفة. كما ينسب له مخطوط في علم الأنساب بعنوان (التودد) وهو مخطوط مفقود.

الشيخ سيدي أحمد (1245هـ) زروق بن صابر البداوي الجعفري وينتهي نسبه إلى السيد عبد الله بن جعفر الطيار بن أبي طالب .لقب بأبي العباس. أخذ عن الشيخ سيدي امحمد الونقالي وعن الشيخ سيدي محمد بن احميد الزجلاوي. سافر لفاس وأخذ عن علماء أجلاء منهم الشيخ التاودي. تولى القضاء بفاس وبإقليم توات. توفي على الأرجح يوم الأربعاء السابعة عشر من شهر رمضان عام (1245 هـ) وقيل سنة(1244هـ).

الشيخ سيدي أمحمد(1261هـ) بن أحمد البَدَاوي. ولد بتمنطيط ليلة السبت 18 ذو الحجة سنة (1228هـ)، من أهم آثاره ترتيب أبواب الشورى، توفي عن سن الثالثة والثلاثين، وهو في طريقه إلى الحج بين منطقتي غدامس و تدكلت من الصحراء الجزائرية سنة (1261هـ).

الشيخ سيدي البكري (1133هـ) بن عبد الكريم بن امحمد ولد في يوم 12 من رمضان 1042هـ. رحل إلى تونس في طريقه إلى الحج فأسس بها

زاوية ومنها رحل إلى ليبيا فمصر وهناك اتصل بعلماء كبار منهم : سيدي أبي عبد الله الخرشي مفتي الديار المصرية وقتها، ومن مصر توجه إلى البقاع المقدسة حاجا. وبعد عودته إلى أرض الوطن أسس زاوية أخرى بإقليم الزاب .ثم رحل بعد ذلك إلى تقرت ومكث فيها مطولا. ثم عاد بعدها إلى تمنطيط وتولى بها قضاء الجماعة بتوات سنة(1092هـ). توفي قرب الزوال من يوم الأحد الثاني من شهر ذي القعدة سنة (1133هـ).

الشيخ سيدي بلقاسم (ق 10هـ) المعروف ب(سيدي الحاج بلقاسم من آثاره : مخطوط بعنوان منهاج السالكين، بالإضافة إلى أزيد عشرة منظومات شعرية في التوحيد، والفقه،

الشيخ سيدي عبد الحق (1210هـ) بن عبد الكريم بن البكري توفي يوم الإثنين مطلع شهر ذي القعدة سنة (1210هـ) من آثاره مجموعة من القصائد الأدبية، وبعض الفتاوى المختلفة.

الشيخ سيدي عبد الرحمان (1160هـ) الجنتوري القُرَاري . من آثاره ما ذكره له الشيخ سيدي ضيف الله في رحلته ومنه : منظومة في التوحيد، وشرحه عليها، وشرح على مختصر خليل، وله نظم في الفرائض، ورجز في علم الكلام، وتآليف في التصوف، وما لا يعد ولا يحصى من الرسائل والأجوبة ردا على قضاة وقته، وله طُرَرٌ كثيرة على جميع شُرّاح المختصر وغيره، وكذا حاشية مستقلة عن الشيخ عبد الباقي الزرقاني، بالإضافة إلى قصائد شعرية لكنها غير واضحة من جراء ما أصابها من تلف . ونوازله التي جمعها تلميذه الشيخ سيدي محمد بن أحمد بن عبد العزيز المسعدي الجراري.

الشيخ سيدي عبد الرحمان (1189هـ) بن عمر التنلاني..توفي بمصر أثناء عودته من الحج وكان ذلك تحديدا في اليوم التاسع والعشرين من صفر سنة (1189هـ) ودفن بمقبرة الشيخ سيدي عبد الله المنوفي بمنطقة قايَتْبَايْ ضواحي القاهرة .من آثاره : مخطوط مختصر الدر المصون في إعراب الكتاب المبين . مخطوط تراجم شيوخه . مخطوط مختصر النوادر في الفقه . بالإضافة إلى تقيدات فقهية مختلفة وقصائد شعرية عدة.

الشيخ سيدي عبد الكريم (1042هـ) بن أمحمد التواتي ولد سنة (994هـ) كان إماما عالما تولى قضاء الجماعة بتوات توفي ليلة الإثنين وقت صلاة المغرب (23) من شهر شوال سنة (1042هـ) من آثاره مخطوط الرحلة. ومخطوط آخر شرح فيه مختصر الدماميني.

الشيخ سيدي عبد الله (1261هـ) بن سيدي محمد عبد الله بن سيدي عبد الكريم الحاجب . .توفي سنة (1261هـ) من آثاره : شرح على ابن جماعة، وحاشية على مختصر فقهي،إضافة إلى تقاييد مختلفة .

الشيخ سيدي عمر (1152هـ) بن سيدي الحاج عبد القادر التواتي ولد عام (1098هـ) و درس بفاس و أخذ عن الشيخ محمد بن أحمد المنساوي ومحمد بن عبد الله الفلالي، ومحمد بن ذكري الفاسي .كان عالما فقيها ونحويا .تولى التدريس بجامع القرويين بفاس وانتقل منها عائدا إلى أرض توات سنة (1129هـ) .وتولى قضاء الجماعة بتوات .. توفي عشية الأربعاء الثالث من ربيع الأول سنة (1152هـ).

الشيخ سيدي محمد بلعالم الزجلاوي (1212هـ) ولد في قصر زاجلو المرابطين وبها نشأ على يد أبيه سيدي امحمد. كان الشيخ أحد أعضاء مجلس الشورى بمجلس قضاء سيدي عبد الحق بن عبد الكريم التمنطيطي، وهو ما أهله لجمع نوازل والده سيدي امحمد وترتيبها وأضاف لها نوازل سيدي عمر بن عبد القادر التنلاني، ونوازل سيدي عبد الرحمان بن باعومر توفي بمسقط رأسه يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر شوال سنة (1212هـ). من آثاره مخطوط النوازل في الفقه .وألفية في غريب القرآن وشرحه عليها، وكتابه الوجيز شرح مختصر خليل، وصل فيه إلى المرابحة، وكتاب المباشر على ابن عاشر. وكتاب شرح على التلمسانية في الميراث بالإضافة إلى تقييدات مختلفة.

الشيخ سيدي محمد (1160هـ) بن أُبّ المُزّمّري. تُوفي شهيدا . في ظهر يوم الاثنين العاشر من جمادى الأخيرة سنة ألف ومائة وستين هجرية (ت.1160 هـ) بعدما أصيب بمرض الصرع . من آثاره المخطوطة أزيد من ثلاثين مخطوطا في مختلف العلوم.

الشيخ سيدي محمد (909هـ) بن عبد الكريم المغيلي.

الشيخ سيدي محمد (1241هـ) بن المختار الكنتي.

الشيخ سيدي محمد الصوفي بن أبو امحمد بن أحمد بن أبي بكر البادرياني أسس الشيخ سيد الحاج محمد الصوفي زاويته المشهورة ببادريان في القرن الحادي عشر بتاريخ التاسع من شهر صفر عام ثلاثة وثلاثين وألف (1033هـ) وكان ذلك بنص وصية مشهورة ومعلومة .

الشيخ سيدي المختار(1226هـ) بن سيدي أحمد بن أبي بكر الكنتي ولد سنة (1142هـ).من آثاره عشرات المخطوطات في مختلف

الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي .

الشيخ سيدي لحبيب بتاسفاوت

الشيخ سيدي محمد عبد العزيز بن سيدي علي بن محمد عبد العزيز بن محمد فتحا ابن محمد بن عمر صاحب الزاوية المهدية مسقط رأسه بالمهدية من قرى توات صحراء الجزائر.سنة 1342 هـ

مفتاح العلوم في شرح ثلاثة من خير أنواع الفهوم

الشيخ باي بالعالم القبلوي الجزائري (المالكي المذهب) ولد عام (1930م) في قرية (ساهل) من بلدية (اقبلي) بدائرة (أولف) بولاية (آدرار) بجنوب الجزائر.

من مؤلفاته : في الفقه المالكي :

01 ـ زاد السالك شرح أسهل المسالك.(جزءان) .

02 ـ ملتقى الأدلة الأصلية والفرعية الموضحة للسالك على فتح الرحيم المالك (أربعة أجزاء).

03 ـ فتح الرحيم المالك في مذهب الإمام مالك (نظم يحتوي 2509 أبيات).

04 ـ الجواهر الكنزية نظم متن العزية .

05 ـ الاستدلال بالكتاب والسنة النبوية شرح على نثر العزية ونظمها الجواهر الكنزية.

06 ـ السبائك الإبريزية شرح على الجواهر الكنزية .

07 ـ فتح الجواد على نظم العزية لابن باد .

08 ـ الكوكب الزهري نظم مختصر الأخضري .

09 ـ الإشراق البدري شرح الكوكب الزهري .

10 ـ المباحث الفكرية شرح على الأرجوزة البكرية .

11 ـ أنوار الطريق لمن يريد حج البيت العتيق (مناسك).

12 ـ إقامة الحجة بالدليل شرح على نظم ابن بادي على مهمات من مختصر خليل (أربعة أجزاء).

13 ـ مرجع الفروع إلى التأصيل من الكتاب والسنة والإجماع الكفيل شرح نظم الشيخ خليفة بن حسن السوفي على مختصر خليل المسمى جواهر الإكليل (عشرة أجزاء).

أصول الفقه :

01 ـ ركائز الوصول على منظومة العمريطي في علم الأصول .

02 ـ ميسر الحصول شرح على سفينة الأصول.

الخاتمة :

وفي الأخير وجب التذكير أولا إلى أنه قد ورد في مخطوطه درة الأقلام، لمؤلفه الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم ص08 وما بعدها، أنه في سنة 890 هـ ورد ولد الباي من طرابلس وطاف بتوات ومعه عشرة من العلماء، كل واحد منهم يحفظ خليل وبعض أصول المذهب كالبيان والتحصيل وا بن الحاجب وعلم المعاني والبيان، وتبعهم من علماء توات في رحلتهم داخل الإقليم سيدي علي بن عبد الله، وسيدي محمد بن العالم وسيدي امبارك بن احمد إلى بدريان.

ويضيف صاحب مخطوط الدرة أنه " أن الشيخ سيدي سالم العصموني بن محمد بن أبي بكر المولود سنة 810هـ نزل بتمنطيط وهو الذي جاء بمقادير المكايل والموازين وضبط قوانين الشرع وسار فيها بسيرة العدل.

كما ذكر المرحوم الشيخ باي نقلا عن عدد من المخطوطات أن أول من أدخل مختصر خليل لتوات هو السيد ميمون بن عمر وكان ذلك سنة 900هـ، وأول من تولى شرح خليل هو الشيخ سيدي محمد بن العالم الزجلاوي، كما شرحه أيضا سيدي عبد الكريم بن امحمد التواتي ولم يتمه. و أن أول من جمع نوازل تضم مجموعة من المسائل في توات هو الشيخ سيدي عبد الرحمان بن ابراهيم الجنتوري.

هذا عن الحركة الفقهية أما عن مخطوط غنية المقتصد السائل فإنه وبشهادة كثير من الدارسين يعتبر بحق من أضخم أمهات الكتب التي أرخت وقنّنت لكثير من القضايا والمسائل التي نزلت بتوات، وحكمت المجتمع خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين وما قبلهما، كما أن هذه النوازل جميعها جاءت لتعطينا صورة واضحة عن ديوان الحكم في الإقليم، الذي بُني أساسا على فكرة مجلس الشورى الرباعي – كما رأينا – وليكون هذا الديوان في توحيد آراء العلماء حوله ،واجتماعهم على الإجابة الواحدة فيه،وجمعهم لكل ذلك في مخطوط واحد أعظم وأهم منظومة

قانونية استطاعت أن تؤرخ لكثير من مراحل الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها بالإقليم.

ومن ناحية المضمون فإن مخطوط الغنية قد وظف جملة من مصادر التشريع المالكي[1] المعروفة والمتداولة في أقاليمنا المغاربية على الأقل وقد فاقت الثلاثين مصدرا من مصادر التشريع والتأريخ العالميين نذكر من ذلك تمثيلا لا حصرا : كتاب الواضحة لأبي مروان الأندلسي (ت 238)، ومدونة الإمام سحنون (ت240هـ)، وكتاب ابن المواز الإسكندراني (ت269هـ)، والرسالة لأبي زيد القيرواني (ت 386هـ)، وكتاب الإعلام بنوازل الأحكام للإمام ابن سهل (ت486هـ)، ونوازل ابن رشد (ت 520هـ)، وكتاب النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام للقاضي أبي الحسن علي بن عبد الله الفاسي، وكتاب مجالس المكناسي أو مجالس القضاة والحكام وغيرها من أمهات المصادر التشريعية والقانونية .أما في الجانب التاريخي فلم تغب الإشارة في هذه المخطوط إلى بعض مصادر التاريخ التواتي خاصة التي سادت وانتشرت قبل القرن الثالث عشر واستفاد منها المؤلف في عرض كثير من مواده التاريخية، كمخطوطات الشيخ سيدي عبد الرحمان التنلاني التي أرخ فيها لرحلاته العلمية داخل وخارج الوطن، والتي عدد فيها جملة من شيوخه في فاس وسجلماسة وغيرها، إضافة إلى مجموع الإجازات التي خطها ومنحها الشيخان أبو عبد الله سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمان البلبالي(1244هـ) وابنه الشيخ سيدي عبد العزيز (1261هـ)،وتضمنت كثيرا من الأخبار، ويضاف إلى هذه المصادر التاريخية التي اعتمدت عليها الغنية أيضا مخطوط الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية لمؤلفه الشيخ سيدي عبد القادر المهداوي ،الذي هو عبارة عن كتاب تراجم لعديد الشخصيات العلمية وغيره كثير.

لهذه الأسباب وغيرها كثير كانت الغنية ولا تزال في كثير من تقاطعاتها المعرفية واهتماماتها القانونية والتاريخية المشتركة مصدرا أساسيا من

1 - ينظر: غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل دراسة وإخراج أمحمد الدباغ وآخرون، ص 13 وما بعدها. وحدة بحث الجامعة الإفريقية، أدرار / الجزائر.

مصادر التشريع والتأريخ معا في أقاليم توات ،وما جاورها من بقية الأقاليم العربية والإسلامية ، وما كثرة نسخها التي لا تخلو خزانة منها رغم حجمها الكبير جدا من جهة ، وما تداولها بين علماء وطلبة المدارس والزوايا القرآنية وإلى الآن، إضافة إلى مرجعيتها التاريخية والتشريعية عند كثير من الكتاب والمؤرخين المحدثين من جهة أخرى إلا خير شاهد على ما نقول.

مختصرات الفقه المالكي
وجهود علماء توات في خدمتها

أ/ زهير بن عبد الرحمان قزان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين

وبعد:

فإن التأليف في الحقيقة ليس مجرد رقم الحروف بالمعارف الكامنة في نفس المؤلف لأن رسالتها الحضارية أكبر من هذا بكثير، فالتأليف بريد أمين من حقبة زمنية لأخرى وهو عنوان مناسب لمحتوى الحضارات وأستاذ بارع في ساحة صناعة التعليم، لذلك اعتنى علماء المسلمين به أيما اعتناء في مشارق الأرض ومغاربها وعبر مختلف العصور وفي شتى ميادين المعرفة، وقد كان اعتناؤهم بتدوين المعارف الفقهية أشد حتى أن الكتب المصنفة في هذا العلم أكثر من أن تحصى ولا يمكن أن تستقصى.

وقد أدرك علماء منطقة توات قيمة التأليف وأهميته في حياة طالب العلم وفي بناء الصرح الحضاري للأمة فراحت أقلامهم تخط ما حوته صدورهم وأبدعته عقولهم ورتبته أفكارهم من معارف علمية، وكان للمباحث الفقهية والمعارف الأدبية الحظ الأوفر والعناية الخاصة.

أما المباحث الفقهية فلتجدر الصبغة الدينية في طباع الفرد التواتي وتماشي العلاقات الاجتماعية في خط ديني تتحكم فيه الأحكام الشرعية والمباديء الدينية مع ما اتفق لهذه البلاد بوصفها " أرض جدب وقلة مع بركة وقناعة وأمان وعافية تتهيأ فيه العبادة والديانة والرياضة والزهادة "[1]، وأما الفصول الأدبية فإن الطبيعة الصحراوية القاسية والصعبة اقتضت رسوخ الفن الأدبي في الأفكار لاحتوائه على الأساليب اللطيفة والأغراض العفيفة مع سرعة سريانه إلى القلوب واستعماره للأفكار ما يُهَوِّن صعاب الصحراء ويدفع قساوتها.

1 - البسيط في أخبار تمنطيط ص 11

فعرفت المنطقة مشاركة في مجال التصنيف الفقهي باختلاف أشكاله وتنوع أسبابه وتغاير مناهجه، والحالة أن علماء المنطقة في كل ذلك لم يخرجوا عن مذهب الإمام مالك ولم يخالفوا المعتمد والمشهور إلا بقدر الضرورة والحاجة الملحة، لهذا جاءت عنايتهم بكل كتاب التزم ما به الفتوى في المذهب عناية خاصة أمسكت بطرفي الاهتمام جهة الدراسة والتدريس وجهة التأليف عليها بما يلائم تطويرها على مر الدهور وتعاقب أجيال العصور ؛ ولما كانت مختصرات المذهب المالكي قد حوت أمهات المسائل موافقة لمشهور المذهب وراجحه في أكثر الأحيان لم يتوانى فقهاء منطقة توات في إعطائها عناية خاصة في مجالي الدراسة والتدريس وفي مجال التأليف عليها، جاءت هذه المداخلة لإلقاء بصيص من هذا الاهتمام وتلك العناية في مبحثين الأول حول مختصرات المذهب المالكي والثاني حول جهود علماء توات في خدمتها.

المبحث الأول : الاختصار والمختصرات في المذهب المالكي:

المطلب الأول : التعريف بالاختصار

الاختصار في اللغة الوجازة جاء في لسان العرب اختصار الكلام إيجازه والاختصار في الكلام أن تدع الفضول وتستوجز الذي يأتي على المعنى وفي القاموس اختصار الكلام أوجزه والطريق سلوك أقربه ونحوهذا عند الجوهري في الصحاح قال اختصار الطريق سلوك أقربه واختصار الكلام إيجازه[1].

أما اصطلاحا فقد تعددت العبارات الدالة عليه والحقيقة أن مصطلح المختصر تطور عبر مختلف مراحل سير المذهب المالكي، فبالنظر إلى وجود حقيقته لا يمكن أن نفصله عن وجود كتب المذهب فموطأ الإمام هومختصر من مرويات الإمام مالك للحديث النبوي، وكذلك المدونة فإنها مختصر سماعات ابن القاسم لهذا نجد في العتبية من سماعات ابن القاسم مسائل كثيرة غير موجودة في المدونة وربما تعارضت الروايتان، ومع

1 - الاختصار والمختصرات في المذهب الماكي ص 20 و ما بعدها .

ظهور القرن الثالث ظهر لفظ المختصر عنوان لمصنفات عبد الله بن عبد الحكم المصري لكنها في حجمها كبيرة جدا حتى أن المختصر الصغير الذي اقتصر فيه على علم الموطأ بلغت مسائله ألفا ومائتي مسألة ولعل السر في إطلاق لفظ المختصر على مثل هذا النوع من الكتب قول مؤلفيها " هذا مختصر لما سمعته من شيوخي مرارا جمعته مدونا في هذه الأسفار " فتكون المختصرات في هذه المرحلة أطلقت على نفس التصنيف بشكله الأول تسند فيه الأقوال إلى أصحابها بالسند إليهم وبصيغتها الفقهية الأصلية عبارة عن أسئلة وإجابة العالم عليها ثم تبدأ عجلة الاختصار تسير في منحنى تصاعدي بدأ بحذف الأسانيد وإخراج الفقه من صورة الأسئلة وأجوبتها إلى سرد الأحكام من الأسئلة ووضعها في باب واحد لكن حجمها بقي كبيرا فقد جاء تهذيب المدونة لابن أبي زيد القيرواني ضخم الحجم وكذلك تهذيبها للبرادعي ونحوهما، ولم يخلوا الأمر في القرن الرابع من وجود بدايات الاختصار كما نعرفه اليوم فرسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر الطليطلي تعتبران من طلائع منهج الاختصار ويلحظ عليها أن الحجم كان يراعي المخاطب فالرسالة للصبيان وتهذيب البرادعي للكبار ونفس المدونة للعلماء فالمختصرات في هذه المرحلة عبارة عن مصنفات جامعة لمسائل الفقه في أسلوب سهل وبسيط دون مراعاة الحجم، ثم مع تبلور الأحكام في المذهب المالكي وتعدد الأقوال أصبحت الحاجة ماسة إلى كتاب جامع للمسائل يقف عند الروايات المشهورة والأقوال المعتمدة يكون حمله خفيفا وحفظه ممكنا فجاءت عدة كتب تحاول تحقيق المقصود كالتلقين للقاضي عبد الوهاب والكافي لابن عبد البر ثم الجواهر الثمينة لابن شاس وبعده مختصر ابن الحاجب جامع الأمهات وما زال الآخر يستدرك على الأول قولا أورواية أوإطناب في غير محله أوإيجاز بعيد عن موضعه حتى جاء مختصر خليل ليصبح الاختصار عبارة عن إيراد المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.

المطلب الثاني : دور المختصرات في المذهب المالكي

من المؤكد أن الفقه المالكي لم يكن زمن الإمام مالك بالصورة التي نعرفه به اليوم فلم يروي أحد عن مالك أن فرائض الوضوء سبعة ولا سننه ثمانية ونحوذلك من الترتيب المتعارف عليه اليوم، وإنما سئل مالك عن مسائل جمعها أصحابه وتلاميذهم من بعده، ثم جاء علماء قاموا بتخريج أحكام فقهية من أقوال الإمام مالك والروايات عنه يراعون في ذلك القول المتفق على روايته والأقوال المتعارضة فيقيدوا العموم ويخصصوا المطلق فظهر في المذهب أقوال متعددة في المسألة الواحدة ففي فرائض الوضوء مثلا قيل أنها أربعة وقيل خمسة وقيل ستة وقيل سبعة وقيل ثمانية وقيل تسعة وقيل عشرة والذين قالوا ستة مثلا اختلفوا فيها وهكذا فصار لزاما عرض تلك الأقوال على نصوص الشرع لمعرفة الأقوى دليلا فيترجح وصار النظر في اختيارات أعلام المذهب لقول حتى يصير مشتهرا بينهم دليل على رجحانه فظهر في المذهب مصطلح الراجح والمشهور والضعيف والشاذ والقوي والمعتمد وصرنا نفرق بين الروايات والأقوال فقام بعض العلماء بالتصنيف في المذهب المالكي مقتصرين على ما تكون به الفتوى دون باقي الروايات في أسلوب لغوي بليغ يحذف فيه تكرار الألفاظ والعبارات وينوب عنها الضمائر وتلك هي المختصرات في صورتها النهائية، فلقيت رواجا في أوساط المصنفين وقبولا عند الطلبة حتى قال القائل

قصدت إلى الإيجاز في كلامي لعلمي بالصواب في الاختصار
ولـــم أحـذر فهوما دون فـهمي ولكـــن خـــفت ازدراء الكبـــار
فشـأن فحـولة العلمـــاء شـــأني وشـــأن البســـط تعليم الصغـــار

الأمر الذي جعل بعض علماء المذهب يرفضون هذا المنهج من التصنيف الفقهي فقد أثر عن أبي بكر بن العربي إنكاره وعده مضيعة للعمر في غير طائل وكذلك رفض أبوعبد الله محمد بن أحمد المقري الاختصار فيقول منكرا على أهل زمانه " ثم كلّ أهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والأصول الكبار فاقتصروا على حفظ

ما قل لفظه ونزر حفظه وأفنوا أعمارهم في حل لغوزه وفهم رموزه ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح "[1]، وحكاية أبي العباس القباب مع ابن عرفة مشهورة وذلك أنهما لما التقيا في تونس عرض ابن عرفة على القباب ما كان قد شرع فيه من مختصره فقال له القباب ما صنعت شيئا فقال ابن عرفة ولِمَ قال لا يفهمه المبتديء ولا يحتاج إليه المنتهي وكذلك كان موقف أبي إسحاق الشاطبي، ولم يتساهل العلامة عبد الرحمان بن خلدون مع المختصرات فقد اعتبرها سبب دروس العلم والإخلال بالتعليم فقد عقد في مقدمته فصلا في بيان أن كثرة الاختصار الموضوعة في العلوم مخلة بالتعليم ؛ غير أن أكثر العلماء رعوا الدور الذي تلعبه المختصرات كونها سهلة الحفظ جامعة لمسائل كثيرة فقرروها في حلقات دروسهم واستفرغوا الوقت والجهد في دراستها وتدريسها وشرحها والتعليق عليها .

المبحث الثاني : جهود علماء توات في خدمة مختصرات المذهب المالكي:

المطلب الأول : الدراسة والتدريس

إن النسق الدراسي والتدريسي لمختصرات المذهب المالكي في إقليم توات دليل على المستوى الراقي الذي وصل إليه الفكر التربوي لدى علمائه وعلى تطور المناهج الدراسية. فبعيدا عن النظرة الساذجة إلى المختصرات الفقهية وبنظرة ثاقبة إليها في حلقات دروس الفقه بتوات سنجدها تسير بالطالب في سلم الأمان الفكري فمراعاة متن معين في سنّ معينة يدرس بطريقة معينة لهودليل على ذلك، وبرصد هذا النسق الدراسي التدرسي للمختصرات نستلهم مباديء التعليم نتطرق إليها في النقاط التالية :

أولا : المقررات الدراسية :

بتتبع كتب التراجم وسير العلماء والفهارس سنجد المختصرات التي كانت تدرس في منطقة توات وهي :

1 - المعيار المعرب (2/480) .

1 ـ مختصر الأخضري : للشيخ عبد الرحمان بن محمد الصغير أبي زيد الأخضري وهوكتاب نثري صغير الحجم عميم النفع اشتمل على مهمات مسائل العبادات وصل فيه مؤلفه إلى باب السهوبألفاظ واضحة وعبارات بسيطة وأسلوب سهل متخذا من مشهور المذهب مادة بناء مختصره بحيث يفتتح به طالب العلم أقفال ذهنه ومستغلقات عقله ويروض نفسه على دراسة أصول مسائل الفقه، ولا تحدد لنا المصادر والمراجع تاريخ دخوله إلى المنطقة ولا سببها والظاهر أنها كانت منذ بزوغ نوره إلى الوجود، وذلك إذا علمنا أن الشيخ الأخضري توفي أواخر القرن العاشر وأن الشيخ سعيد قدورة الجزائري الذي عاش أواخر القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر قد وضع شرحا على سلم المنطق للشيخ الأخضري وعلاقة الشيخ سعيد قدورة بإقليم توات قوية اتصلت بالتتلمذ والمشيخة على بعض أعلامه.

2 ـ المرشد المعين إلى الضروري من علوم الدين : تأليف الشيخ عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري وكتابه هذا نظم بديع لم يسبق إلى مثاله ولا نسج كاتب على منواله في الاختصار وكثرة الفوائد مع موافقة المشهور والجمع بين أصول الدين وفروعه وضع الله له القبول فلا تخلوا جعبة طالب علم من حفظه ولا تخلوا مدرسة من وضعه من المقررات الرئيسية، وأول ما نلحظه في حلقات دروس توات عند الشيخ عمر بن عبد القادر التنيلاني الذي أخذه عن شيخه محمد بن أحمد المسناوي عن الشيخ عبد القادر الفاسي عن ناظمه الشيخ عبد الواحد بن عاشر.

3 ـ أسهل المسالك : تأليف محمد البشار وهونظم وافق مضمونه اسمه فسهّل الطرق والمسالك لمن رام التفقه على مذهب الإمام مالك، اختار ناظمه أبين الكلمات وأبسط العبارات وأيسر الأساليب في كامل أبواب الفقه، اعتمده الشيوخ والطلبة في الآونة الأخيرة بالمنطقة، وإن كنا لا نعلم بالتحديد سند علمائنا إلى مؤلفه ولا طريقة دخوله إلى البلاد، لكننا نجده في حلقات دروس الشيخ مولاي أحمد الطاهري وتلاميذه من بعده وعرف رواجا في أوساط

طلبة شيخ الإسلام سيدي محمد بلكبير، وذلك والله أعلم أنهم لما رأوا الهمم قد قصرت والنفوس إلى السهولة قد مالت اعتمدوه تيسيرا على الطلبة.

4 ـ الرسالة الفقهية : تأليف الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المتن المشهور في أوساط العلم، وبالبركة في فقه دارسه معلوم، وهومتن نثري مركز جمع من المذهب معتمده، ومن المسائل محررها في ألطف أسلوب وأجمل العبارات وأدق الكلمات فلم يأتي عالم بعدها بمثلها ولا وضع القبول لكتاب بمثابتها، معظمة في نفوس الطلبة والعلماء كعظمة صاحبها في زمانه بين الملوك وأقرانه فضلا عن طلبته والعامة، والظاهر أن دخولها إلى المنطقة كان قديما إلى الإقليم، وإذا حاولنا أن نسندها في المنطقة فإن المصادر تسعفنا بالتعريف بأقدم شخصية دخلت توات مولاي سليمان بن علي المتوفى سنة (670 هـ) الذي يكون قد أخذها عن شيخه علي بن حرزهم عن أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي عن والده أبي محمد عبد الله بن محمد بن العربي عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عتاب عن أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني عن مؤلفها أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، ونجدها في حلقات دروس كل علماء المنطقة منذ القديم فقد درسها الشيخ عبد الكريم بن محمد بن أبي محمد التواتي على الشيخ عبد الحاكم بن عبد الكريم الجراري عن والده عبد الكريم بن أحمد الجراري عن محمد بن عبد الله الدقاق الفاسي عن أبي الفتوح البغدادي عن المناوي عن أبي بكر بن صدفة عن شمس الدين الغماري عن خليل بن إسحاق عن المنوفي عن زين الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمان الشهير بالقوبع عن يحي بن الفرج عن ابن خلدون عن ابن عبد السلام عن ابن هارون عن أبي القاسم أحمد بن يزيد التونسي عن أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان الخزرجي القرطبي عن أبي عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع عن أبي محمد مكي بن أبي طالب عن مؤلفها ابن أبي زيد القيرواني .

5 ـ مختصر خليل : للشيخ خليل بن إسحاق الجندي المصري، ومختصره هذا متن نثري عظيم الجدوى بليغ الفحوى مبين لما به الفتوى جمع الاختصار في شدة الضبط والتهذيب وأظهر الاقتدار في حسن المساق والترتيب ما عُلم

للمالكية كتاب أجمع منه للمسائل وضم بين دفتيه خلاصة المذهب قال عنه الحطاب " كتاب صغر حجمه وكثر علمه وجمع فأوعى وفاق أضرابه جنسا ونوعا لم تسمح قريحة بمثاله ولم ينسج أحد على منواله " ، ودخوله إلى إقليم توات كان على يد الفقيه ميمون بن عمروالبازي (ت890هـ) وذلك أنه وقعت بين الشيخ سيدي ميمون وطلبة الصحراء مراجعة في مسألة فقهية وهي إذا قال البائع أبيعك أمة ثيبا فلما اشتراها وجدها بكرا فأفتى عامة فقهاء الصحراء بعدم الرد إذ البكر أحسن من الثيب وقالوا إنما يقع الرد إذا حصل العكس ووافقهم قاضي الوقت سيدي عبد الله العصموني على ذلك إلا أن الشيخ سيدي ميمون كان له رأي مخالف في المسألة وهوثبوت الرد واستند فيه على ما رواه عن شيخه ابن غازي فجاهروه بالتكذيب وأبدوا مخالفتهم مستغربين والسبب في ذلك هوأن الشيخ لم يستند في فتواه تلك على كتاب معلوم فما كان منه إلا أن سافر إلى فاس من أجل إيضاح المسألة وكشفها فوجدها مبسوطة في المختصر وهي قوله " ورد بعدم مشروط فيه عرض كثيب ليميل فيجدها بكرا وإن بمنادات " وكان مما قام به الشيخ ميمون شراؤه المختصر فكان أول من أدخل المختصر للصحراء، فلما وصل تواتا ونظر فيه علماؤها وجدوه كتابا قيما يستحق النظر والدراسة فعكفوا عليه حفظا ودراسة وتدريسا واعتمدوه ركيزة أساسية في دراسة الفقه المالكي فلا تكاد تجد بتوات فقيها يجهل المختصر ولا مفتي غير عالم به " [1] بل إن تدريس مختصر خليل صار دليل على العلم والرسوخ فيه فقد جاء في نص رسالة أرسل بها الشيخ امحمد بن عبد الله الونقالي إلى خال تلميذه الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني ما نصه " محبنا سيدي المحفوظ ألف سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فالحمد لله على فضله ونعمه فإن ابن أختك صار عالما يقريء خليلا من أوله إلى آخره وكذا التفسير وخليل والتفسير لا يقرئهما إلا العلماء الكبراء وقل لأمه يا سعادتك ويا فرحتك قل لها ولدك أضحى من خيار علماء توات من شك فليأت له بأي وقفة شاء من خليل أومن التفسير فمن شاء فليمت غيظا ومن شاء فليحمد الله على إظهار الإسلام

1 - النبذة في تاريخ توات و أعلامها ص 113.

وسلم منا على ابن الحاج عبد الرحمن عبد ربه تعلى امحمد بن عبد الله "[1]، لهذا لا نكاد نجد عالما تواتيا إلا ومختصر خليل أهم مقرراته الدراسية ولا طالب فقه بتوات إلا ومختصر خليل مادة غذائه ومن أقدم الحلقات الدراسية التي ذكرت مختصر خليل من مقرراتها حلقة الشيخ سعيد قدورة الذي أخذه عنه الشيخ عبد الكريم بن امحمد بن أبي محمد التواتي من طريق أبي العباس المنجور عن أبي عبد الله اليسيتني عن شمس الدين محمد اللقاني عن نور الدين أبي الحسن علي السنهوري عن عبادة عن جمال الدين عبد الله الأقفهسي عن تاج الدين بهرام عن مؤلفه الشيخ خليل.

ثانيا :طريقة التدريس :

إن لعلماء توات منهجا خاصا في تدريس مختصرات المذهب المالكي فهم ينتقلون من الأدنى إلى الأعلى مراعاة لسنّ الطالب وترويضا له على الخوض في أمهات قضايا الفقه فيبدأ التلميذ في المدرسة الدينية بمختصر الأخضري حتى يتعلم الصبي ما يتعلق بالصلاة من أحكام وبعدها ينتقل إلى كتاب العبقري نظم سهوالأخضري كتتميم لدراسة مباديء الصلاة وبعده ينتقل الطالب لقراءة المرشد المعين فيتم له أبواب الصلاة التي لم تأتي في مختصر الأخضري ويبدأ ذهنه في التفتح على مسائل الزكاة والصيام والحج ثم ينتقل الطالب لقراءة أسهل المسالك ليأخذ مسائل العبادات بشيء من التفصيل ويدخل إلى المعاملات من طريق سهل وميسر وبعد أسهل المسالك يقرأ الطالب رسالة ابن أبي زيد القيرواني لتحصل عنده معرفة بهيآت العبادات بعد أن تعلم أحكامها ويزداد تعمقا في قضايا المعاملات وبعد الرسالة يتجه نظر الطالب نحومختصر خليل ليتعمق في مسائل وقضايا العبادات والمعاملات ودراسة جزئيات كثيرة في جميع أبواب الفقه[2]، وهذا الترتيب يذكره أحد العلماء منبها على أنه سلم الأمان لطالب العلم بقوله :

عَلامَةُ الجَهلِ بهَـذَا الجِيـــــلِ تَركُ الرِّسَالَةِ إلَــى خَلِيلِ
وتــركُ الاَخضَـرِيِّ لابنِ عَاشِـرِ وتَـركُ ذَيْنِ لِلرِّسَالَةِ احذَرِ

1 - غنية المقتصد السائل (الورقة 03/ظهر).
2 - أنظر الرحلة العلية إلى منطقة توات (1/ 273 و ما بعدها)

أما عن كيفية إلقاء الدرس فإن الشيخ يتصدر المجلس فيجلس على شيء يميزه عن الطلبة والطلبة حوله متحلقين ليسهل عليه الإقبال عليهم جميعا ومن جلس في موضع فإنه لا يتحول عنه ولا يجلس أحد في مجلس أحد ما لم يكن بأمر الشيخ أولسبب ظاهر ثم يتكلف الطالب الذي يدرس المختصر الفقهي بسرد نص المتن ويتوقف عند كل جملة تم معناها ثم يقوم الشيخ بتصحيح المتن وحل المشكل والتنبيه على المقفل وتوضيح صورة المسألة الفقهية وتبيين حكمها المشهور المعتمد في المذهب فيشرح المتون الصغيرة للطلبة الصغار ارتجالا حسب عقولهم وإدراكهم ومستوياتهم، أما الكبار في المتون الكبيرة فلا بد أن يلتقط الألفاظ ويفسرها لفظة لفظة ويحرر فيها المعنى اللغوي والشرعي ويجعلها ميدانا تطبيقيا لعلوم اللغة التي درسها الطالب من نحووصرف وبلاغة وبيان حتى إذا فرغ المعلم من الألفاظ رجع إلى التراكيب ففسرها و أوضح صورة القضية الفقهية وبين حكمها وبحث مع شراح المختصر فيما أوردوه بعد أن يحفظ كلامهم أويأتي بالشرح ويتولى أكابر الطلبة قراءة الكتاب بعد شرح الشيخ ارتجالا ليتدربوا على القراءة، ومتى احتاج الكلام إفرادا أوتركيبا أوالبحث فيه أوالجواب عليه إلى شاهد أومثال فلا بد من الإتيان به في محله على قدر الحاجة فلا بد من النزول مع الطالب إلى ما يحصل له الفهم، حتى أنه إذا احتاج إلى توطئة ومقدمة يستعان بها على الفهم أوالتصديق تعين البدء بها بحسن بيان واختصار، ولا يتوانى الشيخ في إعطاء فرصة للطلبة لطرح الأسئلة والاستفسارات وقد يطرح هوعليهم ألغازا على حسب موضع النص يشحذ بها أذهانهم ويمرنهم بها ويلطف بها جوالدرس كما يفسح المجال لبعض القصص والطرائف في موضعها لأثرها في ترسيخ المعلومة لدى التلميذ[1].

المطلب الثاني : التأليف على المختصرات

لم تتوقف عناية فقهاء المنطقة بمجال الدراسة والتدريس فقط بل تعدته إلى التأليف على تلك المختصرات لإدراكهم قيمة التأليف وأهميته فاتخذوا

1 - أنظر الرحلة العلية إلى منطقة توات (1/ 276 و ما بعدها) ، المدرسة المالكية بتوات ضمن أعمال ملتقى المدرسة المالكية الجزائرية ص ص 209 و ما بعدها ،

من تلك المختصرات مطايا في طريق سيرهم لتدوين معارفهم الفقهية، وقد احتفظت لنا كتب التراجم وخزائن المخطوطات بالمنطقة عددا من الأعمال على هاتيك المختصرات في شكلين ظاهرين :

أولا : ترجيز النثر :

فلقد اقتضت الطبيعة الصحراوية نمط الشعر في حياة سكان إقليم توات، فقام العلماء بإنشاء منظومات وأراجيز بغية استمالة نفوس الصغار والعامة لحلقات الدراسة، ولأجل تسهيل الحفظ إذ النظم أسهل للحفظ كما قيل :

وبعد فـاعلم أن نظم العلم مقـرب إدراكــه للـفـهــم
يشجع الطلاب للتحصيـل وحفظه يدعوا إلى التبجيل
يبقــى لـدى حفاظه أحقابا ويكثر الأجــور والثوابــا

فعمدوا إلى تلك المختصرات وقاموا بنظمها، فكان من الأنظام التي أنشأها فقهاء توات مبنية على أساس مختصر فقهي في المذهب المالكي :

1 ـ العبقري نظم سهوالأخضري : تأليف الشيخ محمد بن أب التواتي نظم فيه مؤلفه باب السهومن مختصر الشيخ الأخضري، وقد قام الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن عمر التنيلاني بوضع شرح عليه حل مقفله وأوضح مشكله وبين مسائله سماه المورد العنبري بشرح العبقري، كما قام الشيخ مولاي أحمد الطاهري بشرحه شرحا حافلا، ولشتات مسائل السهوجامع سماه العقد الجوهري شرح على النظم المسمى بالعبقري.

2 ـ الكوكب الزهري نظم مختصر الأخضري : تأليف الشيخ محمد باي بلعالم، فإنه لما رأى العبقري مقتصرا على باب السهومن مختصر الأخضري وبقيت الأبواب الأخرى منثورة قام بنظم المختصر كاملا من أوله إلى آخره بما في ذلك باب السهو، ثم إن الناظم قام بشرح نظمه شرحا موجزا يفيد المبتدئ ويذكر المنتهي سماه الإشراق البدري شرح الكوب الزهري.

3 ـ الجواهر الكنزية لنظم ما جمع في العزية : تأليف الشيخ محمد باي بلعالم، نظم فيه مؤلفه المقدمة العزية على مذهب السادة المالكية لأبي الحسن

المالكي، ثم إن الناظم شرح نظمه شرحا مفيدا للغاية سماه السبائك الإبريزية شرح على الجواهر الكنزية، ثم شفعه بشرح آخر أتى فيه بأدلة الكتاب والسنة لكل باب من أبوابه سماه الاستدلال بالكتاب والسنة النبوية شرح على المقدمة العزية ونظمها الجواهر الكنزية.

4 ـ نظم إرشاد السالك : تأليف الشيخ عبد الرحمان حفصي نظم فيه مؤلف متن إرشاد السالك في الفقه على مذهب الإمام مالك من تأليف الشيخ ابن عسكر البغدادي .

5 ـ نظم مختصر خليل : تأليف الشيخ امحمد بن مصطفى الرقادي الكنتي، وهونظم سلس رائق حافظ على أغلب بناء المختصر، والكتاب لم يكمل بعد مازال الناظم يعمل فيه وقد بيض باب العبادات منه .

ثانيا : الشروح والحواشي :

إذا أدرك العالم قيمة كتاب من الكتب المتداولة، وأدرك عجز الطلبة عن فهم مسائله من غير حاجة إلى أستاذ عمد إلى شرحه تسهيلا للطلبة وإفادة للأمة، وقد قام فقهاء توات بشرح بعض مختصرات المذهب المالكي حتى أن نسخ المتون الفقهية المتداولة بالمنطقة وشروحاتهم التي بأيدي العلماء والموجودة بخزائنهم لا تخلوفي غالب الأحيان من حواش وطرر والتي من أهمها :

1 ـ مغني النبيل شرح مختصر خليل : تأليف الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وهوشرح أوجز فيه مؤلفه ولم يكمله .

2 ـ إكليل المغني : تأليف الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وهوحاشية وضعها على شرح مغني النبيل.

3 ـ شرح مختصر خليل : تأليف الشيخ عبد الكريم بن محمد بن أبي محمد التواتي ذكره في جوهرة المعاني وقال " ابتدأ شرحا على الشيخ خليل فاخترمته المنية "[1].

1 - جوهرة المعاني (الورقة 06/وجه)

4 ـ تقييد على مختصر خليل للشيخ عمر بن عبد القادر التنيلاني ذكره تلميذه الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني في فهرسته.

5 ـ شرح مختصر خليل : تأليف الشيخ عبد الرحمان بن إبراهيم الجنتوري ذكره الشيخ محمد بن أحمد المسعدي الجراري وقال عنه " وله شرح على مختصر خليل من الخطبة إلى النكاح في توجيه كلام المتن "[1] وهذا الشرح هوالذي قال عنه الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني " ابتدأه من أول المختصر شرحا اقتصر فيه غالبا على إسناد مسائله لأصولها "[2].

7 ـ حاشية على شرح الزرقاني لمختصر خليل : وضعها الشيخ عبد الرحمان ابن إبراهيم الجنتوري نسبها إليه تلميذه الشيخ محمد بن أحمد المسعدي وقال " ومن تآليفه حاشية على عبد الباقي الزرقاني لم تكمل وفيها بياض في بعض أبواب المختصر "[3] ووصفها الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني فقال " حاشية منها ما يتعلق بكلام المؤلف ومنه ما يتعلق بكلام شارحه الشيخ عبد الباقي الزرقاني وكان شديد النكير عليه حتى كان ينسبه في بعض المواضع لخرق الإجماع وكان يطيل النفس فيما خالف فيه قضاة وقته ومفتوه مقتضى المذهب "[4].

8 ـ الوجيز شرح مختصر خليل : تأليف الشيخ محمد بن العالم الزجلاوي ونسبة الكتاب إليه مشهورة في المنطقة شهرت المختصر نفسه لهذا تعددت نسخه في خزائن المنطقة وهوشرح بديع مزج مؤلفه فيه كلامه بالمتن مع عرض عجيب للمسائل دون إطناب ممل ولا إيجاز مخل ، والكتاب لم يكمل فقد وصل فيه إلى القسم بين الزوجات .

9 ـ شرح التلمسانية : تأليف الشيخ محمد بن العالم الزجلاوي ونسبته إليه معلومة بالمنطقة اختصر فيه شرح العصنوني وأضاف إليه زيادات فجاء بين إفراط التطويل وتفريط الاختصار امتزجت فيه عبارات المصنف

---

1 - نوازل الجنتوري (الورقة 01 / ظهر).
2 - فهرس الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني (الورقة 17/ ظهر).
3 - نوازل الجنتوري (الورقة 01 / ظهر).
4 - فهرسة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني (الورقة 17/ ظهر).

بالنظم امتزاج الروح بالدم مع وقوف عند مهمات القضايا حتى أنه يذكر الخلاف بين المذاهب الأربعة.

10 ـ شرح ابن عاشر : تأليف الشيخ محمد بن العالم الزجلاوي وهوشرح حافل للغاية شحذ فيه مؤلفه نصوص علماء المذهب في نسق بديع وترتيب عجيب وأكثر من الفروع فجاء فريدا في بابه جامعا لبابه.

11ـ حاشية على مختصر خليل : وضعها الشيخ عبد الله بن محمد عبد الله ابن عبد الكريم الحاجب ذكره في جوهرة المعاني.

12 ـ غاية المنتظر وفتح الجليل في بعض أصول وفروع المختصر للشيخ خليل : تأليف الشيخ الحسن بن سعيد البكري ألفه أثناء إقامته بعين صالح مدة شهر ونصف وهوشرح لم يسبق إلى مثاله ولا نسج عالم على منواله حيث ركز على غرائب الألفاظ ودقيق العبارات وأرجع المسائل الفقهية إلى أصولها من كلام إمام المذهب مستشهدا بالقواعد الفقهية والأصولية ونصوص الشرع في تناسق بديع.

13 ـ حاشية على شرح ابن عاشر لمحمد بن عمر الغلاوي الشنقيطي : وضعها الشيخ أحمد بن عبد الرحمان الشيخ الأنصاري الأنزجميري وهي حاشية نفيسة حل فيها مشكلات وفسر مبهمات وقيد مطلقات وخصص عمومات ونبه على غوامض مهمات وأضاف فوائد عديدة وأمثلة مفيدة .

14 ـ شرح الفوز المبين بالمرشد المعين : تأليف الشيخ الحبيب بن عبد الرحمان العلوي التواتي السالي، شرح فيه مؤلفه متن ابن عاشر، والكتاب مطبوع متداول.

15ـ مرجع الفروع إلى التأصيل من الكتاب والسنة والإجماع الكفيل : تأليف الشيخ محمد باي بلعالم شرح فيه نظم مختصر خليل للشيخ خليفة بن حسن السوفي المسمى جواهر الإكليل، والكتاب مطبوع متداول في عشرة أجزاء.

16- إقامة الحجة بالدليل شرح على نظم ابن بادي لمختصر خليل : تأليف الشيخ محمد باي بلعالم، شرح فيه نظم مختصر خليل للشيخ محمد بن بادي الكنتي والكتاب مطبوع متداول في أربعة أجزاء.

17 - زاد السالك شرح أسهل المسالك : تأليف الشيخ محمد باي بلعالم شرح فيه متن أسهل المسالك لمحمد البشار، والكتاب مطبوع متداول.

الخاتمة

وفي الأخير أخلص إلى بعض النتائج والتوصيات منها :

أولا : أن ظاهرة الاختصار في المذهب المالكي لا يمكن عدها ظاهرة سلبية على الإطلاق بل هي بمثابة النصوص القانونية اليوم جاءت لإخراج الطلبة من تشعب الأقوال واختلاف الآراء منذ بدايات طلب العلم كما جاءت لإعطاء القاضي قولا راجحا أومشهورا أوجرى به العمل المهم أنه يدخل فيما به الفتوى ليكون أساس مادته القانونية ويترك المجال مفسوحا للأقوال الأخرى بمراعاة أحوال القضية .

ثانيا : يمثل مختصر خليل قمة تطور المذهب المالكي ووصوله إلى ذروة الرقي في مجال الفقه النظري لأنه وصل بالمذهب حيث اقتصر على ما به الفتوى وذلك أنه عمد إلى الأرجح فالأرجح من الأقوال فوضعها فيه والراجح من القولين هوما قوي دليله فإن تساوت الأدلة وعجز عن الترجيح قال في المسألة قولان، كما عمد إلى الأشهر فالأشهر فإن تساوى القولان في الشهرة قال في المسألة خلاف .

ثالثا : لقد قامت المختصرات في المذهب المالكي لاسيما مختصر خليل بنقل المذهب نقلة أخرى حيث أن فيها تأكد اشترك المشيخات بين المشرق والمغرب فاعتمد المشارقة اختيارات وترجيحات وفهوم وأقوال المغاربة يظهر هذا في مقدمة مختصر خليل جليا، كما أن المغاربة اعتمدوا مختصر خليل وهومصري واستعملوا شراحه من المصريين فتأكد بهذا التواصل امتزاج المدارس المالكية المشرقية والمغربية في بوتقة واحدة ووصولها إلى قمة هرم الفقه النظري لينتقل سير التطور ومواصلة الاجتهاد في مجال الفقه التطبيقي لتظهر في ساحة المذهب المالكي مدارس أخرى لا يراعى فيها قواعد منهج الترجيح بين الروايات ولا المقررات الدراسية وإنما يراعى فيها أثر تغير الظروف في الخروج عن ما به الفتوى والشروط التي تأهل الفقيه إلى العمل بالضعيف والشاذ وهوما يعرف بالعمليات ويراعى أيضا منهج الفتوى وطريقة تكييف المستجدات وتخريج الأحكام لها.

رابعا : تزخر منطقة توات بعلماء لا تقل أهمية عن علماء حواضر العالم الإسلامي جدا واجتهادا ومسايرة لما يجري في الساحة العلمية يظهر هذا من اهتمامهم بأشهر المختصرات التي تتناقلها الحواضر المالكية المشرقية منها والمغربية.

خامسا : أن إقليم توات مازال محافظا على أسانيده الفقهية لأشهر الكتب المالكية خاصة المختصرات منها، مما يدل على أصالة التعليم بالمنطقة وأنه سليل منهج السلف لا تشوبه مغريات التطورات الغربية التي أتت على كبريات المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، ولا تشوب هذا المنهج دعوى الجمود لأن أساسه مبني على تحقيق مقصد الإفهام للطالب.

وأختم هذه المداخلة بالوصية بضرورة إلقاء الباحثين والدارسين عنايتهم لمختصرات المذهب المالكي، وتمحيص النظر فيها من جهة دورها في تطور المذهب وقيمتها الفقهية، ومحاولة شرحها بما يلائم عصرنا من إسناد مسائلها إلى أدلتها الأصلية، والسعي إلى ربطها بمستجدات زماننا من خلال التخريج الفقهي، وعليهم أن يتوجهوا إلى تراثنا الذي يعبر عن هويتنا الجزائرية فيعملوا على تحقيقه وإخراجه إلى العالم الإسلامي تعريفا به وتدعيم المكتبة الإسلامية بجهد بعض رجال الأمة، وأن يقوموا بدراسات أكاديمية على المناهج الدراسية في الزوايا والمدارس الدينية لتحديد عوامل صمودها وأسباب اختلالها في ظل عالم تتغير فيه المعطيات بين الفينة والأخرى، ولا ننسى توجه الدراسات الأكاديمية أيضا لطرق التأليف والشروح لاستنطاقها فيما يدعم مشروع مدرسة جزائرية لها رجالها ومنهجها خصائصها.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين

المرشد المعين لابن عاشر
وأثره في التكوين الفقهي بمدرسة توات المالكية

د/ محمد دباغ
جامعة أدرار

تمهيد:

عرفت طرق التحصيل العلمي للعلوم الشرعية تنوعاً كبيراً وكان لطريقة التدريس بالمتون أثره الإيجابي في مدرسة توات خاصة، حيث اعتمدت هذه المدرسة بجميع فروعها وروافدها منهاجاً متكاملاً في التعليم القرآني والفقهي[1]، وكان لمتن ابن عاشر حضوراً ظاهراً في جميع المدارس والزوايا التواتية لما امتاز به هذا الكتاب من خصائص منهجية وموضوعية نتناولها في هذا البحث حسب العناصر الآتية:

- التعريف بمؤلف الكتاب.
- أسباب اختياره نموذجا للدراسة.
- خصائص المرشد المعين في تناول مسائل العقيدة.
- خصائص المرشد المعين في تناول مسائل الفقه.
- خصائص المرشد المعين في تناول مسائل التصوف.
- أثر المرشد المعين في التكوين الفقهي بالمدارس والزوايا التواتية.
- الخـــاتمـــــة.

1 - التعريف بمؤلف الكتاب

هو الإمام أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري الأندلسي الفاسي، يعد رحمه الله من كبار العلماء العاملين، فاق أقرانه في مسائل الفقه خاصة في مجال التوجيه والتعليل وكان ذا معرفة بالقراءات والنحو والتفسير وعلم الأصول.[2]

له مؤلفات عديدة منها :

المرشد المعين على الضرورة من علوم الدين.

---

1 - محمد دباغ، الدروس المسجدية المنهج والمضمون ، محاضرة ألقيت بالملتقى التكويني السابع للمعهد الإسلامي لتكين الإطارات الدينية الشيخ سيدي محمد بلكبير بعين صالح، ص: 49

2 - معجم المؤلفين:2/ 331، الدر الثمين ، 1/ 30

- كان العلماء في عصره يوصون بقراءتها[1]
- شرح مورد الظمآن في علم رسم القرآن.
- شرح على مختصر خليل.
- تقييدات على العقيدة الكبرى للإمام السنوسي توفي رحمه الله هام 1040هـ[2]

2 - أسباب اختيار المرشد المعين أنموذجا للدراسة

- توسع مؤلفه في مختلف العلوم الشرعية[3] .

- إلمامه بالمادة العلمية الضرورية للتفقه في الدين، حيث اشتمل على مبادئ العقيدة والأصول وما يتعلق بهما من مسائل عقلية ومنطقية[4]

- كما اشتمل على بيان أحكام العبادات من الطهارة إلى الحج ثم تناول كتاب التصوف حيث بين أهم قواعد السلوك التي تبنى عليها تزكية النفس قصد بلوغ درجة الإحسان[5]

- تميزه بالاختصار مع الدقة والتركيز والشمول.

- كونه أحد مصادر التدريس بالزوايا والمدارس القرآنية بالبلاد المغربية والإفريقية عامة وبمنطقة توات خاصة.

3 - خصائص المرشد المعين في مجال العقيدة :

اعتماد عقيدة أهل السنة على منهج الإمام الأشعري الذي يعد إمام أهل السنة حيث إنه رحمه الله اعتمد منهجا علميا دقيقا في تناول مسائل العقيدة، وقد تميز باستعمال منهج علم الكلام في الدفاع عن عقيدة أهل السنة[6]

1 - أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي ، شرح منظومة ابن عاشر، دار الفضيلة، 06
2 - شجرة النور الزكية، 1/ 299
3 - معجم المؤلفين، 2/ 331،
4 - شرح منظومة المرشد المعين، 10
5 - محمد دباغ، مقامات اليقين، وأثرها في السلوك الفردي والجماعي، محاضرة ألقيت بالملتقى الدولي الحادي عشر بجامعة أدرار،حول التصوف، نوفمبر2008 ص:412
6 - محمد زرمان، علم الكلام، دار الإعلام، ص: 38

توظيفه المقدمات العقلية والمنطقية في مناقشة مسائل العقيدة ومن ذلك قوله :

وجـــوده له دليل قاطـع حاجة كل محـدث للصـانـع
لو حـدثت بنفسها الأكوان لاجتمع التساوي والرجحان[1]

اقتصاره على المسائل العقدية ذات العلاقة بالتطبيق المباشر في الجانب الإيماني كإثبات صفات الكمال لله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن صفات النقص[2]، وهو بذلك لم يتعرض للقضايا الشائكة والخلافية كمسائل التأويل ونحوها لأن هذه القضايا من شأن الباحثين المتخصصين والمرشد المعين موجه للأميّ كما صرح به الناظم في مقدمته.

الإشارة إلى تأصيل القضايا من النصوص الشرعية حيث قال:[3]

وأما الإحسان فقال من دراه أن تعبـــد الله كـــأنـــك تـــراه
إن لم تكـن تراه إنه يـــراك والدين ذو الثلاث خذ أقوى عراك

بيان البعد العملي لكلمة التوحيد: وهي قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، حيث إن الله تعالى سماها كلمة التقوى حيث قال ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾[4]

قال ابن عاشور وفسرت الكلمة هنا بأنها قول « لا إله إلا الله »[5]

قال في المرشد المعين :[6]

وقـــــول لا إله إلا الله محمد أرســـــــلـه الإله
يجمع كل هـذه المعـــاني كانت لـذا علامـة الإيمـــان
وهي أفضل وجـوه الذكر فاشغل بها العمر تفز بالذخر

1 - شرح منظومة المرشد المعين :14
2 - م ن: 12-14
3 - م ن:20
4 - الفتح: 26
5 - التحرير والتنوير،26/ 195
6 - شرح منظومة المرشد المعين: 18

- خصائص المرشد المعين في مجال الفقه أصولا وفروعا

1 - اعتماده المشهور من الأقوال حيث إنه لا يشمل الضعيف إلا في مسائل محصورة، قال الشيخ ميارة: (هذه المنظومة عديمة المثال في الاختصار وكثرة الفوائد والتحقيق وموافقة المشهور)[1]

2 - ذكر مقدمة من الأصول بين من خلالها معاني الأحكام الشرعية ومراتبها، ثم ذكر تقسيم الفرض إلى فرض كفاية وفرض عين، كما نبه على شمول المندوب للسنة في التقسيم الأصولي لأنه تقسيم ثنائي خلافا للتقسيم الفقهي الفرعي الذي هو تقسيم ثلاثي[2]

ويمكن أن نستخلص من المقدمة الأصولية للكتاب ما يلي :

- اعتماده منهج الجمهور في تقسيم الأحكام مع الدقة والتركيز والاختصار حيث أشار إلى ذلك بقوله :[3]

بطلب أو إذن أو بوضع لسبب أو شرط أو ذي منع

- لم يتعرض الناظم لبيان بعض عناصر الحكم الوضعي كالصحة والفساد اكتفاء منه بما سبق

3 - تناوله لبعض القضايا الدقيقة في عبارات مختصرة مركزة كقوله في أحكام السهو :[4]

واستدرك الركن فإن حال ركوع فألغ ذات السهو والبناء يطوع

ومعنى هذا البيت متضمن عند ابن أب ناظم سهو الأخضري في الأبيات الآتية:[5]

---

1 - م ن، 06
2 - م ن، 21
3 - م ن، 20
4 - م ن، 54
5 - العقد الجوهري على النظم المسمى بالعبقري، للشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، ص:78

من ذكره نقص السجود ينجلي بعيد رفعه من التي تلي
يلغي التي منها السجود أهملا وليات بانيا بأخرى بدلا
وليسجد القبلي إن تذكرا من بعد ثالثته إذا جرى
نقص السجود من الأوليين للزيد والنقصان دون مين
وإن يك النقصان ليس منهما فليسجد البعدي على ما رسما
أو كان منهما وقبل عقد ثالثة ذكره فالبعدي
إذ لم تفته سورة ولا جلوس في الصورتين فارع هذه الأسس

4 - تضمن أبياته لبعض الضوابط الفقهية كقوله:[1]

وحول الأرباح ونسل كالأصول والطاريء لا عما يزكى أن يحول

أشار في هذا البيت إلى قاعدة مشهورة في باب الزكاة وهي: حول الربح حول أصله وحول النسل حول الأمهات.[2]

5 - اعتماد التوجيه والتعليل كقوله فيما لا تجب فيه الزكاة:[3]

وعسل فاكهة مع الخضر إذ هي في المقتات مما يدخر

فقد ذكر تعليل المالكية لوجوب الزكاة في المطعومات بالاقتيات والادخار

6 - إدراجه لصفة العمل في باب الحج وفاقا لمنهج صاحب الرسالة[4] حيث جاء في الباب المذكور[5]

وإن ترد ترتيب حجك اسمعا بيانه والذهن منك استجمعا
إن جئت رابغا تنظف واغتسل كواجب وبالشروع يتصل
والبس ردا وأزرة نعليـن واستصحب الهدي وركعتين

1 - شرح منظومة ابن عاشر،70
2 - محمد دباغ ، محاضرات في فقه العبادات ،(غير منشورة)
3 - شرح منظومة ابن عاشر،71
4 - ينظر رسالة ابن أبي زيد القيرواني
5 - شرح منظومة ابن عاشر،81

بالكافرون ثم الاخـلاص هما فإن ركبت أو مشيت أحرما
بنية تصحـب قـولا وعـــمل كمشي أو تلبية ممـا اتصـل

7 - التنبيه على الاستثناءات والقضايا الخاصة :

فالمرشد المعين مع اختصاره، لم يفته التنبيه على الاستثناءات فمثلا نجده ينبه على الحالات التي تبطل فيها الصلاة على الإمام دون المأموم استثناء من القاعدة العامة في قوله:[1]

وبطلت لمقـتد بمبـطل على الإمام غير فرع منجل
من ذكر الحدث أو به غلب .....

خصائص المرشد المعين في مجال التصوف:

1 - اعتماد منهج أبي القاسم الجنيد في التصوف' والإمام الجنيد من كبار الفقهاء الزهاد ، اتسم منهجه بالاعتدال والتركيز على الجانب الإيماني في تزكية النفس معتمدا اتباع السنة في بيان قواعد التزكية وتطبيقاتها، توفي رحمه الله عام 298هـ[2]

2 - انضباط التصوف في المرشد المعين بالأحكام الفقهية المتمثلة في امتثال الأوامر واجتناب النواهي، كما جاء فيه:[3]

يحفظ بطنه من الحرام يترك ما شبه باهتمام

3 - الحث على الابتعاد عن المعاصي الباطنة المتمثلة في أمراض القلوب كالرياء والحسد والعجب[4]

4 - مصاحبة الشيوخ والعلماء العاملين واستشارتهم فيما يشكل من الأمور[5]

---

1 - م ن، 67
2 - ينظر شرح سراج السالك:1/ 49
3 - شرح منظومة ابن عاشر، 93
4 - م ن، 94
5 - م ن، 94

5 - مجاهدة النفس مع التحلي بمقامات اليقين التي يترقى بها المتعبد في مدارج السالكين[1]

أثر المرشد المعين في التكوين الفقهي في الزوايا والمدارس القرآنية بتوات :

يمثل المرشد المعين مادة علمية ثرية في مجال الفقه في الدين بأبعاده الثلاثة : الإيمان – الإسلام- الإحسان- ونظرا لاختصاره وتركيزه كان سهلا للتحصيل والدراسة ، وقد تجسدت عوامل انتشاره والانتفاع به كما يلي:

1 - كونه متنا مختصرا لا يتجاوز عدد أبياته 314 بيتا

2 - كونه منظوما يسهل ترديده في حلقات الحفظ الجماعية بالكتاتيب والمدارس

3 - اشتماله على مباديء الفقه والعقيدة والتصوف كما تقدم

4 - اشتغال العلماء به تدريسا وشرحا وتحفيظا، ولذلك كان من بين أهم المتون المقررة في المدارس والزوايا التواتية وقد إلى جانب بقية المتون نفعا ظاهرا يتجلى في الملكة الفقهية لدارسيه، وقد ذكرت أهمية هذا المتم في بيان طريقة التدريس بالوقفة أو المجلس حيث سجل المرشد المعين حضورا بارزا في الدروس المسجدية العامة والخاصة[2]

1 - ينظر، مقامات اليقين، أعمال الملتقى الدولي للتصوف أدرار نوفمبر2008، ص:411
2 - محمد دباغ، الدروس المسجدية: الملتق التكويني السابع ، عين صالح،ص:49

الخاتمة:

من خلال دراستنا لخصائص المرشد المعين وبيان منهجه من خلال نماذج مختارة من أبياته نخلص إلى النتائج الآتية:

- المقصود بالتكوين الفقهي في عنوان البحث عموم التفقه في الدين وليس فقه الفروع فقط

- أهمية المتون الفقهية في تكوين الملكة الفقهية للدارس

- ضرورة مواصلة العمل بنظام التدريس عن طريق الوقفة والتشجيع عليه

- رد دعوى كون المتون أدت إلى جمود الفقه وذلك عن طريق خصائصها العلمية والبيداغوجية

- إسهام المدارس والزوايا التواتية في الحفاظ على التراث الفقهي

- ضرورة الاستعانة على التحصيل بتدريس المتون في حصصص الأعمال الموجهة في المعاهد والجامعات

- العمل على نشر الثقافة الإسلامية المتكاملة بشكل واسع يجعل المجتمع المسلم في مستوى دينه تكوينا وعملا وهذا ما يسهم في الرجوع بالأمة إلى دورها الريادي وكونها خير أمة أخرجت للناس.

النوازل التواتية :
منهجها وخصائصها

أ/ محمد جـرادي
أستاذ مساعد بقسم الشريعة – جامعة ادرار

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من بعثه الله للبشرية هادياً ومعلماً، فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع سنته.

وبعد،

فمما ورد عن النبي ﷺ ﴿العلماء ورثة الأنبياء﴾، يقومون مقامهم في تبليغ شريعة الله للعالمين، وفي بيان أحكامها للمكلفين، ولم يتخلف فقهاء وأعلام توات عن تحمل تبعات وراثة النبوة، فهم أهل الذكر بالإقليم الذين يلجأ إليهم السائلُ والحيران في تعرُّف أحكام الدين والدنيـــا. وهذه دواوينهم ناطقـــة باجتهاداتهم العلمية عامة والفقهية خاصة، والتي يعنينا منها في هذا البحث النوازل .

أولاً ـ تعريف النوازل :

النوازل في اللغة جمع نازلة، وهي : (الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس، والنزول الحلول)[1]، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحتِهم فَسَآءَ صَبَاحُ المنذَرِين ﴾[2] أي وقع وحل. أما في عُرف الفقهاء فالنازلة هي : الواقعة أوالحادثة، تحل بالمرء في دينه أودنياه فيسأل عنها أهل الذكر، فيقال : نزلت بفلان نازلة فرفعها أورُفعت إلى فلان فأجاب عنها.

ومن ثم فالنوازل اصطلاحاً : هي الوقائع والمسائل التي تُرفع لأهل العلم طلباً لأجوبتهم فيها . وإن كانت النوازل في أصل الإطلاق هي الوقائع إلا أنه غلب استعمالها عل الكتب والمدونات الفقهية التي جمعت أجوبة المُفتِين.

---

1 - مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي ، ضبط و تخريج : د. مصطفى ديب البغا ، دار الهدى ، الجزائر ، ط 4 ، 1990 : ص 414 .

2 - سورة الصافات، الآية 177 .

ظهرت تلك الكتب (وتعددت أسماؤها، فسمِّيت النوازل والفتاوى وهما الاسمان الشائعان في الغالب، كما دُعيت المسائل والأسئلة والأجوبة وفي بلاد العجم مما وراء النهر الواقعات)[1]. ويظهر هذا الترادف في عناوين المصنفات، كفتاوى ابن رشد (ت 520 هـ)، وأجوبة ابن سحنون وأجوبة القبَّاب (ت778هـ)، ومسائل ابن قنفد القسنطيني، وأحكام الشعبي أبومطرف عبد الرحمن بن قاسم (ت497هـ) وأسئلة وأجوبة سعيد بن علي السوسي (ت 1001 هـ)، وغيرها.

ويشِيع عند المشارقة إطلاق "الفتاوى"، أما المغاربة فيغلب إطلاق "النوازل" عندهم، وهوالأكثر استعمالاً، لأنه أضبط في التعبير[2] مما سواه، فالنوازل تقتصر على الوقائع، في حين الفتاوى والأجوبة تشمل أسئلة الناس عن الواقع والمتوقَّع وحتى المفتَرَض .

ثانياً- النوازل عند المالكية :

الفتوى إحدى الخطط الدينية، وأول من انتصب إليها النبي ﷺ، فكانت تُرفع إليه المسائل فيجيب فيها، ولم يُفرِّق أهل الأصول بين جوابه الموحى إليه والجواب الذي يُفضيه إليه اجتهاده – عند من يُجيز له الاجتهاد – فجعلوا لفتوى النبي ﷺ حكم تبليغه[3]، ثم اشتَهَر بالفتوى من بعده ثلة من أصحابه كعمر وابنه وعائشة وعلي ومعاذ، وغيرهم رضي الله عنهم، ومن التابعين عُرف فقهاء المدينة السبعة، وهكذا في كل جيل .

ولأن الفقه أمس بحياة الناس الدينية والمعاشية كان أسبق العلوم الإسلامية نشأة[4] وإن لم يكن أولها تأليفاً، وقد تطور علم الفقه وتفتقت مسائله

1 - نظرات في النوازل الفقهية، د. محمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط1، 1420 / 1999 : ص 30 .

2 - انظر : محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في العرب الإسلامي، د. عمر الجيدي، منشورات عكاظ، المغرب، 1987 : ص 95 .

3 - انظر : الفروق، القرافي، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1423 / 2002 : 1 /221 .

4 - انظر : فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق : محمد أبو الأجفان، مطبعة طيباوي، الجزائر : ص 83.

بتعدد المذاهب، وكتب فقهاء كل مذهب دواوينهم ومراجعهم الفقهية المطول منها والمختصر، التي جمعوا فيها فقه أئمتهم. ثم جاء المتأخرون فهالهم ما كُتب فعمدوا إلى تنظيم المسائل وتبويبها وتقسيم الفقه إلى فروع، ومن ذلك أن طاش كبري زاده جعل الفقه خمسة فروع، هي : الفرائض، الشروط والسجلات، القضاء، أحكام الشرائع، والفتاوى. ثم يُعرِّف الفتاوى بأنها : (علم تُرْوى فيه الأحكام الصادرة عن الفقهاء في الوقائع الجزئية ليسهُل الأمر على القاصرين من بعدهم)[1].

وهكذا أصبحت الفتاوى كفرع مستقل من المؤلفات الفقهية، لا يُعنى إلا بأحكام الوقائع، وإنْ حرص جامعوالنوازل على ترتيبها على الأبواب التي كانت تُرتب عليها المؤلفات الفقهية.

وتُعتبر كتب النوازل أكثر الكتابات الفقهية امتثالاً للصبغة المذهبية، وأصدقها تعبيراً عن أصول المذهب الذي يعتنقه المفتي . وقد اشتهر في كل مذهب فتاوى، (فمن نوازل الأحناف : فتاوى أبي بكر البلخي (ت319هـ)، ونوازل أبي الليث السمرقندي. ومن نوازل الشافعية : فتاوى أحمد بن القطان (ت335هـ)، وفتاوى أبي نصر بن الصباغ، وفتاوى العز بن عبد السلام (ت660هـ) والمعروفة بالفتاوى الموصلية. وتُعد فتاوى ابن تيمية (ت728هـ) من فتاوى الحنابلة، لأن أساسها مذهب أحمد وإن كانت غنية بآراء أئمة المذاهب الأخرى)[2]. أما المذهب المالكي فأمكنته مرونته وثراء أصوله وتنوع بيئاته لأن يكون أطول المذاهب ذراعاً وأوسعها باعاً في فقه النوازل .

إن المكتبة النوازلية المالكية تميل كفتها إلى فقهاء الغرب الإسلامي (المغرب والأندلس)، فحظهم منها أوفر، حيث ربت فتاوى المغاربة عن الحصر، فالدكتور عمر الجيدي يُسمي من مؤلفاتهم ثلاثة وثمانين مؤلَّفاً[3]، وهورقم على أهميته لا يُمثل سوى ما اطّلع عليه الباحثون في

1 - تحقيق أبو الأجفان لفتاوى الشاطبي : ص 83، نقلاً عن مفتاح السعادة : 2 /428 .
2 - نظرات في النوازل الفقهية، مرجع سابق : ص-31 33 (بتصرف).
3 - انظر : محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي : ص-105 110 .

المكتبات العامة والخاصة، ولا يزال كثير من نفيس هذا التراث محجـوباً عـن الآذان والأبصار.

لم يعتمد مؤلفوالنوازل منهجاً واحداً في جمعها وتدوينها، وتعدُّدُ مسالكهم التأليفية جعل النوازل أنواعاً[1]:

1. النوازل الإقليمية : هي التي يجمع فيها صاحبها فتاوى جهة أوإقليم خاص قد يضيق أويتسع، من نماذج هذا النوع نذكر :

أ- المعيار المعرب والبيان المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، لأحمد بن يحي الونشريسي (ت914هـ).

ب - الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة، جمع فيه يحي بن موسى المازوني (ت 883 هـ) فتاوى تونس وبجاية وتلمسان .

2. النوازل الشخصية : هذا الصنف من النوازل هوالأكثر شيوعاً، يجمع فيه مؤلفه أجوبته هوفيما عُرض عليه من مسائل، أوأجوبة واحد أوأكثر من معاصريه أوسابقيه، ومن هذا القبيل نذكر :

أ- فتاوى ابن رشد الجد (ت 520 هـ)، جمعها تلميذه محمد بن الحسن الوزان (ت 543 هـ).

ب- نوازل ابن لب (ت 780 هـ)، الموسومة بـ تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، والتي يُجهل جامعها.

3. النوازل الموضوعية : عادة ما يكون هذا النوع رسالة يحررها صاحبها جواباً عن مسـألة واحدة عُرضت عليه، أوكانت تُطرح في المجتمع بإلحاح نمثل لهذا الصنف بـ :

---

1 - انظر مقالين :

مناهج كتب النوازل الأندلسية و المغربية، محمد الحبيب الهيلة، أعمال المؤتمر الافتتاحي لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ديسمبر1991 /جمادى الآخر 1413، لندن :ص217 – 223 .

مسالك التأليف في فقه النوازل بالغرب الإسلامي، د. مصطفى الصمدي، مجلة الذخائر، عدد خاص، السنة 3، خريف 1423/ 2002 : ص 19 – 42 .

جواب أحمد بابا التنبكتي عن سؤال سعيد قدورة الجزائري الموسوم بالكشف والبيان لحكم مجلوب السودان[1].

رسالة إبراهيم بن عبد الرحمن الجلالي في مسألة وفاة الخاطب أوالمخطوبة قبل البناء، الموسومة بالمسألة الإمليسية في الأنكحة الإغريسية[2].

4. التأليف المتنوع أوالمختلط : ربما لم يلتزم المؤلف في تدوين النوازل معيار الشخص أوالإقليم أوالموضوع، فيأخذ في تأليفه بأكثر من معيار، مثال هذا الصنف فتاوى البرزلي (ت 841 هـ) حيث زاوج في مؤلَّفه بين الأشخاص والأقاليم بقوله في خطبة كتابه : (هذا كتاب قصدتُ فيه إلى جمع أسئلة اختصرتها من نوازل ابن رشد وابن الحاج والحاوي لابن عبد النور وأسئلة عز الدين وغيرهم من فتاوى المتأخرين من أئمة المالكيين من المغاربة والإفريقيين ممن أدركنا وأخذنا عنه أوغيرهم ممن نقلوا عنهم، وغير ذلك مما اخترناه ووقعت به فتوانا أواختاره بعض مشايخنا ..)[3].

5. نوازل الأحكام : هذه من إضافات الأندلسيين والمغاربة لفقه النوازل، يتخصص هذا النوع في جمع فتاوى المُشَاوَرين، حيث أحدث الخلفاء والأمراء بالأندلس والمغرب خطة الشورى[4] منذ القرن الثالث الهجري، وكانت البداية من قرطبة، وتقضي هذه الخطة بأن يُعيَّن إلى جانب كل قاض من قضاة الحواضر فقيهاً أوأكثر يُسمى مُشَاوَر، يُشير على القاضي كتابة فيما ينظر فيه من مسائل بين الخصوم، ومن أمثلة هذا الصنف :

نوازل أبي مطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي (ت 499 هـ)، تُعرف بمسائل الشعبي وأحكام الشعبي .

منتخب الأحكام، لابن أبي زمنين (ت 399 هـ) .

الإعلام بنوازل الأحكام، لأبي الأصبغ بن سهل القرطبي (ت 486 هـ).

---

1 - مخطوط، الخزانة البكرية، تمنطيط، دون رقم .

2 - انظر : شرح ميارة على تحفة الحكام، محمد بن أحمد ميارة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1420/ 2000 : 1 / 246 .

3 - فتاوى البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البرزلي : تحقيق : د . محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 2002 : 1 /61 .

4 - نظرات في النوازل الفقهية، مرجع سابق : ص33 – 39 .

ثالثاً – النوازل التواتية :

لم يستطع التواتيون أن يُثروا المكتبة الفقهية الإسلامية لاعتبارات موضوعية لا يتسع هذا الموضوع لبحثها، لكنهم وُفِّقوا في إيجاد مكتبة محلية، يُشكِّل التأليف الفقهي معظمها ومنه الكتابة النوازلية . وفي تقديري – بحسب ما انتهى إليه إطلاعي – فإن رسالة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ) في اليهود هي أول ما حُفظ مُدوَّناً من نوازل أعلام توات، وهي النازلة الوحيدة التي حظيت إلى حد الآن بالتحقيق العلمي باشتراك باحثين هما : عبد الرحيم بنحمادة وعمر بنميرة، وإن لم يُشفع تحقيقهما بدراسة وافية شافية. وقد كتبها المغيلي جواباً عن سؤال الفجيجي، يقول في مستهلِّها : (أما بعد فقد سألني بعض الأخيار عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وعما يلزم أهل الذمة من الجزية[1] والصَّغَار وعما عليه أكثر يهود هذا الزمان من التعدي والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية بتولية أرباب الشوكة وخدمة السلطان...)[2].

كانت هذه النازلة باكورة النوازل التواتية، والذي يمكن استنتاجه من مختلف الوثائق والنصوص التاريخية أن توات بعد المغيلي مرت بمرحلة ركود ثقافي[3] طالت مختلف جوانب المعرفة، أعقبتها نهضة علمية مع مطلع القرن الحادي عشر الهجري . وتُشكل الفترة الممتدة ما بين القرنين 12 و14 هـ / 18 و20 م أخصب فترات الدرس الفقهي بتوات، حيث تجمع فيها أقطاب الفقه الذين كان منهم أعلام النوازل بالمنطقة كالتنلانيين عمر بن عبد القادر (ت 1152 هـ) وعبد الرحمن بن عمر (ت 1189 هـ)، والزجلوييْن مَحمد العالم (كان حياً سنة 1174 هـ) وابنه مُحمد (ت 1212 هـ)، والقضاة البكريين الثلاثة محمد البكري (ت 1130 هـ) وابنه عبد الكريم (ت 1174 هـ)

1 - في بعض النسخ زيادة : والذلة.

2 - رسالة في اليهود، محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق : عبد الرحيم بن حمادة وعمر بن ميرة، دار أبي رقراق للطباعة و النشر، الرباط، ط1، 2005 : ص 53.

3 - لأن الإقليم شهد اضطرابات جراء الغزو السعدي بحملة المنصور الذهبي سنة 989 هـ / 1581 م .

وابنه عبد الحق (ت 1210 هـ)، والبلباليين محمد بن عبد الرحمن (ت 1244 هـ) وابنه عبد العزيز (ت 1261 هـ)، والكنتوري (ت 1160 هـ)، وابن أبَّ المزمري (ت 1160 هـ) وغيرهم .

ازدهرت صناعة الفتوى على يد هؤلاء الأعلام، وخلَّفوا أثراً طيِّباً حُفظ منه الكثير، والجدول الموالي يُبين ما وقفتُ عليه من التراث النوازلي لأعلام توات[1] :

العنـوان	صاحبهـا	جامعهـا	منهج التأليف	ملاحظـات
رسالـة في اليهـود	محمد ابن عبد الكريم المغيلي		موضوعي	مطبوعة ومُحققة
نوازل عمر بن عبد القادر التنلاني	عمر بن عبد القادر التنلاني		شخصي	
تحلية القرطاس بالكلام على مسألة تضمين الخماس	محمد بن أبَّ المزمري		موضوعي	
النسرين الفائح النسيم عن فتاوى أبي زيد عبد الرحمن بن إبراهيم	عبد الرحمن بن إبراهيم الكنتوري	محمد بن أحمدبن عبد العزيز المسعدي	موضوعي	هي المشهورة بـ نوازل الكنتوري
مسألة بيع قضاة توات وكورارة لأصول الهاربين في المغارم	عبد الرحمن بن إبراهيم الكنتوري		موضوعي	

1 - أغفلنا فتاوى المعاصرين لعدم التدوين و لأنها تفتقر إلى الصناعة (الشكل والمضمون).

العنـوان	صاحبهـا	جامعهـا	منهج التأليف	ملاحظـات
نوازل الزجلوي	مَحمد العالم الزجلوي	مُحمد بن العالم الزجلوي	شخصي	
أجوبة عبد الرحمن التنلاني	عبد الرحمن بن عمر التنلاني	محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنلاني	مختلط (شخصي + إقليمي)	
غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والنوازل		عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي	إقليمي + نوازل الأحكام	
أسئلة و أجوبة التمنطيطي		عبد الله بن أبي مدين التمنطيطي ت1331هـ	مختلط	فيها من فتاوى غير التواتيين كالقابسي و ابن هلال و غيرهم
نوازل الشيخ باي الكنتي	باي بن عمر بن محمد بن المختار الكنتي		شخصي	
فتاوى عبد الكريم بن مَحمد بن عبد الكريم البلبالي	عبد الكريم بن مَحمد بن عبد الكريم البلبالي	تلميذه محمد عبد العزيز بن علي المهداوي	شخصي	أخرجها عبد العزيز سيد عمر 2003
مسألة حُبس المسجد الخرب	مَحمد بن أحمد البداوي البكري	تلميذه محمد عبد العزيز بن علي المهداوي	موضوعي	مخطوط صفحة واحدة

رابعاً – خصائص النوازل التواتية :

خصائص النوازل الفقهية لا تختلف من جهة لأخرى، و هي[1] :

1. الواقعية : لقد امتازت مدرسة الأثر الفقهية – و المالكية من مذاهبها – بالبُعد عن الفروض الفقهية، و نُقِل عن أئمتها الزجر عن الخوض فيما لم يقع، حتى جعلها الشاطبي إحدى مقدمات أصوله فقال : (كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي)[2]. وأكثر الفقهاء امتثالاً للواقعية أهل النوازل، بل إن المغاربة فضَّلوا اصطلاح "النوازل" على الفتاوى و الأجوبة لما يوحي به لفظ "النازلة" من واقعية .

و مقومات الواقعية في النازلة هي أشخاص أصحابها أو زمان و مكان وقوعها، فمثلاً من مسائل الشهادات من نوازل الكنتوري : (...سُئل رحمه الله تعالى عن نازلة وقع فيها تنازع بين علماء توات، فكتبوا إليه ليشاركهم في الخوض فيها ... فأجاب بما نصه : و بعد فقد وقف كاتبه سدده الله تعالى على أجوبة السادات في قضية من الدعاوى للالّ صفية المُشار إليها في رُسوم بيد حامله ... فنقول أن النازلة ليست من هذا الباب لأن فاطمة بنت علي باعت دارها بشهود لا مطعن فيهم ...)[3].

و إغفال تلك العناصر لا يُنافي الواقعية، فربما عَرض للمُدوِّن ما يدعوه لصياغة النازلة على البناء للمجهول كقولهم (سُئل) أو (مسألة تظهر من جوابه) فذلك يأتي اختصاراً أو نسياناً لتقادم عهد النازلة و لعل قصد الستر يدعوه أحياناً لذلك كما في نازلة من مسائل البيوع من نوازل الزجلوي : (سُئِل كاتبه عن البيع الواقع بين فلان و فلانة في حظها من الحبس الذي كسره القاضي، و رجع ميراثا، و سبب البيع المذكور أن فلانا المذكور طلب منها مالاً ظلماً، لكونه شيخاً في بلده مقدَّماً، فهربتْ منه لزاوية - سمَّاها في خطه – و مكثتْ فيها مدة و هي مختفية، فلما علم بها جاءها و طلب منها أن تدفع له ما لزم أصلها بزعمه ذلك، فباعته، ولم تقبض منه ثمناً و لا علمتْ

1 - انظر : نظرات في النوازل الفقهية، مرجع سابق : ص 55 – 59 .
2 - الموافقات، الشاطبي، شرح وتخريج : عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت :1/ 31
3 - نوازل الكنتوري، مخطوط، خزانة الصوفي، بدريان : ص -31 32

قدر ما باعته، و كتب في عقد البيع أنها طائعة بالبيع غير مكرهة . فهل هذا البيع صحيح و لازم أم لا ؟)[1].

2. التجدد : تتحد مضامين الكتب الفقهية في أبواب الفقه المختلفة عبادات أو معاملات، و لا تكاد تختلف إلا في بعض الملامح المذهبية أو البسط أو الاختصار، أما كتب النوازل فهي و إن اتفقت عناوين أبوابها و في ترتيبها فإن مضامينها تختلف، فلا تكاد تتكرر عين النازلة إلا نادراً .

3. تنوع التأليف : لم يسلك المُفتُون في تدوين نوازلهم نهجاً واحداً، فكما سبق أن عرفنا من المفتين من قيَّد نوازله بنفسه، و منهم من جمع فتاوى والده أو شيخه، و قد يُضيف إليها فتاوى المعاصرين أو المتقدمين، و منهم من جمع فتاوى إقليم أو أكثر، و ما من نهج جرى به التأليف في النوازل إلا نسج أعلام توات على منواله نوازلهم .

4. المحلّية : هي أظهر خصائص النوازل، إذ الفتوى تجسيد لتفاعل المفتي مع بيئته الخاصة بمكوناتها المادية و المعنوية، و الطابع المحلي للنازلة هو الذي يُكسبها القيمة التاريخية، و يجعلها وثيقة مصدرية لكثير من المعطيات الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و السياسية و المعمارية و غيرها، و لهذا نلحظ تزايد اهتمام المؤرخين بكتب النوازل المطبوعة و المخطوطة .

إذا كانت تصادفنا في مسائل المساقاة من كتب فتاوى المغاربة ـ مثلاً ـ مسألة الماء المنقسم بالأيام، لشيوع هذا النظام من السقي في المغربين الأوسط و الأقصى، ولأن نظام السقي في توات يعتمد الفقارة، فإن الذي نجده في النوازل التواتية هو إعطاء الفقارة بجزء مما يخرج منها، ومسائل بيع مائها و قسمته وخراصته .

و تأكيداً على ما تحمله هذه الخاصية من قيمة نسوق المثالين الآتيين، ففي الأول منهما دلالات معمارية و بيئية، وفي الثاني دلالة اجتماعية :

---

1 - نوازل الزجلوي، مَحمد العالم، مخطوط، خزانة المطارفة : ص 18 .

أ) من أسئلة و أجوبة أبي عبد الله التمنطيطي : (مسألة : أجابني شيخنا سيدي الحاج البلبالي في مسجد سكن الزرزور بعض حيطانه و بجواره مراحيض يُتحقق دخول الزرزور فيها و أكله منها، ونجد في المسجد المذكور بعض فضلات الزرزور ولا ندري هل هي من الذي يأكل في المراحيض المذكورة ؛ بأنها أي الفضلات المذكورة ليست بنجسة)[1].

ب) من نوازل العالم الزجلوي : (سُئل كاتبه عن فقارة بزجْلُ يُقال لها وادحا ثبت بالتواتر أنها لقبيلة يقال لهم بنو كذا وأنهم انجَلَوا عنها و انقطع خبرهم، و لم يظهر لهم أثر، فاندرست بعدهم اندراساً طويلاً يزيد على مائة سنة، هل يزول ملكهم عنها أم لا ؟)[2].

ومن هذا الأخير ندرك أن خاصية المحلية في النازلة تبرز في سؤال المُستفتي أو تصوير الواقعة لا في جواب المفتي.

خامساً – منهج النوازل التواتية :

لا نعني بالمنهج هنا ذلك النسق الذي اعتمده جامعوا النوازل و مُرتِّبوها، و الذي تقدم الكلام فيه، و إنما نريد ما هو أخص، نريد المنطق الكلي الذي يحتكم إليه المفتي عند نظره و بحثه في النازلة، والذي تحدده جملة القواعد المرتسمة في ذهن النوازلي، يَعرِض عليها ما يَرِد عليه من أسئلة ليتوصل بها إلى الأجوبة . ولا يخفى علىَ باحث أن الكشفَ عن مناهج المعاصرين في الإفتاء و غيره لم يَعُد بالأمر العسير، إذ صار أكثرهم يُفصِح عن منهجه، كقول القرضاوي عن نهجه في الفتوى وهو من المشتغلين بها في عصرنا : (يحسن بنا أن نعرض هنا لمنهج عملي معاصر، وهذا المنهج هو ما اخترته لنفسي بعد قراءات مختلفة و هذا المنهج يقوم على جملة من الأسس أذكرها في الصحائف التالية)[3]، و ذكر ستة أسس.

أما القدامى فلم تجر عادتهم – غالباً – بالتعريف بالمنهج، فلا مناص للكشف عن ذلك من استقراء أعمالهم و إخضاعها لدراسة تحليلية، و هو ما لو أعملناه على النوازل التواتية، لارتسمتْ أهم ملامح المنهج في :

---

1 - أسئلة وأجوبة التمنطيطي، مخطوط، الخزانة البكرية، تمنطيط : ص 1 .

2 - نوازل الزجلوي، مصدر سابق : ص 54

3 - الفتوى بين الانضباط والتسيب، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1429 / 2008 : ص 98.

1. التخريج على المسائل : إن المتفحص لنوازل فقهاء توات يجد كتب الفتاوى لاسيما فتاوى المتأخرين كابن رشد و البرزلي و الونشريسي و أبي الحسن الصغير و ابن هلال من أهم مصادر الفتوى عندهم، بلجوئهم لقياس ما سُئلوا عنه بما سبق أن أجِيب عنه، لوجود بعض الشَّبه .

إن القياس الأصولي يُشتَرط له أن يكون حكم الأصل ثابتاً بنص أو اتفاق بين الخصمين[1]، ولأجل هذا الشرط ثمة (قياس كان إجراؤه مثار جدل، و مبعث خلاف، وهو الاستدلال على الفروع عن طريق التخريج على المسائل الـمُجتَهَد فيها)[2] ، وهو قياس تساهل المالكية فيه، فتوسَّعوا في قياس الفروع على الفروع، لذلك تمتليئ كتبهم بتلك التخريجات، و هذا النهج تأثر به فقهاؤنا في توات .

2. ما جرى به العمل : برز ما يُعرف بفقه العمليات في بلاد الأندلس، ثم اشتهر بالمغرب الأقصى منذ زمن الموحِّدين، وهو نوعان مُطلق وخاص، ويعني الأخذ بقولٍ مخالفٍ لمشهور المذهب[3] لموجب يقتضي هذا العدول،كذريعة أو مصلحة أو عرف أو غيره .

و لما ظهر النبوغ العلمي بفاس و تفوَّق علماؤها ظهر العمل الفاسي كأشهر عمل خاص فأُلف فيه، و نظمه الشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي جمع فيه نحو ثلاثمائة مسألة جرى بها عمل فاس. ولمنظومة الفاسي و شروحها شهرة بين المُفتِين التواتيين، لعل رحلة عدد من أقطاب حاضرة توات إلى فاس للتعلم يُبرر هذا التأثر.

فرغم حرص الفقهاء على التزام مشهور المذهب و بُعدهم عما شذ من الآراء، و هو سبب كاف لاعتماد مختصر خليل في التدريس و تقديمه في الإفتاء، لما امتاز به من انتقاء مشهور الأقوال و صحيحها، فإنهم يُجيزون العدول عنه لمعارضته بما جرى به العمل . و لا يخلو مصدر نوازلي بتوات

---

1 - انظر : مذكرة أصول الفقه، محمد الأمين الشنقيطي، الدار السلفية، الجزائر : ص 271 .

2 - مدخل إلى تجديد الفقه المالكي، د. قطب الريسوني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1427 /2006 : ص 18 .

3 - انظر : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الحجوي، اعتنى به : أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416 /1995 : القسم الرابع / ص 464 - 465 .

من الإشادة بأهمية ما يجري به العمل و رُجحانه على المشهور، حتى و لو كان أصل الشهرة نص الكتاب، كعدولهم عن الأقراء إلى الأشهر في عدة المطلقة ذات القرء.

ففي شورى من الغُنْيَة البلبالية[1] أن المطلَّقة التي تحيض لا تُصدق في انقضاء عدتها في أقل من ثلاثة أشهر، و ليس من حجة لذلك إلا ما أخبر به الفاسي من جريان العمل به. و هو قوله :

ثم المطلقـة ذات الأقـراء ثلاثة تعتد شهراً شهـرا

رغم أن القرآن الكريم نص على عدتها في قوله تعالى : ﴿ وَ المُطلَّقَات يَتَرَبَّصنَ بِأَنفُسهِنَّ ثَلاثَة قُرُوء ﴾.

و ختاماً ...

فإن النوازل التواتية مرآة عاكسة لما عايشه التواتيون من أحداث، و ديوان لإبداعهم الفقهي، لا يمكن إلا أن يمثِّل تعبيراً عن تحرر علمي، و محاولة جريئة لتطويع الفقه ليلائم طبائع المجتمع التواتي و أعرافه، و هي المحاولة التي أثمرت خزانة علمية تحظى بالاحترام، و نشير في الأخير إلى أن ما عرضناه من منهج و خصائص للفتوى في توات يبقى جزئياً، و سابقاً لأوانه ما دامت معظم الذخائر النوازلية لم تأخذ ما تستحقه من البحث العلمي الجاد، الذي نأمل أن يأخذ مسارين، الأول : إحصاء ما هو موجود في حاله المخطوط لينهض جيل من الطلبة والباحثين بخدمته تحقيقاً و دراسة، و الثاني : جمع كثير من التراث النوازلي الذي لا يزال شفهياً وتدوينه، وذلك أضعَفُ بِرِّ التلامذة بالشيوخ .

و بالله التوفيق، و الحمد لله رب العالمين

1 - الغنية البلبالية، مخطوط : ص 65 . و في ص 68 يُبين ما يُشترط لتقديم ما جرى به العمل، و هي أمور خمسة : ثبوت جريان العمل بذلك القول، معرفة محل جريانه عاماً أو خاصاً، معرفة زمانه، كون من أجرى العمل من الأئمة المقتدى بهم، معرفة سبب العدول عن المشهور.

مصادر البحث و مراجعه

أ- القرآن الكريم

ب- المخطوطات

2. أجوبة عبد الرحمن بن عمر التنلاني، خزانة كوسام، دون رقم .

3. أسئلة و أجوبة التمنطيطي، الخزانة البكرية، تمنطيط، دون رقم .

4. تحلية القرطاس بالكلام على مسألة تضمين الخماس، محمد بن أبَّ المزمري، خزانة كوسام، دون رقم .

5. غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا و النوازل، عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي، الخزانة البكرية، تمنطيط، دون رقم .

6. الكشف و البيان عن حكم مجلوب السودان، أحمد بابا التنبكتي، الخزانة البكرية، تمنطيط، دون رقم .

7. مسألة بيع قضاة توات و كورارة لأصول الهاربين في المغارم، عبد الرحمن الكنتوري، خزانة كوسام، دون رقم .

8. مسألة حُبس المسجد الخرب، مَحمد بن أحمد البداوي البكري، الخزانة البكرية، تمنطيط، دون رقم .

9. نوازل الزجلوي، مَحمد العالم، خزانة المطارفة، دون رقم .

10. نوازل الشيخ باي بن عمر .

11. نوازل الكنتوري، مخطوط، خزانة الصوفي، بدريان، دون رقم .

ج- المطبوعات

12. الجواهر اللئالي من فتاوى الشيخ سيدي عبد الكريم البلبالي، عبد العزيز سيدي عمر، دار هومة، الجزائر، 2003.

13. رسالة في اليهـــود، محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيـــق : عبد الرحيم بن حمادة و عمر بنميرة، دار أبي رقراق للطباعة و النشر، الرباط، ط1، 2005.

14. شرح ميارة على تحفة الحكام، محمد بن أحمد ميارة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1420/ 2000.

15. محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في العرب الإسلامي، د. عمر الجيدي، منشورات عكاظ، المغرب، 1987.

16. فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق : محمد أبو الأجفان، مطبعة طيباوي، الجزائر.

17. فتاوى البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البرزلي : تحقيق : د . محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 2002.

18. الفتوى بين الانضباط و التسيب، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1429 / 2008.

19. الفروق، القرافي، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1423 / 2002.

20. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الحجوي، اعتنى به : أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416 /1995.

21. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، ضبط و تخريج : د. مصطفى ديب البغا، دار الهدى، الجزائر، ط 4، 1990.

22. مدخل إلى تجديد الفقه المالكي، د. قطب الريسوني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1427 /2006.

23. مذكرة أصول الفقه، محمد الأمين الشنقيطي، الدار السلفية، الجزائر .

24. الموافقات، الشاطبي، شرح و تخريج : عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت .

25. نظرات في النوازل الفقهية، د. محمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، ط1، 1420 / 1999.

د- المقالات

26. مسالك التأليف في فقه النوازل بالغرب الإسلامي، د.مصطفى الصمدي، مجلة الذخائر، عدد خاص، السنة 3 خريف 1423/ 2002.

27. مناهج كتب النوازل الأندلسية و المغربية، محمد الحبيب الهيلة، أعمال المؤتمر الافتتاحي لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن ديسمبر 1991 / جماى الآخرة 1413.

الشيخ بلكبير : الفتوى والتدريس.

مناقب الشيخ بن الكبير وجهوده في نشر المذهب المالكي

الشيخ الحاج السالم بن إبراهيم،
شيخ المدرسة الداخلية بمسجد الجيلالي أدرار

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد سيد الخلق وحبيب الحق، وعلى آله وصحبه أجمعين

معالي السيد وزير الشؤون الدينية والمرافق له

السيد والي الولاية

إطارات الأمة وكافة السلطات المدنية والعسكرية

ضيوفنا الكرام

ساداتي الأفاضل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أستسمحكم بداية أن أنوه وأهيب بكل من فكر أوساهم أوقدم شطر كلمة لإعداد هدا الملتقى التاريخي والهام بالنسبة لهذه الولاية المعروفة بتمسكها بالمذهب المالكي .

هذا الملتقى الذي يعد بمثابة اللبنة الأولى في سلسلة ملتقيات قادمة إن شاء الله في ما بقي من مجالات في المذهب المالكي، لترسيخه أكثر في النفوس، وأشير هنا أن من سن سنة حسنة فله أجرها وأخر من عمل بها إلى يوم القيامة .

ويسعدني في هذا الملتقى الذي يعد حسنة من حسنات الولاية، أن أتدخل بهذه الكلمة باسمي ونيابة عن طلبة شيخنا ومريديه ومحبيه، فأقول : ها نحن نعيش على وقع ملتقى وطني حول موضوع هام وضروري في هذا الوقت بالذات، وإذ أبارك مثل هذا الملتقى وتكثيف النقاش حوله – فإني أود أن أشير هنا إلى أن دراسة المذهب المالكي وجهود علماء المنطقة ودورهم في تفعيله وترسيخه ونشره، يعتبر طليعة تمهيدية في حياة منطقتنا وبقية

المناطق الأخرى بصفة أخص، وذلك للخلاف والاختلاف الذي يروج له البعض قصد التخلص من المذاهب الأربعة والدعاية لفكرة اللامذهبية، وهي فكرة ليست غريبة ولا جديدة، فإن أعداء الدين من أدعياء المعرفة السطحية، لا يفتئون أن يسيروا في هذا المنهج إثارة للفتن ما ظهر منها وما بطن، ويستغلون لذلك مختلف الظروف والوضعيات، ولكن نقول ما قاله سحنون المالكي : إذا أراد الله قطع بدعة أظهرها «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فهوزاهق »

وأعتقد أن خلال المناسبة والمواضيع التي خصصت لهذا الملتقى جديرة بأن نعكس فكرة التمسك بالمذهب المالكي نظرا لخصائصه ومميزاته، ولا شك إطلاقا أن من قدموا محاضراتهم في هدا الشأن قد انبروا إلى ذلك وجمعوا شتات المواضيع المدرجة في البرنامج ولهذا سأقتصر فقط على مداخلة بسيطة مقتضبة تتعلق بمناقب الشيخ سيدي محمد بن لكبير ودور مدرسته في الحفاظ على هذا المذهب تعليما وتفهيما وتطبيقا، وأدعوالله سلفا أن يوفقني.

أيها الحاضرون الكرام: إن الدهر يومان :

يوم يسجل الناس فيه حضورهم وينقشون أسماءهم على ذاكرة التاريخ، ويوم منهم يمر كالسراب لا تحسب فيه حتى الدقائق والساعات.

وعلماؤنا رضي الله عنهم من الصنف الأول، فالناس والزمان يعترفون لهم بالحضور الفعلي في حياتهم من خلال ما يتركون من أفعال وبصمات منقوشة في الذاكرة، ولهذا فإن للعلماء في كل عصر وأوان مكانة متميزة بين الناس حتى لدى من لا يقيمون للعلم وزنا، ولا ينتسبون إليه، كيف وهم ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، وكفى بأهل العلم شرفا أن الله تعالى منحهم فضلا عظيما نوه بذلك في غير ما آية في القرآن الكريم. قال تعالى «يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال ابن عباس رضي الله عنهما : العلماء فوق المؤمنين مئة درجة بين كل درجتين مائة عام .

وكيف لا يكونون في هذه المنزلة منارات الهدى يهتدي بهم أهل عصرهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في آجلهم وعاجلهم، إن عاشوا فهم أمناء الله على خلقه، وإن تركوا الدنيا فذكرهم باق على مر الأيام والأزمان .

وشيخنا سيدي محمد بن الكبير طيب الله ثراه والحمد لله من هذا الصنف، فهوعلم الأعلام بلا منازع، وعمدة المتقين في زمانه، وقدوة الصالحين، وعدة العلماء العاملين، وكان سراجا في أدرار أهلته عناية الله من منحه الجليلة، كان أنموذجا فذا في الإخلاص لله تعالى، وقوة الشكيمة، إن سبرت غوره وجدته بحرا في العلم وموسوعة في الأخلاق، تربع على علم الأدب والمعاملات، وشربت نفسه من العلوم الدينية، وبلغ العليا في التربية .

وعرف كيف يستميل القلوب، وكيف يوجهها للتربية المبنية على حب الله ورسوله، والفعل الطيب، والإنتاج المثمر للعقول السليمة .

ولقد اختاره الله لتجديد هذا الدين وتوحيد رب العالمين، فقد ربى نماذج من الأعلام ومن الأجيال التي تمكنت فظل الله من الرسوخ العلمي والفكري، وترك بصمات تذكر ولا تنكر، وساهم في تفعيل الذهب المالكي وترسيخه، وكان منبعا لا ينضب، وقطب دائرة لعلماء زمانه، وترجم الطريقة الصوفية بعمله وزهده وورعه، ولم يتوان في خدمة الشريعة بكيفية مرنة لا غلوفيها ولا تعنيف، ولا تطرف ولا تشدد.

كان في حياته بسيطا مع أنه كان موجها ومصلحا وورعا وتقيا، إن جلست إليه أحسست انك أمام عملاق في العلم الصحيح، وإن استشرته ذلك على الطريق الصحيح، جبل على بذل النصح والتعليم الناس فقيه محنك ومحدث بارعا، أما في علم الكلام والمنطق فتعجز أن تعرف له في ذلك قرارا. إن تحدث إليك أعجبك كلامه وسمته. فذ في معاملته للفقير والصغير والغني والحقير.

إن استضافك فالجود السخاء والكرم وحسن الاستقبال سجية مطبوعة فيه، يغمرك وأنت في ضيافته بشذى من المودة، وبعبق من الكلام الندي، تنسى بهما وحشة الغربة وبعد الديار عنك، ولسان حالك يردد:

عزمنا على أن نقيم ثلاثا ... فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

ومن هنا فليس بدعا وغريبا أن أتناول في هذه المداخلة جانبا خاصا في حياته، ولا غربة أيضا تحدثت عمن ملأ الله قلبه بالإيمان، ويسره للذكر وتلاوة القرآن، وإن صمت ففي فكر، ويعجبك حاله ويدلك على الله مقاله.

إن الحديث عن مناقب شيخنا حديث عجب، وأكبر من أن يختزل في مقالة أومداخلة أوتخصص لها دقائق معدودات، ولكني وقد انتدبت إلى هذا أراني مضطرا لأقدم بعض المقتطفات، وعزائي في ذلك أن مالا يدرك كله لا يترك جله، فأقول ومنه أستمد العون والتوفيق، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

إن حياة الشيخ كانت مليئة بالمناقب وبالمحطات التي تتطلب الدراسة والتمحيص لتكون نبراسا تهتدي به الأجيال الصاعدة في مدلهمات الحياة، تستلهم منها الدروس والعبر.

وفيما يلي أهم تلك المناقب :

أولا ـ لقد وفقه الله منذ نعومة أظفاره أن يشتغل بطلب العلم ولم يشغله في ذلك أي مجال استثمار آخر، شملته عناية الله لملء الفراغ المأهول الذي كانت تعاني منه الأمة، والمتمثل أساسا في انتشار الجهل والأمراض القلبية والعصبيات المقيتة تحت وطأة الإستدمار الصليبي الغاشم كما وفق الله والده أن يهيئه ليشب على بساط الصلاح والفلاح، وأدرك هوأهمية طلب العلم، فراح يطلبه فاتصل بعالم زمانه وشيخ أوانه، سيدي أحمد بن ديدي رحمه الله، الذي كان يشار له آنذاك بغزارة العلم، وبهيبة ووقار غير معروفين في غيره، الذي توسم في تلميذه أن يكون ذا شأن، فمنحه رعايته وعنايته، وسربله بعطفه ورضاه.

وفي زمن يسير غرف من فيض شيخه علما وحكمة، وفهما ودراية، وتزود منه بدعوات الخير والبركة، وفتح الله عليه من فضله الواسع، وذلك فضل الله يقذفه في قلب من يشاء، وكيف ما يشاء والله ذوفضل عظيم.

فتح الله عليه فتحا عز نظيره، وأسبغ عليه من نعمه الظاهرة والباطنة في مرحلة مكوثه، فكان الطالب المجد المثابر على اقتناص العلم، ويسرت عليه ذاكرته القوية استيعاب مجمل فنون المعرفة، والتشرب من دقائق العلوم، ففهم جزئياته، وكان ملما بتفاصيله الدقيقة وفروعه الواسعة، وتلك منقبة أخرى من مناقبه، ففي مراحل عمره الأولى وفي عز شبابه تربى في كنف العلم وتحت رعاية شيخ عرف بكرامات شتى، ونلك عناية الله بالشيخ سيدي محمد بن الكبير.

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

ثانيا- إن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم قد ضمن لسبعة من الناس أن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلى ظله، وذكر في حديث السبعة هذا شاب نشأ في عبادة الله فهل هناك عبادة أفضل من مجالس العلم؟ ومن تعلم العلم، وإن حضور مجلس واحد خير من عبادة ستين سنة ومن شهود ألف جنازة ومن عيادة ألف مريض.

ثالثا- مكنه الله من بسطة في العلم نتيجة جهده وكده، وأصبح بعد تخرجه منها عالما حكيما، ومربيا وخبيرا، ولقلة ذات اليد توجه إلى بادية المشرية فعلم بها مدة، سافر إثرها إلى تلمسان حيث كان هناك عالم رباني من العلماء الأجلاء وهوالكرزازي السيد بوفلجة، واستفاد من بحر علمه وفيوضات أسراره، وأصبح طبيبا ماهرا في معالجة النفوس ومعرفة دائها ودوائها، ولتقدم أبيه في السن قفل عائدا إلى مسقط رأسه بودة بزاد علمي،وبنظرة ثاقبة للحياة وبتجربة جديدة، وأصبح في مرحلة العطاء، وشعر في قرارة نفسه أنه يجب عليه أن ينشر ما يحمل في صدره بوازع الأمانة العلمية والفكرية التي يحملها، معتمدا في ذلك على من بيديه خزائن السموات والأرض. وما دامت الغاية نبيلة فإن ما وراءها من مشاق وصعاب ستزول بحول الله تعالى وامتطى قول الشاعر:

لاستسهلن الصعب أوأدرك المنى : فما انقادت الآمال إلا لصابر

فلم ييأس ولم يعجز، ولم يستسلم، ولم تلن عريكته أمام قلة الإمكانيات وندرة الوسائل، وتلك همة عالية قلما تكون في غير فحول الرجال، وهداية ربانية يوفق الله لها من يشاء من عباده من أفضل الفضل والكمال.

رابعاً – كانت بداية مشواره في مدينة تيميمون، ولأمر ما وحكمة أرادها الله، يضايق من طرف الاستعمار فيوقف هذا المشوار الذي كان بداية سعيدة وموفقة ووسيلة لانتشار صيته وشهرته، فما كاد يحط عصا الترحال بعد العودة إلى مسقط رأسه حتى هرع أعيان مدينة أدرار إلى شيخه سيدي أحمد ديدي يستنجدون به ويلحون عليه في أن يتخذوه إماماً ومدرساً بأدرار، فلم يتردد في تلبية مطلبهم وتحقيق مأ ربهم، فأشار على تلميذه محمد أن يستجيب إلى ذلك، ورب إشارة أبلغ من عبارة، فإن من فتح الله بصرهم وبصيرتهم على الأشياء، ينظرون إليها نظرة : كنت بصره الذي يبصر به... وتم بتوفيق الله وكرمه لشيخنا ما كان يأ مله ويسعى لتحقيقه ففتح مدرسته وكانت باكورة لأعمال أخرى جليلة. وتعد هذه البداية السعيدة بأدرار بداية لطريق طويل وهام في حياة الشيخ ومنقبة من المناقب الكبرى له. فقد أثمرت مدرسته وأينعت وأثمرت ولا تزال، وظهرت نتائجها، وآتت أكلها للناس بإذن ربها ببركة صاحبها، وكانت منبع سعادة وخير لابن الغني والفقير، وللصغير والكبير، ولأبن الشمال والجنوب، ولمن يقصدها من أبناء القارة السمراء وأخوانهم المسلمين من القارة الأوربية، فانتشر خيرها بذلك شرقاً وغرباً، واجتمع في رحابها طلاب العلم من كل حدب وصوب .

وهكذا سرى مداها ومددها في تلك الربوع فأمتد تأثيرها إلى تلك الأصقاع، وهكذا فإن هذه المدرسة وأثرها تجاوز مربع أقليم توات وضواحيها، بفضل جهود الشيخ وبركته وتفانيه وفوق هذا بفضل نيته الصادقة وإخلاصه لرب العالمين، وأصبحت تهفوإليها الأفئدة، وتشد إليها الرحال، وتلهج الألسنة بذكر صاحبها وتثني عليها، وهذه المدرسة بفضل الله قد انبعثت عنها مدارس مماثلة لها ببركة الشيخ، وفتح العديد منها بإشارة منه في حياته.

معشر الحاضرين – لم يكن الشيخ يرى لنفسه مزية في نشر العلم وتوفير كافة الظروف لتحقيق ذلك، وإنما كان يرى أن لعلمه هذا فضيلة يثاب عليها المخلصون باعتباره الوسيلة المثلى لهداية الناس إلى الناس إله الناس، وكان يرى أن حياته ليست ملكاً له وعليه أن يسخرها فيما خلقت لأجله، (وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إلا ليعبدون) أي ليعرفوني،وهل ثم معرفة أوعبادة دون علم ؟

خامساً- لقد اقتفى آثار شيخه في نشر العلم وتعليم الناس ما يفيدهم في العاجل والآجل، وجند لذلك نفسه وجهده وماله، وما كان يملك من عقار، ولذلك فتح الله عليه من فضله الواسع. ووسع الله عليه بما لا يدخل تحت حصر، ومع هذا لم يدخر هذه الخيرات لنفسه ولا اتخذها وسيلة للغنى والثراء، ولا كان جامعاً للمال شرهاً في البحث عن الاستزادة منه، وإنما كان ينفق ذلك على طلبته، وما فضل له يوزعه يميناً وشمالاً، لا يخشى عاقبة فقر ولا انقلاب دهر، وكان يردد دائماً بملء فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لوكانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا جرعة ماء. ويقول على رأس الملأ : طالب العلم تكفل الله برزقه . وما اعتبر الأوراق المالية مالاً إلا في باب الزكاة،ولكنه كان يسميها كاغدا .ولاشك أنه كان بهذا في مرتبة الصديقين، لأن حب الدنيا والرياسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين، كما أن مدرسته ومنزله بكافة مرافقهما كانت مأوى لعابري السبيل، يلتقي فيها القاصي والداني، ولم يتأفف في يوم ما من استقبال احد ولا أغلق بابه في وجه قاصد، وإنما كان يستقبل الناس بالبشاشة والترحاب وسعة الصدر، وكثيراً ما كان يواسي الفقراء والمحتاجين ومن تقطعت بهم السبل، ويبعث أحياناً للعاجزين من هؤلاء بالمال والمؤن ووسائل العيش دون من أوأذى، وكثيراً ما يدرك بفراسته حاجة المحتاجين الذين لا يسألون الناس إلحافاً. وهوشعور بل سلوك في نظري ينم عن مكاشفة خاصة يمنحها الله لمن فتح عليه بصيرته فيكون هوبصره الذي يبصر به.

سادساً- كان مثالاً في الصبر وتحمل المشاق والمعاناة بصدر رحب في ثقة بالله بالفرج في كل أموره، والاتكال على الله في تسييرها، رائده في ذلك: من استعان بالله تيسرت مطالبه ونجحت مآربه، وقول الشاعر:

إذا لم يعنك الله فيما تريده فليس لمخلــوق إليه سبيل
وإن هولم يرشدك في كل مسلك ضللت ولوأن السماك دليل
استعن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك مصيبة فتجمل

وذلك سلوك أهل التقوى والعارفين بالله .

سابعاً- وسع الله له أفق التفكير في تسيير مدرسته وشؤونه كلها، فقد كان يديرها بنفسه، ويدبر لها ويوجه المساعدين له إلى طريقة تنفيذها وحسن القيام بها مع أتساع مجالاتها، وكان لحصافة رأيه السديد اكبر الأثر، وهذه الأشياء إنما تصدر من نور في القلب يضعه الله في لب من يشاء من عباده. ومع هذا فقد كان لا يحب أن يشار له بالبنان بأنه من أهل الكرامات والأمور الخارقة للعادة، أوأنه له مزية أودور في أمر ما، إنما ينسب ذلك لله :

كأني آلة وأنت محركي : أنا قلم والاقتدار الأصابع

ثامناً – أوقف حياته على العلم تعلماً وتعليماً وإفادة واستفادة وخرج بفضل الله الآلاف من الطلبة هم الآن يؤطرون القطاع الديني عبر الوطن وخارجه، بصفتهم أئمة وخطباء ومرشدين ودعاة لا أدعياء للعلم، بل ويوجد منهم أساتذة في مختلف أطوار التعليم بما في ذلك التعليم الجامعي، وإطارات سامية للأمة في مجالات أخرى .

تاسعاً – ركز تعليمه في مجال الفقه والعبادات على المذهب المالكي، وكان يردد على رؤوس الحاضرين : نحن مالكيون – إذا ذكر العلماء فمالك النجم .

ذلك المذهب الذي اختاره سكان توات ومعهم سكان الجزائر والمغرب العربي كله، تمسكوا به واعتمدوه في العبادات والمعاملات ، حتى صار جزءًا لا يتجزأ من حياتهم وقوام ذاتهم، وأساس بنائهم الفكري، إلى جانب العقيدة الأشعرية وتصوفهم السني.

قال الإمام عبد الواحد الأنصاري بن عاشر :

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

ثلاثية ذهبية ظل الشيخ طوال حياته يدعوإليها ويرسخها، ويعمل على توطيدها بحكم إنها حصيلة شرب من معينها الشعب الجزائري قروناً طويلة، تناقلها جيل بعد جيل، وورثها الخلف عن السلف، والتنكب عليها يعد طعناً في تاريخنا المجيد .

وقد سجل الشيخ – جزاه الله خيراً – في نشره للمذهب المالكي الرقم القياسي أوالرقم الصعب، الذي لا يمكن تجاوزه كما يقولون لأنه كان يعتبر التفقه في الدين سبيلاً للعبادة الحقة،والطريق الصحيح إلى الله إنما يتحقق في امتلاك ناصية الفقه، وتطبيقه نصاً وروحاً .

تفقه فإن الفقه أفضـــــــل قائد ::إلى البر والتقوى وأعدل شاهـــــد

هوالعلم الهادي إلى سنن الهدى ::هوالحصن منجي من جميع الشدائد

وكان رحمة الله يلقب بالفقيه السِّي محمدً لأنه كان حريصا على نشره وتطبيقه قولاً وفعلاً، وكانت مرجعيته الأساسية تلكم المراجع المتفق عليها والتي وقع الإجماع عليها على ما فيها باعتبارها مبنية على الأسانيد المتصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأذكر هنا أنه ما ضل من ضل إلا من أفتى بغير علم وأتبع هواه، وخرق المذاهب المتفق عليها وتصدر الفتوى، وأضله الله من حيث لا يشعر بكلمة: قال الله قال رسول الله - وهي كلمة حق تحمل بين طياتها سراب الباطل، يقذفها أعوان إبليس، لتغييب الحق ونصرة الباطل، واتهام أئمتنا بالضلال، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

قلت إن شيخنا كان مستمسكاً بهذا المذهب حتى النخاع وكان يردد المقولة الذهبية الواردة عن الإمام مالك من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق،ومن جمع بينهما فقد تحقق. ولأن هذا المذهب كان وسيلته للحقائق الذوقية، وهكذا عصمه الله من مزالق الطريق ومنعرجاته الخطيرة وحقق الله رجاءه، فكان من عباده المخلصين، ويتجلى ذلك في اتكاله وتطبيق أوامره ونواهيه، وعزوفه عن الدنيا وحطامها وزخرفها، وبذلك تربع على سنن الهدى، وكانت له في ذلك مناقب لا تعد ولا تحصى .

عاشراً- رسم لنفسه من بداية مشواره خطوطاً حمراء لا يمكن تجاوزها، وضوابط شرعية لا يجوز التخلي عنها أوإلغاء جزء منها – فلا بد من الاستقامة- وهي بالنسبة له خير من ألف كرامة، ولا بد أيضاً من تعظيم ما عظم الله، والوقوف على أمره ونهيه، كما أن شخصيته الفاضلة لم تحمل من متناقضات في القول والعمل، وكان متميزاً بملامح وصفات المؤمنين وبساطة العلماء المتقين ربط نفسه بالله، وكان سعيه لله، وكان مع الله، فكان الله معه، ولسان حاله يقول : من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذلك الشقي.

ما يصنع العبد بعز الغنى والعز كل العز للمتقي

حادي عشر- كان ينوه بالقدوة ويدعوإليها، والقدوة بالنسبة له إنما تكون بمن كانوا يسيرون في طريق الله من العلماء العاملين وأولياء الله الصالحين ورثة أنبيائه المرسلين، أما غير هؤلاء ممن يخالفون شرع الله ولا يخا فون ربهم ويأسرون الناس بمعسول كلامهم فإن علم هؤلاء من إبليس وجنوده

ثاني عشر- لقد جمع بين علم الشريعة وعلم الحقيقة، فكان على معرفة يقينية بالله يخص بها تقواه، ويبين عاقبة من يخالف شرعه ولا يخشاه،وهوفضل من الله عظيم يختص برحمته من يشاء والله ذوالفضل العظيمً

ثالث عشر- أصلح نفسه فأصلح الله به خلقاً كثيرا وكان أمة في الأسوة الحسنة بعلمه وعمله وكلماته وسلوكه- بمروءته وهندامه – باعتداله في سمته وهيئته في سكوته ونطقه – وتلك صفات أساسية للشخصية المتوازنة

رابع عشر- استطاع في ظرف وجيز بفضل الله أن يضفي على المنطقة سمعة متميزة بفضل علمه وعمله، وجعل لمدرسته طابعاً خاصاً متميزاً في الهندام والسلوك والتقوى: ولباس التقوى ذلك خيرً

خامس عشر- إن من نور المعرفة والعلم الذي يمنحه للراسخين من الرجال الكمل سرعة البديهة وحضور الذهن في الإجابة عن الأسئلة الشرعية من مصادرها الصحيحة ولاسيما في مواجهة الحجة بالحجة، ومقارعة أهل الهوى في الفتاوى المضللة، فكثيراً ما كان يرد عليهم حجتهم ويبطلها،

مستدلاً في ذلك على الأدلة اليقينية الصحيحة، ولاسيما المتطاولين على التقوى وأدعياء العلم، فكثيراً ما كان يفحمهم بأدلة ثابتة كتاباً وسنة وإجماع، فلا يستطيعون بعدها إلا أن ينصاعوا لإجابته.

تلكم بإيجاز هي بعض مناقب شيخنا اختصرتها امتثالا للوقت المحدد لهذه المداخلة. وإذ أعبر عن شكري لكرم إصغائكم، فإني اعتذر لديكم عن عدم الإيفاء للموضوع حقه كاملاً، لاعتقادي أن العديد من الحاضرين هنا شاهد بأم عينه على المناقب وزيادة، أوكان هومنقبة من مناقبه، بفضل انتسابه لمدرسته العامرة . رحم الله شيخنا يوم ولد ويوم تعلم ويوم علم ويوم مات ويوم يبعث في الخالدين .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الفتوى عند الشيخ
الحاج سيدي محمد بن الكبير

الشيخ / عبد الحق بكراوي،
إمام أستاذ رئيسي : بمديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولايـة أدرار

الحمد لله رب العالمين، سبحانك لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رغب العباد في إتباع الصراط المستقيم، فقال عز من قائل:

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، أشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. اللهم فصل وسلم عليه وعلى آله وصحبه والسالكين منهاج سبيله القويم إلى يوم الدين.

أما بعـــــد:

لقد حظيت الفتوى باهتمام بالغ وعناية كبرى منذ فجر الإسلام وتوالي نزول القرآن؛ وذلك لأنها وسيلة لبيان دين الله وشريعته المتعلقان بحركة الإنسان في هذا الوجود، وحركة الإنسان أحداث ونوازل متجددة بتجدد الأزمان، وحتى تكون هذه الحركة متناسقة مع مراد الله من عباده تولى سبحانه وتعالى بنفسه القيام بوظيفة الفتوى، قال تعالى:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾.

ثم خول سبحانه وتعالى رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لتولي هذه المهمة، قال تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾. ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا

وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾. ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾.

ثم تولى العلماء الربانيون ذلك بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على مر الأزمان، يخلف بعضهم بعضا، تحقيقا لقول الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: « إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

(ولقد أثر عن بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أنهم كانوا يحرصون على الإفتاء في كل ما يعرض عليهم، فيروى أن أبا ذر ـ رضي الله عنه ـ كان جالسا يوما عند الجمرة الوسطى، وقد اجتمع عليه الناس يستفتونه، فأتاه رجل فوقف عليه قائلا: ألم تنه عن الفتيا؟

فرفع رأسه وقال: أرقيب أنت علي؟ لووضعتم الصمصامة على هذه، وأشار إلى قفاه، ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها).

وهكذا كان كثير من الصحابة، ثم التابعون، ومن بعدهم من العلماء الربانيين حرصين على نشر دين الله، سواء كان بالإفتاء أوبغير ذلك من وسائل التعليم.

تعريف الفتـوى:

الفتوى لغة: تقاربت تعاريف أهل اللغة لمعنى (الفتوى) وكلها تدل على معنى البيان والإيضاح. ففي المصباح المنير: (الفتوى: بالواوبفتح الفاء وبالياء فتضم، وهي اسم من أفتى العالم إذا بين الحكم، واستفتيته سألته أن يفتي، ويقال أصله من الفتى: وهوالشاب القوي، والجمع الفتاوي بكسر الواوعلى الأصل، وقيل: يجوز الفتح للتخفيف). وعرفها المطرزي بقوله: «وَاشْتِقَاقُ الفتوى مِنْ الْفَتَى لِأَنَّهُ جَوَابٌ فِي حَادِثَةٍ أَوْ إحْدَاث حُكْم أَوْ تَقْوِيَةٌ لِبَيَانِ مُشْكِلٍ»، وفي القاموس المحيط: «والفُتْيَا والفُتْوَى وتُفْتَحُ: ما أَفْتَى به الفَقِيهُ».

وفي لسان العرب:(الفُتيا تبيين المشكل من الأَحكام أَصله من الفَتَى وهوالشاب الحدث الذي شَبَّ وقَوِي فكأَنه يُقَوّي ما أَشكل بيانه فيَشِبُّ ويصير فَتِيًّا قوًّيا، ـ وقال ـ الفتيا، والفُتوى، والفَتوى: ما أفتى به الفقيه، الفتح في الفتوى لأهل المدينة) . أما أبوالحسن ابن فارس فقد ذكر (للفتوى) معنيين: الإبانة، والفتوة بمعنى الطروالجدة. قـال: (الفاء، والتاء، والحرف المعتل، أصلانِ: أحدهما يدلُّ على طَرَاوة وجدّة، والآخرة على تبيين حكم. [الأصل الأول] الفَتيّ: الطَّرِيّ من الإبل، والفَتَى من الناس: واحد الفِتْيان. والفَتاء: الشباب، يقال فتىً بيِّن الفَتاء.

قال الشاعر:

إذا عاش مئتين عامًا فقد ذهب اللذاذة والفتاءُ.

والأصل الآخر الفُتيا، يقال: أفتى الفقيه في المسألة، إذا بين حكمها. واستفتيت، إذا سالت عن الحكم، قال تعالى: ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ [4] . وفي تاج العروس: (الفتيا والفتوى ـ بضمهما وتفتح أي الخيرة ـ ما أفتى به الفقيه في مسألة)[1]. قال الراغب الأصفهاني[2]: « الفتيا والفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام »[3]. والفتوى في مفهومها اللغوي أعم وأشمل منها في الاصطلاح يدل على ذلك آيات القرآن الكريم الواردة في هذا السياق من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[4]. ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[5]. ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾[6]. إلى غير ذلك من الآيات.

قال أبوعلي اليوسي[7] : (الإفتاء يصدق في الأصل في كل علم فكل من بين مسألة فقد أفتاه، ولكن اشتهر في العرف إطلاقه في الشريعة فقط.

وقال ابن حجر: (الأصل في الفتوى السؤال ثم أطلق على الجواب).

الفتوى اصطلاحا: عرف الفقهاء الفتوى بأنها: الإخبار بالحكم الشرعي لا على وجه الإلزام، وقولهم: (لا على وجه الإلزام) لإخراج حكم الحاكم

عند من يرى أنه الإخبار بالحكم الشرعي على وجه الإلزام، وأما عند من يرى (أن حكم الحاكم إنشاء) كالإمام القرافي فلا يحتاج إلى تلك زيادة.

حكم الفتوى:

إن التكاليف الشرعية التي أوجب الله على العباد فهي باعتبار أدائها تنقسم إلى قسمين:

أ ـ الفرض العيني: هوالذي قصد الشارع حصوله من كل فرد من المكلفين، أومن فرد مخصوص كالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لتكرر مصلحته، مثل الصلاة فإن مصلحتها الخضوع لله تعالى، وتعظيمه، ومناجاته، والتذلل له، وهذه المصلحة تتكرر بتكرر الصلاة.

ب ـ الفـرض الكفائي: هوالذي قصد الشارع حصول فعله دون النظر إلى ذات فاعله إلا بالتبع للفعل، ضرورة أنه لا يحصل دون فاعل، وجعله الشارع على الكفاية نفيا للعبث، لأن مصلحته لا تتكرر بتكرره، ويشمل ما هوديني كصلاة الجنائز، وما هودنيوي كإنقاذ الغريق وغيره من الحرف، ومعنى لا تتكرر المصلحة بتكرره أن من أنقذ شخصا غريقا، فإن النازل للبحر بعد ذلك لا يحصل شيئا من المصلحة، لتحققها قبل فعله.

وقد عبر عنه في المنهج بقوله: وفرض عين الذي تكررا نفع به غيرٌ كفائيٌ يُرَى[2]

وتندرج الفتوى تحت هذا القسم الأخير، وإلى هذا أشار في المختصر في باب الجهاد ضمن ما ذكره من فروض الكفاية بقوله:(...كالقيام بعلوم الشرع، والفتوى، ودفع الضرر عن المسلمين، والقضاء، والشهادة، الإمامة...)[3].
قال أبوعبد الله محمد بن يوسف العبدري الشهير بالمواق[4].

(نقل أبوعمر عن الحسن ما نصه: ست إذا أداها قوم كانت موضوعة عن العامة، وإذا اجتمعت العامة على تركها كانوا آثمين، الجهاد في سبيل الله، ـ يعني سد الثغور والضرب في العدو والفتيا، وغسل الميت، والصلاة عليه، والصلاة في الجماعة، وحضور الخطبة)[5].

ومادامت الفتوى من الفروض الكفائية فينبغي لأهل كل بلد أوقطر أن يندبوا طائفة منهم لطلب العلم الشرعي ولتحمل وظيفة الإفتاء، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾6.

ولِمَا أوجب الله من سؤال أهل العلم في قضايا المجتمع أفرادا أوجماعة، قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾7*. وقد تصير الفتوى فرض عين في حق العالم ذي الأهلية إذا أنفرد ولم يوجد غيره في البلد.

قال الشيخ إبراهيم اللقاني : «فإن لم يكن في القطر متأهل له ـ أي الإفتاء ـ إلا واحد، تعين عليه، وإن كان فيه غيره فهوفرض كفاية يتوجه الخطاب به على الجميع ابتداء، فإذا قام به البعض سقط وجوبه على الباقين على ما هو شأن سائر فروض الكفاية».

أهميـــــــة الفتوى:

للإفتاء أهمية عظمى، ومكانة عالية في الإسلام، إذ المفتي وارث الأنبياء والمرسلين، وحامل قضايا المجتمع، والواسطة بين الله وخلقه، أوالموقع عن الله ورسوله كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله وقد جاء عن السلف عنايتهم بالفتوى ما بين مكثر ومقلل، كما سبق بيانه، وأكثرهم كانوا يتدافعونها خوف التقصير في حقها، فقد جاء عن ابن المنكدر أنه قال:(العالم بين الله تعالى وخلقه، فلينظر كيف يدخل بينهم)، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى5. قال: «أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يسأل أحدهم عن المسالة، فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول)6. وفي رواية:(ما منهم من يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه إياه».

وأخبار السلف في ذلك كثيرة، أما اليوم فقد أصبح التجرؤ على الفتوى من كثير من الناس، حيث لا ورع يمنعهم، ولا رادع يكفهم، وهم لا يمتلكون أهلية الفتوى، بل لا يعرفون أساسيات علم الشريعة، وهم كما قيل في المثل

العربي (تزبب قبل أن يتحصرم)، وقال في أمثالهم الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: (وقد تكلم فى العلم من لوأمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به، وأقرب من السلامة له إن شاء الله).

وقال الإمام بن القيم ـ رحمه الله ـ:

هذا وإنى بعد ممتحن بأربعة وكلهم ذووأضغان فظ، غليظ، جاهل متمعلم ضخم العمامة واسع الأردان متفيهق، متضلع بالجهل، ذوضلع، وذوجلح من العرفان

زاج من الإيهام والهذيان مزجى البضاعة فى العلوم وإنه
ويحيل ذاك على قضا الرحمن من جاهل متطبِّب يفتي الورى
والتبديع والتضليل والبهتان ما عنده علم سوى التكفير

شروط المفتي: المفتي مخبر عن الله بما شرع لعباده في المسألة المستفتى فيها، وموقع عن الله ورسوله في ذلك، ولن يستحق هذه الرتبة ويكون جديرا بهذا الشرف ـ النيابة عن الله ورسوله ـ إلا من توفرت فيه شروط الفتوى، وقد جمعها الإمام النووي في قوله:(شرط المفتي كونه مكلفا مسلما ثقة مأمونا متنزها عن أسباب الفسق وخوارم المروءة فقيه النفس سليم الذهن رصين الفكر صحيح التصرف والاستنباط متيقظا).

ونفس الشروط ذكر أبوعمروبن الصلاح في أدب المفتي والمستفتي. وقد أرجع الإمام أبوالعباس أحمد الهلالي الصفات المشترطة في المفتي إلى صفتين أساستين: العدل والمعرفة، وفسر سر اشتراط الأولى بقوله: (أما شرط العدالة فلئلا يرتكب ما لا تجوز الفتوى به قصدا أوتساهلا، فالقصد أن يتعمد ذلك لغرض فاسد، كقصد ضرر أحد الخصمين، أوقصد نفع الآخر لعداوة أوصداقة، أوليحصل له بذلك نفع من أجرة يأخذها، فيدخل في قوله تعالى:﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ...إلى يَكْسِبُونَ﴾ أوليكسب جاها عند سلطان مثلا بالترخيص له وما أشبه ذلك، والتساهل أن لا يتثبت فيفتي بلا إمعان نظر في المسألة ...). ثم فسر سر اشتراط الثانية بقوله: (أما شرط المعرفة فلأن المطلوب من المفتي تبين الحق الذي هوالحكم الشرعي في العبادة

أوالمعاملة، والجاهل أعمى عنه ضال عن طريقه، والضال عن الطريق كيف يطلب منه أن يهدي الناس؟[5].

وفي الحديث: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا). وصرح بذلك ابن عاصم ـ رحمه الله ـ في قوله:

وشرطـــه مع علمـــه عدالتـــه ويقتفـــي بفعلـــه مقالتـــه

وفي مراقي السعود:

من لم يكن بالعلم والعدل اشتهر أوحصل القطع فالاستفتا انحظـر

وأشار القاضي أبوالوليد بن رشد (الجد)، ت 520هـ ، إلى ما يتطلبه التأهل للفتوى من النور الذي يبعثه الله في قلوب العلماء؛ إذ قال: (ليس العلم الذي هوالفقه في الدين بكثرة الرواية، وإنما هونور يضعه الله حيث شاء؛ فمن ارتكن في نفسه أنه أهل للفتوى بما وضعه الله من ذلك النور المركب على الحفظ، جازت له الفتوى، إذا اعتقد الناس كذلك، كما قال ابن هرمز: حتى يراه الناس أهلا لذلك، ويرى هونفسه أهلا لها).

آداب الفتوى:

إن الفتوى من المراتب العالية والوظائف الشريفة؛ إذ هي الإخبار بحكم الله ورسوله في الحوادث والنوازل، فينبغي للقائم بها أن يتحلى بالآداب والأخلاق الفاضلة، أذكر بعضا منها وهي:

أ ـ الالتجاء إلى الله، وطلب التوفيق منه قبل الإفتاء:

إن الفتوى مبنية على العلم ولا يحيط به على الإطلاق إلا الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وقالت الملائكة في الملأ الأعلى: ((قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ))، فأقرت أن ما علمته إنما هومن الله، بل وما تعلمه المخلوقات كلها من الله دون سواه. لذلك وجب على المفتي وعلى كل ذي علم أن يعلم أنه

في حاجة لمعونة ربه وتوفيقه، وأن يصحح بداية كل عمل بالرجوع فيه إلى الله، كما قال ابن عطاء الله: « من علامات النجح في النهايات، الرجوع إلى الله في البدايات ». وقال أيضا: « ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك ». وأن يتبرأ من حوله وقوته في كل حال بقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله). قال تعالى حكاية عن صحبي الجنة؛ إذ قال لأخيه:﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وكان سيد التابعين سعيد بن المسيب ـ رضي الله عنه ـ لا يكاد يفتي حتى يقول:

(اللهم سلمني، وسلم مني). وكان الإمام مالك ـ رحمه الله ـ لا يفتي حتى يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله). وعلى المفتي أن يلجأ إلى الله بالتضرع والدعاء في كل لحظة وخطرة وخطوة أن يلهمه الرشد والتوفيق، حتى تكون فتواه مشمولة بتوفيق الله ورعايته، وسعيه ملحوظا بالقبول والتسديد[9]. قال ابن القيم الجوزية: (ينبغي للمفتي الموفق إذا نزلت به مسألة أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقي الحالي لا العلمي المجرد إلى ملهم الصواب، ومعلم الخير، وهادي القلوب، أن يلهمه الصواب، ويفتح له طريق السداد، ويدله على حكمه الذي شرعه لعباده في هذه المسألة، فمتى قرع هذا الباب، فقد قرع باب التوفيق). والآثار عن السلف في ذلك كثيرة لا يسع المقام لذكرها.

ب ـ فهم الواقعة فهما دقيقا: الوقائع والنوازل هي الباعث على الفتوى وبيان حكم الله فيها، فيجب على المفتي ألا يعطي أي نازلة سئل عنها حتى يعلم حقيقتها، ويدرك مراميها، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره. قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ : لا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن، والأمارات، والعلامات، حتى يحيط به علما. والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهوفهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أوعلى لسان رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر).

ويقول الإمام القرافي: (ينبغي للمفتي أن لا يأخذ بظاهر لفظ المستفتي العامي حتى يتبين مقصوده، فإن العامة ربما عبروا بالألفاظ الصريحة عن

غير مدلول اللفظ، ومتى كان حال المستفتي لا تصلح له تلك العبارة ولا ذلك المعنى، فذلك ريبة ينبغي للمفتي الكشف عن حقيقة الحال كيف هي؟ ولا يعتمد على لفظ الفتيا أولفظ المستفتي، فإذا تحقق الواقع في نفس الأمر ما هوأفتاه، وإلا فلا يفتيه مع الريبة. وكذلك إذا كان اللفظ ما مثله يسأل عنه، ينبغي أن يستكشف ولا يفتي بناء على ذلك اللفظ، فإن وراءه في الغالب مرمى هوالمقصود، ولوصرح به امتنعت الفتيا). خصوصا إذا كانت الفتوى تتعلق بقضايا الكبرى للمجتمع، سواء كانت اجتماعية أواقتصادية أوسياسية.

يقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: «إن من الناس من يجازف بالفتوى في أمور المعاملات الحديثة، مثل التأمين بأنواعه، وأعمال البنوك، والأسهم والسندات، وأصناف الشركات، فيحرم أويحلل دون أن يحيط بهذه الأشياء خبرا، ويدرسها جيدا. ومهما يكن علمه بالنصوص، ومعرفته بالأدلة، فإن هذا لا يغني، ما لم يؤيد ذلك بمعرفة الواقع المسؤول عنه، وفهمه على حقيقته».

فالمفتي ابن زمانه عليه أن يكون ملما بعلوم عصره وثقافته، وأن يكون مطلعا على ما يجري حوله، خصوصا وقد تطورت وسائل المعرفة والعلوم، فنحن في عصر المعلوماتية المتجددة بحسب تطور التكنولوجيا، وقد قيل قديما :

تعلـم من كل علم تبلغ الأمـل ولا يكـن لك علـم واحـد شغـل
فالنحل لما رعت من كل نابتة أعطت لنا جوهرين الشمع والعسل
فـالشمـع نـور يستضـاء بـه والعسل يشفي بـإذن ربـه العـلل

وقالوا: تخصص في شيء، وتعلم من كل شيء. قال الراغب الأصفهاني: قـال يحيى بن خالد: (انتق من كل علم طرفاً، فمن جهل شيئاً عاداه وأكره أن تكون عدوالشيء من الآداب .

وقيل: إذا أردت أن تكون عالماً فاقصد فنًّا واحداً، وإذا أردت أن تكون أديباً فخذ طرفاً من كل فن . وقيل: من لا يعلم إلا فناً واحداً من العلم سمي الخصي من العلماء).

ج ـ التثبت في الفتوى وعدم الإسراع في الجواب: ينبغي للمفتي أن لا يكون سريع الجواب حتى يتثبت من فهم السؤال، ويكون عالما بالجواب، سئل الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن مسألة. فقال: لا أدري، فقيل له: هي مسألة خفيفة سهلة. فغضب. وقال ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. وعن الشعبي والحسن وأبي حصين بفتح الحاء التابعيين قالوا: «إن أحدكم ليفتي في المسألة ولووردت على عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لجمع لها أهل بدر».

وقال الشافعي: (ما رأيت أحدا جمع الله تعالى فيه من آلة الفتيا ما جمع في ابن عيينة أسكت منه على الفتيا).

د ـ الوسطية والاعتدال في الفتوى: وأقصد بالوسطية والاعتدال أن تكون الفتوى تدل على سماحة الإسلام ويسره، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

لا يميل المفتي إلى التشديد والعسر، ولا يجنح إلى تتبع الرخص المذهبية التي تتنافى مع هدف التشريع ومقصده، بل أن يكون مقصد المفتى هوتحقيق رضا الله مع الرفق بالعباد.

يقول الإمام الجليل سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: (إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة فأما التشديد فيحسنه كل أحد). لما طلب أبوجعفر المنصور الخليفة العباسي من الإمام مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ كتاب الموطأ قال له: (تجنب فيه شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود). وأخرج الإمامان البخاري ومسلم من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا). وقال الإمام الشاطبي ـرحمه الله ـ: (المفتي البالغ ذروة الدرجة هوالذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال ـ ثم استدل لذلك بقوله ـ والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة،...أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، ـ فإذا حاد المفتي عن هذا المنهج فقد ـ خرج عن المذهب الوسط. ثم أضاف

دليلا ثانيا عمليا فقال: وأيضا: فإن هذا المذهب كان المفهوم من شأن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأصحابه الأكرمين، وقد رد عليه الصلاة والسلام التبتل، وقال لمعاذ لما أطال بالناس الصلاة: (أفتان أنت يا معاذ)، وقال: (إن منكم منفرين)، وقال: (سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا). إلى غير ذلك من الأدلة المستقرئة من نصوص الشريعة ووقائعها الدالة على طلب الالتزام بالوسطية والاعتدال في كل شيء.

هـ ـ اجتناب الفتوى حال تغير المزاج: لا شك أن المفتي كغيره من الناس تعتريه أحوال تسلبه الإرادة وحسن التفكير والتدبير، وذلك كالمرض، والغضب الشديد، والفرح الغالب، وغير ذلك مما يشغل فكر الإنسان، ويمنعه التصرف السليم، فإنه ينبغي أن يجتنب في هذه الحال الفتوى، حتى في حال سليمة من كل المؤثرات، فإن المفتي يشمله النهي الوارد في قول الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: (لا يقض القاضي وهوغضبان)، كما القاضي، فالحكم عام وليس بخاص. قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ:(ينبغي أن لا يفتي في حال تغير خُلقه، وتشغل قلبه،وتمنعه التأمل، كغضب، وجوع،وعطش، وحزن، وفرح غالب، ونعاس، أوملل، أوحر مزعج، أومرض مؤلم، أومدافعة حدث، وكل حال يشتغل فيه قلبه ويخرج عن حد الاعتدال). الفتوى عند الشيخ سيدي محمد بن الكبير ـ رحمه الله ـ: لقد عرف الشيخ سيدي محمد بن الكبير ـ رحمه الله ـ بالجد والاجتهاد في طلب العلم والمعرفة، منذ نعومة أظافره، إلى مرحلة شيخوخته، حتى بلغ مرتبة العلماء الربانيين، ـ أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحدا ـ وقد من المراقبين لله في سائر أحوالهم، بل إنه من الرجال القلائل الذين حازوا أهلية الإفتاء، ونالوا رتبتها بكل جدارة واستحقاق، ومع هذه المكانة العالية، كان ـ رحمه الله ـ يتهرب من الفتوى ويدفعها، لا عن ضعف وقلة زاد، ولكن سيرا على ما كان عليه الصالحون من سلف هذه الأمة، وقد جاء عن الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ:(لولا الفرق من الله تعالى أن يضيع العلم، ما أفتيت، يكون لهم المهنأ وعلي الوزر). وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ يقول: (التقوى ترك الفتوى)، وذلك لفساد الزمان،

وتغير الأخلاق، واشتغال الناس بأسئلة التفكه والسمر، أوقصد الوصول إلى أغراض دنيئة وشهوات فاسدة، وقد كان الشيخ ابن عاشر ـ رحمه الله ـ يتوجع من آفات الزمان ويقول :

وزهدني في الفقه أني لا أرى يساءل عنه غيرُ شخصين في الورى
فزوجان راما رجعة بعد بثة وذئبان راما جيفة فتعسر

وإلى أجل ذلك كان الشيخ ـ رحمه الله ـ يميل إلى العزلة وترك الفتوى ومخالطة العامة في غالب الأحيان، بل قل إنه ليس له وقت لذلك، لاشتغاله بالتدريس والتربية، فجل أوقاته كان موزعا بين الوظائف المنوطة به، من عبادات، وتعليم، وحقوق الأسرة والضيوف.

وقد كنت في زمن سابق لم أدرك الحكمة والمقصد في ترك الشيخ ـ رحمه الله ـ للفتوى في أغلب الأحيان، وأتساءل في نفسي لم ترك الشيخ مخالطة عامة الناس في محافلهم واجتماعاتهم، وهوالعالم المشهور ذوالمكانة العالية في قلوب الناس، والمجتمع في حاجة لأمثاله، ولم أجد وقتها جوابا لأسئلة نفسي، ولم أدرك المقصد الذي كان يهدف إليه الشيخ ـ رحمه الله ـ إلا بعد رحيله لمثواه الأخير، فأدركت أن مخالطة العالم المربي لعامة الناس في أنديتهم ومحافلهم عائق له عن أداء مهمته التعليمية ورسالته التربوية، وبدأ جهاز البث في ذاكرتي الباطنية يبعث بأشرطة مصورة إلى جهاز العقل الواعي تحمل في طيها رسائل نيرة وتوجيهات تربوية كان الشيخ ـ رحمه الله ـ قد حملها بواطن عقولنا وسويداء قلوبنا ـ أقصد نفسي وزملائي في الدراسة ـ في دروسه وتوجيهاته التربوية في تلك المدة الزمنية التي كنا فيها في حضنه وتحت رعايته، ومن تلك الرسائل ما كان يردده غالبا في دروس التربية، في بيان مقاصد العزلة وذكر أهدافها، من ذلك قول بعض الحكماء :

ما لذي اللب إلا أن يتوار في زمان الفجور تحت الجدور
مسبل الستر جاعل البيت سجنا ضيقا عد نفسه في القبور
أولم تكف حجرتي عن فضولي هذه غاية المنى والسرور

وقال آخر :

لقـــاء النـــاس ليس يفيد شيئـا سـوى الهـذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ عـلـــم أوإصـــلاح حـــال

أ نـــواع الفتـــوى:

لقد عرف الشيخ سيدي محمد بن الكبير ـ رحمه الله ـ بنشاطه التعليمي وتوجيهه التربوي، ومن ذلك قيامه بمهمة الفتـوى بين طلبته وخواص جلسائه، بيانا لما أشكل عليهم المسائل العلمية والدقائق الفقهية، وقد تنوعت الفتوى عند الشيخ إلى نوعين: عامة وخاصة.

أ ـ الفتـوى العامـة: وأ قصد بالفتوى العامة، الفتوى في مجالسه العلمية مع طلبته، فكان ـ رحمه الله ـ يجيب سائليه من طلبته وجلسائه عما سألوا، فيبين لهم ما عسر فهمه من دقائق العلوم، ويُبَسِط ما اسْتعْصِيَ بيانُهُ من شوارد الفنون.

ب ـ الفتوى الخاصة: وأعني بها فتوى الشيخ فيما يتعلق بمصلحة شخص معين، مما يرد على الشيخ من أسئلة واستفسارات في نوازل خاصة، وهذا النوع الثاني من الفتاوى كان الشيخ ـ رحمه الله ـ يتحاشاه إلا قليلا منه، لاستغراق أوقاته في القيام بوظيفة التدريس، وحلقات القرآن الكريم، وفي أوقات الراحة القيام بمهام الأسرة وشؤون الطلبة، ومقابلة الضيوف ومؤانسة الزوار، وكلها أعباء ومشاغل لا تدع وقتا للقيام بوظيفة الفتوى، والفتوى مسؤولية صعبة تحتاج إلى فراغ وقت زيادة على شروطها السابقة.

تأسيس مجلس الفتوى:

لقد كان الشيخ سيدي محمد بن الكبير ـ رحمه الله ـ دائم الحضور في قضايا مجتمعه، إما بذاته أوبتوجيهه ورعايته، فكان يمثل الإمام القدوة التي لا تغيبه وظائفه وأشغاله الخاصة عن مهام مجتمعه، ومن ذلك أنه كان أحد الأعضاء الذين ضمهم مجلس الفتوى الذي أسسه الشيخ القاضي سيدي عبد الحق بن عبد الكريم التمنطيطي في الفترة الزمانية التي تولي

فيها رئاسة المجلس القضائي الشرعي في الحقبة الاستعمارية بعد وفاة أخيه القاضي سيدي محمد بن عبد الكريم. وكانت مهمة مجلس الفتوى بيان الأحكام الشرعية للقضايا التي ترد المجلس القضائي الشرعي في ذلك الوقت. وبالمناسبة فإننا اليوم في عصر اتسم بسرعة تجدد المعلومات، جراء التطورات التكنولوجيا، وأصبحت قضايا المجتمعات والحوادث المتجددة التي لم يعرفها أهل الأزمان السابقة، في حاجة من علماء الأمة ومفكريها، إلى دراسة معمقة وبحث مستفيض، يدرك من خلالهما الحكم الشرعي لتلك النوازل والقضايا المعاصرة، وهذا يمكن تحقيقه في كثير من القضايا المعاصرة بالعمل الفردي من طرف المؤهلين للإفتاء في مجتمعاتنا، بل لابد من التفكير في تأسيس مجالس للفتوى في بلدنا الغالي بلد الشهداء والعلماء، خصوصا وأن التواصل بين الأفراد والجماعات قد أصبح ميسورا سهلا عبر وسائل الاتصال المتطورة، بل إننا في عصر أصبحت فيه التخصصات العلمية والمهنية والإدارية حاجة ملحة لا يستغني عنها المجتمع، ولذلك أرى أننا في حاجة إلى تخصص الفتوى بحسب تلك التخصصات، فيكون لكل تخصص في أي جانب من جوانب حياتنا مجلس إفتاء يتولى البحث في القضايا المستجدة، وإعطاء الحكم الشرعي لها، والأمر سهل إذا توفرت النية الحسنة مع العزم الصادق من الجهة الوصية في البلاد، فكما استطاعت الجهة الوصية على العدالة تطوير الجهاز القضائي وتخصيصه، حتى يستطيع تحقيق متطلبات المجتمع، فكذلك في مقدور السلطة الوصية على الشؤون الإسلامية إنشاء مؤسسات للفتوى تكون متخصصة تلبي حاجات المجتمع ومتطلبات الأفراد.

مرجعية الشيخ في الفتوى:

عرف الشيخ سيدي محمد بن الكبير ـ رحمه الله ـ بشدة تمسكه بالمذهب المالكي، وذلك بحكم انتمائه للإقليم التواتي، وأهل توات معروفون بإتباعهم بمذهب مالك، منذ قرون خلت لا يحيدون عنه، فكان الشيخ ـ رحمه الله ـ بحكم هذا الانتماء لا يخرج فيما يصدر عنه من فتاوى عن مذهب مالك، إلا لحاجة ملحة، أومصلحة راجحة، ومن ذلك :

أ ـ إفتاءه بجواز الإحرام في الحج والعمرة من جدة، دفعا للمشقة المترتبة عن الذهاب إلى الميقات التي دلت نصوص الشريعة على وجوب دفعها، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

ب ـ القول بجواز تأخير صلاة المغرب بعد الغروب، وكذا صلاة الصبح إلى الإسفار البين وفق ما جرى به العمل في الإقليم التواتي، وإن كان مخالفا لمشهور مذهب مالك، وذلك أن أهل توات كان أغلبهم يعتمدون في معيشتهم على الزراعة؛ فيتأخرون في مزارهم إلى غروب الشمس فيؤخرون صلاة المغرب حتى يدرك الناس صلاة الجماعة، أما تأخير صلاة الصبح؛ فإن أغلب أهل توات كانوا فقراء لا يوجد عندهم كهرباء، وشوارعهم ضيقة ومظلمة ودفعا للمشقة والعسر عنهم يؤخرون صلاة الصبح حتى الإسفار فيظهر الضوء في الأزقة، ولفائدة أخرى فهم كانوا يمكثون في المسجد بعد صلاة الصبح في الذكر وتلاوة القرآن إلى طلوع الشمس وصلاة الضحى، وحتى لا يصيبهم الملل لطول الوقت أخروا صلاة الصبح، وعضدوا ذلك بما جاء في الموطأ: (وقال مالك الشفق الحمرة التي في المغرب فإذا ذهبت الحمرة فقد وجبت صلاة العشاء وخرجت من وقت المغرب). وقوله ظاهر في امتداد وقت صلاة المغرب إلى غروب الشفق، وهومذهب إسحاق وأبي ثور والأوزعي وأصحاب الرأي.

قال الباجي: (رُوِيَ عَنْهُ فِي الْمُوَطَّأِ أَنَّ آخِرَ وَقْتِ الْمَغْرِبِ إذَا غَابَ الشَّفَقُ وَرُوِيَ عَنْهُ فِي الْمُدَوَّنَةِ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ وَ بِهِ قَالَ أَبُوحَنِيفَةَ... وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ آخِرَ وَقْتِهَا مَغِيبُ الشَّفَقِ مَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (وَقْتُ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَسْقُطْ نُورُ الشَّفَقِ).

وقد شهر هذا القول ابن العربي في (أحكام القرآن)، وصححه في (العارضة)، واختاره ابن عبد البر، والمازري، وابن رشد، واللخمي وغيرهم، وقال الناظم:

وامتد للشفق وقت المغرب قد قاله الرجراجي وابن العربي.

وأما صلاة الصبح، فاستدلوا على تأخيرها إلى ما روي في الموطأ: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن وقت صلاة الصبح

قال فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد صلى الصبح حين طلع الفجر ثم صلى الصبح من الغد بعد أن أسفر ثم قال أين السائل عن وقت الصلاة قال هاأنذا يا رسول الله فقال ما بين هذين وقت).

وإننا لندرك جميعا من خلال ما ذكر مكانة سيدي محمد بن الكبير ـ رحمه الله ـ الفقهية وعلمه بمقاصد الشريعة وحكمها، وأنها جاءت للتحقق للبشر مصالحهم في دنياهم وتبلغهم السعادة في أخراهم، ومدى المرونة التي كان يتمتع بها، وإن من مرونة العالم وفقهه إبقاء الناس على ما ألفوه وجرت به عاداتهم وأعرافهم، ما وسعهم الشرع بذلك.

الخاتمـــــة:

إن مما سبق بيانه يظهر مكانة الفتوى ومدى حاجة الأمة إليها في هذا العصر الذي تتجدد فيه الأحداث وتسير فيه متطلبات الإنسان وحاجاته سير حثيثا، فينبغي لأهل العلم والمعرفة بشريعة الله الذي لهم أهلية الإفتاء أن يولوا قضايا مجتمعهم عناية واهتماما حتى تكون حركة الحياة عندنا تسير وفق شريعة الله ومنهاجه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المعاجـــــــم

1 - المصباح المنير للفيومي ط/ مكتبة لبنان بيروت.
2 - المعرب في ترتيب المغرب للمطرزي ط/ دار الكتاب العربي بيروت لبنان.
3 - القاموس المحيط الفيروزبادي ط/ دار الكتاب العربي.
4 - لسان العرب لابن منظور ط/ دار الفكر بيروت لبنان.
5 - معجم مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون.
6 - تاج العروس للزبيدي.
7 - المحكم المحيط لأبي الحسن المرسي تحقيق عبد الحميد هنداوي ط/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
8 - مفردات غريب القرآن الراغب الأصفهاني.
9 - كتب الفقـــــــه
10 - تاج الإكليل للإمام المواق
11 - مواهب الجليل للحطـــاب
12 - مختصـــر خليل
13 - المجموع للنووي
14 - شرح خطبة مختصر خليل لأبي العباس الهلالي
15 - الفروق للإمام القرافي
16 - مقدمـــة كتاب الفتاوى للشاطبي تحقيق أ د/ محمد أبو الأجفان ط/ الأولى 1405هـ/1984م.
17 - أصول الفتوى والقضاء في المذهب المالكي د/ محمد رياض ط/ الثالثة 1423هـ/2002م المملكة المغربية.
18 - أداب الفتوى والمفتي والمستفتي الإمام النووي
19 - كتب الأصـــــــــول
20 - إعداد المهج للاستفادة من المنهج

21 - الرسالة للإمام الشافعي

22 - نيل السول على مرتقي الوصول محمد يحيى الولاتي تحقيق محمد عبد الله الولاتي ط/ دار عالم الكتاب الرياض المملكة العربية السعودية.

23 - نثر الورود على مراقي السعود.

24 - التعارض بين الراجح والمشهور في المذهب المالكي د/ قطب الريسوني ط/ الأولى دار ابن حزم بيروت لبنان.

25 - إعلام الموقعين لابن القيم تحقيق طه عبد الرءوف دار الجيل بيروت لبنان.

26 - كتب السياسة الشرعية

27 - الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للإمام القرافي

28 - محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني.